

إخترنا لك ١٢٢
الجمهورية العربية المتحدة
مذكرات
السير ونستون
تشرشل
٣

اهداءات ٢٠٠١

المرحوم/ محمد راغب عباس

وكيل وزارة الثقافة سابقا

اخترنا لك

مذكرات ونستون تشرشل

(٣)

على أهبة الاستعداد

فى هذه الآونة من صيف ١٩٤٠ ، اصبحنا منفردين ، بعد اندحار فرنسا ولم يكن فى مقدور دول (الدومنيون) . أو الهند او المستعمرات أن تمدنا بالمساعدات اللازمة التى كنا فى أمس الحاجة اليهـا ، وكانت الجيوش الالمانية الجرارة المنتصرة المدربة وقد توافر لهـا السـلاح الاحتياطى الضخم ، والمستودعات والمصانع التى استولت عليها غنيمة باردة . اخذت هذه الجيوش تستعد للمعركة الفاصلة .

ووقفت ايطاليا بقواتها الكثيفة الجرارة ــ وقد اعلنت الحرب علينا ــ تبحث فى لهفة عن سبيل لتدميرنا فى البحر المتوسط ومصر .

ووقفت اليابان فى الشرق الاقصى تنظر الينا نظرة غريبة يتعـذر علينا تفسيرها وتطالبنا فى الحاح وتهديد باغلاق طريق بورما فى وجه المساعدات الى الصين ، وكانت روسيا السوفييتية ــ المرتبطة مع المانيا النازية بميثاقها ــ تقدم الى هتلر مساعدات هامة من المـــواد الخام ..

اما اسبانيا ــ وقد احتلت منطقة طنجة الدولية ــ فربمـا تغدر بنا بين آونة واخرى فتطالبنا بجبل طارق ، وقد تسـتنجد بالمانيـــا لمساعدتها فى احتلاله ، أو فى اقامة بطاريات المدفعية الهائلة لتعـويق اسطولنا عبر المضيق وقد انتقلت الحكومة الفرنسية التى يرأسها بيتان الى فيشى ، واصبح من المنتظر بين آونة واخرى . اعلانهاالحرب علينا . على أن بقية الاسطول الفرنسى فى طولون قد اصبحت فىقبضة الالمان . وهكذا رأينا اننا لسنا فى حاجة الى مزيد من الاعداء

وايقن العالم ــ بعد وهران ــ أن الحكومة والشعب فى بريطانيـــا مصممان على القتال حتى النهاية .

ومع انه لم تضعف معنوية بريطانيا ، الا أن السؤال الذى ظـل يراودنا هو : كيف يمكن لنا أن نجتاز هذه الصعوبات القائمة ؟ لقـد كان من المعروف أن جيشنا فى الوطن لايحمل سلاحا اكثر منالبنادق ، وستمضى مدة قبل أن تقـدر مصانعنا على تعويض ماخسرناه من عتاد فى دنكرك .. أليس من العجيب بعد كل هذا الا يكون العالم باكمله قد اصبح على يقين من أن ساعتنا الاخيرة قد حانت ؟..

وانتشر الرعب فى الولايات المتحدة وسائر الدول الحرة الاخرى واخذ الامريكيون يتساءلون فى اهتمام : هل من واجبهم أن يجازفوا بمواردهم المحدودة الضئيلة ارضاء للمشاعر الطيبة وحدها وان كانت المخاطرة ميئوسا منها ؟..

اليس من الاجدى ان يبذلوا اى جهد وان يوفروا كل سلاح لملافاة ضعف استعدادهم . وكان التغلب على هذه الاسانيد ، يتطلب منطقا مستقيما وعلى جانب من الثقة ، ولاريب فى أن الشعب البريطانى مدين لرئيس الولايات المتحدة وكبار القادة والمستشارين ، لانهم على الرغم من اقتراب موعد انتخابات المرة الثالثة للرئاسة لم يتخلوا عن ثقتهم القوية فى تصميم بريطانيا ، وقدرتها على النضال . وليس من شك فى ان تصميم بريطانيا القوى ، الذى لم ينله ضعف أو وهن — وقد كان لى شرف التعبير عنه — كان عاملا من عوامل رجحان كفتنا فى القتال .

فهذا الشعب الذى ظل فى سنوات ماقبل الحرب يسير فى طريق المسالمة وعدم التفهم ، ويخوض غمار المهازل الحزبية ، ويغرق الى ابعد الحدود فى لجة السياسات الاوربية بلا وجل .. هاهو الان يلاقى مصير تقصيره فى التأهب والاستعداد ، وثمرة اتكاله على النوايا الحسنة والحوافز الكريمة ولكن العالم يراه فى نفس الوقت مصمما على أن تصبح بلاده قطعة من الخراب قد تبدو جزيرته ذليلة خانعة .

وهذه بلا جدال احدى صفحات التاريخ الرائعة ، ولكنها ليست الصفحة الوحيدة به ، فعندما استولى الاسبارطيون على اثينا ، اصرت قرطاجنة على الصمود والاستبسال حتى الموت أمام روما ، والتاريخ زاخر بصفحات اخرى كثيرة عن شعوب استماتت فى النضال ، ودول شجاعة تفيض بالكبرياء .. آثرت أن تفنى وأن تموت والا يبقى لها أثر

ولم يكن هناك فى ذلك الحين سوى اقلية معدودة من البريطانيين والاجانب تقف على الاهمية الاستراتيجية لموقعنا الجغرافى المنعزل ، ولم يكن كثيرون قد عرفوا فى مدى سنوات ماقبل الحرب اننا كنا نحافظ على مقومات دفاعنا البحرى والجوى ، وقد مضى على الجزر البريطانية مايقرب من الف عام لم تشهد أرضها نيران غزو من الجو ، وظل كل بريطانى فى قمة الكفاح محتفظا بهدوء اعصابه ، راضيا كل الرضا بالتضحية بحياته فى سبيل بلاده وسرعان ما اخذ الاعداء والاصدقاء فى سائر بلاد العالم يدركون أن هذه هى طبيعتنا الاصلية .. وماذا يكمن خلفها ؟.. انه الامر الذى يمكن أن يتجلى فى الشدائد .

وكانت هناك ناحية اخرى ، فقد تعرضنا خلال شهر يونيو لخطر جسيم .. فقد رأينا آخر مالدينا من قوات احتياطية تسحب ليقضى عليها

فى محاولة يائسة فى فرنسا ، وان قواتنا الجوية تتضاءل شيئا فشيئا فى هذه الغارات التى نمضى بها الى القارة او فى نقلها الى هناك . ولوكان هتلر موهوبا ، أو متمتعا بحكمة خارقة ، لأبطأ فى هجومه على الجبهة الفرنسية مدى ثلاثة اسابيع أو اربعة بعد معركة دنكرك على خط عند السين ، ليتم استعداداته للهجوم على انجلترا .. ولو حدث هـذا لاصبحنا فى وضع رهيب لاخيار لنا فيه ، فاما أن نتخلى عن فرنساوفى هذا تعذيب لنا ، وألم لفرنسا ، واما أن ننشر قواتنا وننشرها مع مافى هذه القوات من ضرورة قصوى لمستقبلنا وحياتنا ، اذ كلمـا حفـزنا الفرنسيين على الاستمرار فى القتال ، تحتم علينا أن نغدق العون لهم ، وهذا بطبيعة الحال يؤدى الى اشتداد الصعوبات فى طريق اعـدادنا للدفاع عن انجلترا نفسها ، ولاسيما بالنسـبة للاسراب الخمسـة والعشرين من الطائرات المقاتلة التى يتوقف مصـير كل شىء عليهـا . وبالطبع كان مستحيلا أن نتخلى عن هذه الاسراب ، ولكن رفضنا سيؤدى بالتأكيد الى اغضاب حليفتنا المستبسلة مما يعكر صفو علاقتنا ، وعلى هذا فقد رأينا عددا من كبار قادتنا ، ينظرون الى مشكلاتنا الهينـة نوعا ما ــ بعد أن أصبحنا وحدنا ــ بشىء من الراحة ، وكأن عبئا ثقيلا قد انزاح عن كواهلهم ، وأصبح وضعنا كوضع مدرب أحـد النوادى العسكرية الذى أخذ يخاطب لاعبا قد تهاوت معنوياته بقوله :

« أيا ماكان الامر فقد بلغنا المعركة الفاصلة ، وسيكون نادينـا ميدانها » .

* * *

لم تكن القيادة الالمانية العليا ، حتى هذه الفترة قد اسـتهانت بقيمة ماعليه مركزنا من قوة . وقد روى تشيانو انه قابل هتلر فى برلين فى ١٧ يوليو ١٩٤٠ م ، وتحدث هو والجنرال فون كايتل طويلا ، كمـا تحدث هتلر نفسه عن غزو لانجلترا ، فأكد له ان الرأى لم يستقر نهائيا على اى شىء وقد ذكر أن عملية النزول الى البر فى انجلترا غيرمستحيلة ولكنها صعبة جدا ويجب ان تقوم بها ألمانيا وهى فى غاية الحذر ، اذ أن اخبارنا عن الترتيبات العسكرية فى الجزيرة ، وطرق الدفاع عن شواطئها قليلة وغامضة ومثبتة فى صحتها « وأضاف كايتل أن مايبدو سـهلا وجوهريا هو شن هجوم جوى مركز على المطارات ، والمصانع ومراكـز المواصلات الرئيسية فى بريطانيا العظمى ، ومن المحتم ان يعـرف كل انسان أن السلاح الجوى البريطانى فى منتهى القوة ، وذكر كايتل أن هذا السلاح يتألف من حوالى الف وخمسمائة طائرة مستعدة لاعمـال الدفاع والهجوم المضاد ، واعترف بأن الغارات التى يقوم بها السـلاح

الجوى البريطانى قد تزايدت كثيرا ، وانا من ناحية اصابة الاهداف من الجو فى غاية المهارة ، وكان عدد الطائرات المغيرة فى كل مرة يصــل الى الثمانين ، لكن انجلترا تعانى نقصا شديدا فى الطيارين ، وليس فى وسعها أن تستعيض عن هؤلاء الذين يهاجمون المدن الالمانية الان ، بالطيارين الجدد الذين ينقصهم التدريب الى حد كبير .

واصر كايتل أيضا على ضرورة توجيه ضربة الى جبل طارق لقطع شرايين المواصلات البريطانية وشل حركتها ، ولم يشر كايتل او هتلر الى مدة الحرب او اجلها ، وكان هتلر وحده هو الذى ذكر عرضا بأن الحرب يجب أن تنتهى قبل مستهل شهر اكتوبر .

هذا هو التقرير الذى وضعه تشيانو فى مذكراته ، وقد عــرض على هتلر استجابة لطلب الدوتشى العاجل ـ امداده بحوالى عشر فرق من قواته ووحدة جوية تتكون من ثلاثين سربا ، للمساهمة فى الغــزو ، وقد اعتذر هتلر عن قبول القوات البرية فى لباقة ووصلت بعض الاسراب الجوية الايطالية ولكنها لم تصب نجاحا فى مهمتها كما سوف نذكر .

وقد القى هتلر فى ١٩ يوليو خطاب القائد المنتصر فى الريشتاغ وبعد أن تنبأ بأنى سالجأ الى كندا قدم مايمكن أن يسمى عرضا للصلح وقد اعتذر هتلر عن قبول القوات البرية فى لبــاقة ، ووصــلت بعض طريق السويد والولايات المتحدة والفاتيكان .

وبدا من الطبيعى ان هتلر بعد أن خضعت اوربا كلهـا لارادته سيكون فى غاية السرور اذا تمكن من الحصول على موافقة بريطانيا على كل مافعله ، ولم يكن العرض فى الحقيقة يتناول السلام ، وانما يتناول الاستعداد لتقبل اذعان بريطانيا للتخلى عن كل ماخاضت الحــرب من اجله .

وفكرت اول الأمر فى اثارة الموضوع بصفة رسمية فى البرلمان ، ولكن زملائى الوزراء رأوا أن مثل هذا العمل يؤدى الى التشويش حول موضوع كنا جميعا متفقين عليه ؟ وتقرر ـ بدلا من ذلك ـ ان يكلف وزير الخارجية بالرد على عرض هتلر فى اذاعة موجهة ، فى يوم ٢٢ يوليو حديثا اطرح فيه دعوة هتلر لنا بالاستسلام لمشيئته .

ووازن فيه بين أوربا الهتلرية ، واوربا التى تقاتل فى ســـبيل حمايتها ، واعلن اننا لن نتوقف عن القتال حتى نضمن وجود الحرية .. وفى خلال ذلك كانت الصحافة البريطانية ودار الاذاعة قد رفضت اى حديث عن الصلح ، دون تدخل من حكومة جلالته ، وانما بدافع من نفسها بعد الاستماع الى خطاب هتلر فى الإذاعة .

ويذكر تشيانو فى مذكراته أنه « عندما اذيع اول رد بريطانى — وكان متسما بالبرودة — على الخطاب فى الساعات الاخيرة من ليلة ١٩ يوليو .. ساد بين الالمان شعور بخيبة الامل بيد ان هتلر متطلع الى التفاهم مع بريطانيا العظمى فهو يدرك ان الحرب مع البريطانيين ستكون قاسية تفيض بالدماء .. وهو يدرك تماما ان الناس فى كل مكان يكرهون سفك الدماء ، أما موسولينى فيخشى من ناحية أخرى ان يجد الانجليز فى خطاب هتلر الماكر للغاية مبررا للبدء فى المفاوضات ، وهذا مما يحز فى نفس موسولينى ، لانه يرغب فى الحرب الان اكثر من اى وقت سبق « وأيا ماكان الامر فلم يكن موسولينى فى حاجة الى الغضب أو الثورة، فسيتاح له أن يخوض كل أهوال الحرب التى يتمناها .

وقد قدم رؤساء أركان الحرب بواسطة الجنرال ايسمال اقتراحا فى اواخر شهر يونيو لازور المناطق المهددة فى السواحل الجنوبية والشرقية وتلبية لهذا الاقتراح افردت يوما أو يومين من كل أسبوع للقيام بهذه الزيارة المحبوبة ، وكنت أنام — عندما تفرض الظروف — فى قطارى الخاص الذى تهيأت لى فيه كافة سبل الراحة ، ليتاح لى اداء أعمالى العادية بانتظام .. مع العلم بانى كنت أتصل دائما بهوايتهول وقمت بزيارة « التاين » و « الهامبر » وغيرهما من أماكن الانزال المحتملة، وشاهدت مناورة للفرقة الكندية فى كنت ، وقمت بالكشف عن الخطوط الدفاعية الداخلية فى هارويتسن ودوفر ، وكانت احدى زياراتى الاولى للفرقة الثالثة التى يقودها الجنرال مونتجومرى وهو ضابط لم أكن قد التقيت به من قبل . وقد صحبتنى زوجتى فى هذه الزيارة للفرقة المذكورة المرابطة على مقربة من برايتون . وكانت هذه الفرقة قد أعطيت أهمية خاصة من ناحية الاعداد ، وكانت على وشك الابحار الى فرنسا عندما انتهت المقاومة الفرنسية .

وقد اقام الجنرال مونتجومرى مركز قيادته فى ستينينج ، وارانى مناورة صغيرة ، كانت الحركة الرئيسية فيها مناورة . قامت اساسا على تحركات حاملات مدافع برن الرشاشة التى لم يكن فى استطاعته ان يستخدم منها حينذاك سوى سبع أو ثمانى حاملات ومضت بنا السيارة بعد ذلك على الساحل عبر « شورهام » و «هوف» الى أن وصلنا الى جبهة برايتون المعروفة ولى فيها كثير من ذكريات الصبا .. وقد طعمنا عشاءنا فى فندق البيون الملكى الذى يقع على الناحية المواجهة لرصيف الميناء الداخلى . وكاد الفندق يكون مقفرا من الناس بسبب عمليات الانسحاب الاخيرة ، ومع ذلك فكان هناك من يستنشق الهواء الطلق ويتنزه على الشاطىء ، وفى الميادين ، وقد سرنى أن أرى طائفة من « حرس قاذفى القنابل » يمهدون مركزا لمدفعهم

الرشاش فى احد اكشاك الرصيف . فذكرنى ذلك بما كنـا نفعله فى طفولتنا ونحن نعجب بالمخلفات القديمة . وكان الجو رائعا جميـلا ، وتحدثت الى القائد أحاديث مثمرة .. والحق أنى كنت شـديد الاغتباط بهذه الزيارة .

وفى اواسط شهر يوليو اقترح على وزير الحربية احلال الجنرال بروك محل الجنرال ايرونسايد فى قيادة جيوش الوطن ، وفى ١٩ يوليو حينما كنت اطوف لاستطلاع القطاعات المعرضة للهجوم ، زرت القيادة الجنوبية ، ورايت تجربة واقعية ساهمت فيها اثنتا عشرة دبابة تقريبا ، ومكثت فى السيارة طيلةمابعد الظهر مع الجنرال بروك الذى كانيتولى قيادة تلك الجبهة ، ولاشك ان سجل ماضيه كان رائعا ، فقـد قاد المعركة الفاصلة عند أبيرس اثناء عملية الانسحاب الى دنكرك ثم تمكن بما أوتى من حذق وصلابة ، وفى وسط عوامل فى منتهى الصـعوبة والقوة ، عندما كان يقود القوات الجديدة التى ارسلناها الى فرنسـا خلال الاسابيع الثلاثة الاولى من يونيو ـ تمكن من انقاذ حملته ، وكانت تربطنى به صلة ايضا عن طريق اخويه البطلين اللذين كانا لى صديقين فى بداية حياتى العسكرية .

على أن هذه العلاقات والذكريات لم يكن لها اى تأثير على وجهـة نظرى فى موضوع حيوى كهذا الذى يتصل باختيار القائد العام ولكنها وثقت الصلات بينى وبين آلان برون فى غضون الحرب .

وقطعنا مايقرب من اربع ساعات معا فى السيارة فى ذلك اليـوم من يوليو ١٩٤٠ ، وكنا على اتفاق تام بشأن كافة وسائل الدفاع فى داخل الوطن ، وبعد المشاورات الضرورية مع الاخـرين وافقت على اقتراح وزير الحربية بتولى بروك القيادة العامة خلفا للجنرال ايرونسايد الذى واجه احالته الى التقاعد بما اشتهر عنه من اعتزاز فى جميـع الظروف التى تمت بها اعماله العسكرية .

وظل بروك فى القيادةطيلة سنة ونصف تعرضنا فيها لخطر الغزو، فنظم القوات تنظيما حسنا وعندما صار فيما بعد رئيسا لاركان حرب القوات الامبراطورية استمر التفاهم بيننا رائعا حتى انتهينا الى النصر المؤزر .

وسأورد بعد قليل المكاسـب التى حققتها من مشورته فى اجراء تغييرات حاسمة فى القيادات فى مصر بالشرق الاوسط فى شهر اغسطس عام ١٩٤٢ ، وماكان لها من خيبة أمل فى موضوعقيادة عملية الغزو عبر القناة (بحر المانش)فى عملية السيد الاكبر (أوفر لورد) عام ١٩٤٤ وقد ادى خدمات جليلة فى المدة الطويلة التى عمل فيها رئيسا للجنـة

رؤساء أركان الحرب ، فى معظم سنى الحرب ، ورئيسا لاركان حرب القوات الامبراطورية ، لا للامبراطورية البريطانية فحسب بل للحلفاء جميعا ، وسأحكى فى هذه القصة بعض الاختلاف فى وجهات النظر التى وقعت بيننا أحيانا ، واقص كذلك كثيرا من المسائل التى اتفقنا فيها وهى تؤكد صداقتنا كل التأكيد

وفى هذا الشهر نقلت الينا كميات وافرة من السلاح الامريكى عبر الاطلنطى من غير أن تمس بسوء ، وبينما كانت البواخر تقترب من سواحلنا بما تحمل من عتاد لايقدر بثمن ، كانت هناك قطارات خاصة أعدت لتحملها من الموانى ، وقد مكث الحرس الوطنى فى كل مقاطعة وكل بلدة وكل قرية متلهفا على تسلم هذه الاسحلة ، وأكب الرجال والنساء على العمل بكل قواهم لتجهيز هذه الاسلحة وجعلها صالحة للاستعمال . وهكذا أصبحنا فى نهاية شهر يوليو شعبا مسلحا على اهبة الاستعداد لمواجهة اى غزو يقوم به المظليون ، نعم لقد أصبحت بريطانيا أشبه ماتكون « بخلية النحل » واذا قدر أن تنهار مقاومتنا . وهو احتمال بعيد فان حشدا من الرجال والنساء ، سيظل شاكى السلاح ، وقداستطعنا بوصول الدفعة الاولى من البنادق الامريكية الى حرسنا الوطنى ،بصرف النظر عن ضآلة كمية الطلقات التى لم تزد عن خمسين طلقة لكل قطعة ؛ استطعنا تزويد الجيش العامل بثلاثمائة الف بندقية بريطانية .

وبدأ كثير من الخبراء يجهزون بكل سرعة مدافع الخمسة والسبعين ملليمترا ، التى وصلت الينا ومع كل مدفع منها الف قذيفة ، ولم يكن بحوزتنا معدات لايصال المدافع بعرباتها كما أنه لم تتواجد لدينا الوسائل العاجلة لانتاج عدد أكبر من القذائف وعلى الرغم من أن المدافع المختلفة الاحجام تعقد العمليات الحربية ، الا أننى صممت منذ البداية على استخدامها وغدت هذه المدافع منذ وصولها الينا وطيلة عامى ١٩٤٠ ، ١٩٤١ جزءا مهما فى قوتنا العسكرية المدافعة عن الوطن . وقمنا بعمل ترتيبات خاصة تعد مبتكرة دربنا عليها عددا من الرجال ، لادارة هذه المدافع وربطها فى سيارات الشحن لنقلها من مكان الى آخر ، وعندما تقاتل دفاعا عن كيانك فوجود مدفع خير من عدمه ، وقد مكث المدفع الفرنسى من طراز خمسة وسبعين ملليمترا سلاحا فعالا بالرغم من قدمه بالنسبة للمدافع البريطانية الحديثة من طراز خمسة وعشرين رطلا والمدافع الالمانية (هاوتزر) .

وعندما مر شهرا يوليو واغسطس من غير أن تنزل بنا الكارثة الساحقة ، هدأنا بعض الشىء ، وازدادت ثقتنا فى مقدرتنا على خوض غمار حرب طويلة وقاسية ، وكنا نشعر بقوتنا تزيد يوما عن يوم . فكل

فرد فى المجموع يعمل بكل طاقته ليل نهار ، ويمضى الى نومه بعد ذلك شاعرا بثمار اعماله ، واثقا بان الوقت اصبح فى صالحنا ، واننا ستنتصر فى الحرب من غير شك .

وازدحمت الشواطىء الآن بمختلف انواع الوسائل الدفاعية وتم تنظيم البلاد كلها فى مجموعات ووحدات دفاعية وغدا السلاح يتدفق من المصانع ، ولم يكتمل شهر اغسطس حتى أصبح فى حوزتنا مائتان وخمسون دبابة جديدة . وبدأنا نجنى ثمار المساعدة الامريكية واخذ رجال الجيش البريطانى العامل ، وزملاؤهم من رجال الجيش الاقليمى يقومون بتدريباتهم فى ساعات الصباح الباكر حتى المساء ، وبهم لهفة الى لقاء العدو ، وازداد عدد جنود الحرس الوطنى الى مافوق المليون ، وعندما كان ينقصهم السلاح ، كانوا يعمدون الى استخدام أسلحة الصيد ، والرياضة ، والمسدسات الخاصة ، واحيانا الهراوات والمجارف ولم يتكون فى بريطانيا طابور خامس ، وان صادفت قوات الامن بعض الجواسيس ، حققت معهم ، أما القلة الشيوعية الموجودة ببلادنا فقد تلاشت أصواتهم ، على حين اقدم الشعب كله على بذل كل منا يستطيع من تضحيات عالية .

وعندما زار رينتروب روما فى سبتمبر قال لتشيانو : « ان الدفاع الاقليمى عن انجلترا لا وجود له ولاشك ، وان فرقة المانية واحدة يمكنها أن تؤدى الى انهيار كامل فيها » ان قوله هذا يفضح جهله بنا ، وعلى كل فقد كنت أسائل نفسى دائما : ماذا يكون لو استطاع مائتا الف ألمانى من جنود العاصفة التجمع على شواطئنا ؟ لاريب ان المذبحة ستكون مروعة وقاسية عند الفريقين ، اذ لم يكن هناك مجال لرحمة أو هوادة ، فقد كان الالمان على استعداد لاستخدام الارهاب ، وكنا من ناحية على استعداد للاستمرار فى المقاومة الى اقصى حد ممكن وقد قررت تطبيق المثل السائر : « بوسعك دائما أن تمضى بشخص آخر معك بعيدا عن هذه الدنيا » وقد قدرت أن أهوال هذا المنظر ستفضى — فى النهاية — الى ترجيح كفة الولايات المتحدة ، لكن كل هذه العواطف لم توضع موضع التجربة والاختبار ، وفوق مياه المانش ومياه بحر الشمال الزرقاء رفضت عشرات العمارات البحرية الملتهفة على القتال ساهرة الليل بطوله ، بينما كان طيارو المقاتلات يحلقون فى السماء أو يقفون الى جانب طائراتهم استعدادا لتلقى أى اشارة تصدر اليهم ..

حقا لقد كانت تلك الفترات جديرة بالحياة أو الموت . اذا وقفت على حقيقة القوات البحرية فقد وقفت على معرفة لها خطرها وروعتها فاقتحام جيش لمياه المحيطات والبحار ، بالرغم من وجود أساطيل قوية وعمارات بحرية هائلة امامه ، عمل حربى معجز ، وقد أضاف البخار

كثيرا من القدرات الى امكانيات الاسطول فى الدفاع عن بريطانيا العظمى. ففى عصر نابليون كانت الرياح تستطيع الدفع بقواربه المسطحة القعر الى الخلف ، لكن ماجد بعد ذلك ، قد ضاعف من تفوق الاساطيل القوية ، ومقدرتها على تحطيم الغزاة ، وهم فى الطريق . وادى كل تعقيد فى الاجهزة الحديثة بالنسبة الى الجيوش الى ان أصبحت مهمتها أكثر صعوبة ومشقة ، والى أن صارت المتاعب التى تواجه قيادتها فى تزويدها بالعتاد والذخائر بعد انزالها امرا فوق الطاقة وفى ازمة الحرب السابقة التى اهتز فيها مصيرنا كانت لنا قوة بحرية متفوقة ، ولم يستطع العدو كسب معركة بحرية واحدة هامة ضدنا ، لقد عجز عن لقاء قوة طراداتنا ، وثمة بالطبع فرص اكثر من أن تعد تتصل برداءة الطقس وخاصة فى حال تكاثف الضباب ، على انه على فرض قيام هذه الفرص المعادية لنا ، واستطاع العدو النزول الى برنا فى مكان أو اكثر ، فان ، مشكلة تزويد هذه القوات بما يلزمها وتغذيتها باية تجمعات أخرى ، هذه المشكلة تظل مستعصية الحل . هكذا كان الوضع فى الحرب العالمية الاولى . أما الآن فقد دخل عنصر الطيران ، فما تأثير هذا التغير الرئيسى على الغزو ؟ من البين أن العدو اذا تمكن من السيطرة على مضايق دوفر ، بقوته الجوية المتفوقة ، فان خسائرنا فى المدمرات ستكون عظيمة للغاية ، وقد تكون ايضا فاصلة بل قاضية علينا . ولن يوجد انسان ــ الا فى حالات نادرة ــ لديه رغبة فى الاتيان ببوارج ضخمة أو طرادات كبيرة الى مياه تسيطر عليها القاذفات الالمانية ، وبالفعل لم نضع أى بواخر ضخمة الى الجنوب من فيرث أوف فورث أو الى الشرق من بلايموث ،ولكننا رصدنا فى هارويش ونور ودوفر وبورتسماوث وبورتلاند دوريات دائمة اليقظة تتكون من سفن حربية خفيفة ، وقد أخذ عددها يتزايد باستمرار ولم يأت شهر سبتمبر حتى أصبح هذا العدد اكثر من ثمانمائة ، لم يكن فى المقدور تدميرها الا عن طريق قوة جوية متفرقة معادية وتمارس العمل على مراحل .

وهنا يرد سؤال : لمن كان التفوق فى الجو ؟ لقد كنا نقاتل الالمان فى معركة فرنسا وهم متفوقون علينا فى العدد بضعفين أو ثلاثة أضعاف، وبالرغم من ذلك الحقنا بهم خسائر بما يوازى النسبة السابقة وفى سماء دنكرك وقد فرض علينا الاحتفاظ بدوريات مستمرة لتغطية انقاذ جيشنا ، كنا نحاربهم بكسب وغنم بالرغم من تفوق عددهم بنسبة اربعة اضعاف أو خمسة وتوقع مارشال الجو الاعلى دوادنج ، قدرتنا على قتالهم ودفع هجماتهم بنجاح فوق مياهنا وسواحلنا ومقاطعاتنا المكشوفة حتى لو تفوقوا علينا بنسبة سبعة أو ثمانية أضعاف .

وقد كانت قوة السلاح الجوى الالمانى فى ذلك الحين وفق معلوماتنا الوثيقة ـ وكانت صادقة باستثناء بعض المجموعات الخاصة ـ تعادل ثلاثة اضعاف مانملكه.. وبالرغم من أن هذا التفاوت كبير بالنظر للقتال، مع اعداء شجعان اقوياء كالألمان . فقد انتهيت الى النتيجة التى سبق التوصل اليها وهى أن فى سمائنا وفوق بلادنا ومياهنا نستطيع الانتصار على السلاح الجوى الألمانى واذا صح هذا فان بحريتنا هى الاخرى ستدوم لها السيطرة على البحار والمحيطات ، وستقوى على احباط محاولات الاعداء الذين يحاولون شق الطريق الينا .

وظل هناك عامل ثالث يتمثل فى الامكانيات والاحتمالات ، فلو استطاع الألمان ـ بما عرف عنهم من مهارة وبعد نظر ، اعداد حملة ضخمة فى سرية تامة تضم قطعا خاصة للانزال لاتحتاج الى موانىء أو ارصفة وانما تقوم بانزال الدبابات والمدافع والسيارات المدرعة فى اى مكان على الشاطىء فهل يتمكنون بعد ذلك من امداد هذه القوات بالتموين ؟ .. وقد ذكرت سابقا كيف طافت بى هذه الخواطر منذ عام ١٩١٧ ، وانتهت الآن بالقيام بحركة تنفيذ مضادة نتيجة لتوجيهى المباشر . وان لم يوجد لدينا اى مبرر يحملنا على الاعتقاد برجود هذه المخترعات لدى الألمان ، ولكن قواعد الحساب السلمية تقضى باحتساب الخسائر تماما كالأرباح.

واقتضى منا ايجاد المعدات التى احتجنا اليها فى عملية غزو نورماندى بذل الجهد الضخم المتواصل والتجارب الى جانب العون المادى الكبير من الولايات المتحدة طيلة ـ أربع سنوات ، وحقيقة لم يكن الألمان فى احتياج الى هذا العدد الهائل من المعدات فى مثل ذلك الوقت ولكن ما يملكون من معابر كان قليلا فى هذه اللحظة .

وهكذا اوجب علينا غزو انجلترا فى صيف ١٩٤٠ وخريف نفس العام تفوقا جويا هائلا وسيطرة بحرية اقليمية ، وكميات ضخمة من معدات الانزال ولكن السيطرة على البحر كانت لنا ، وكان لنا التفوق الجوى وكنا نؤمن ـ وقد ثبت فيما بعد صحة ما آمنا به ـ بأن الألمان لم يبنوا القطع البحرية الضرورية للانزال ..

هذه هى اسس تفكيرى فى عام ١٩٤٠ وكان هناك الكثير من الحديث فى هذا الموضوع والكثير من القلق فى شهر يوليو فى الدوائر الحكومية وخارجها فى بريطانيا ، وعلى الرغم من عمليات استطلاعها المستمرة وعن سفن النقل الالمانية فى البلطيق أو فى موانىء الراين والشلدات، وقدكنا على يقين كذلك من انآية بواخر او صنادل من ذوات المحرك الآلى لم تعبر

المضايق الى المانش وبالرغم من كل هذا فقد كان التجهيز والاعداد لمواجهة الغزو وسحقه شغلنا الشاغل جميعا ، وكنا نعتمد اعتمادا كليا على هذا التفكير فى الدوائر الحربية والقيادات العسكرية .

وكانت الخطة الالمانية التى كشف عنها ، تعتمد على ان يتم الغزو عبر القناة بسفن متوسطة تتراوح حمولتها مابين أربعة آلاف وخمسة آلاف طن مع قطع صغيرة أخرى ، ونحن نعلم الان انهم لم يتطلعوا قط الى السير بجيوشهم من موانىء البلطيق أو بحر الشمال فى بواخر كبيرة، كما لم يدر بخلدهم الغزو من موانىء بسكاى ، وهذا لايعنى انهم كانوا منصفين باختيارهم للساحل الجنوبى هدفا لهم وان كان كلانا على خطأ ، فغزو الساحل الشرقى كان أكثر قيمة وأكبر اهمية لو استطاع العدو ان يوفر السبل والوسائل لمحاولته ، وطبعا لم يكن هنــاك مجــال لغزو الساحل الجنوبى الا بعد أن تمر البواخر الضرورية جنوبا عبر مضيق دوفر ، بعد أن تتجمع فى الموانىء الفرنسية القائمة على القناة ، وطيلة شهر يوليو لم نلمح أثرا لمثل هذه التحركات .

وبالرغم من كل ذلك فقد وجب علينا ان نستعد لكافة الظروف والاحتمالات والا نوزع – فى الوقت نفسه – قواتنا المتحركة ، وان نجمع قواتنا الاحتياطية ونحشدها ، وفى المستطاع حل هذه المشكلة الشائكة والشائعة فى نفس الوقت ، فالاحداث تتوالى من أسبوع لآخر والساحل البريطانى المعروف بكثرة تعاريجه يبلغ طوله أكثر من الفى ميل ، باستثناء ايرلندا ، والسبيل الوحيد للدفاع عن محيط متسع كهذا – قد يتعرض أى جزء منه أو جزءان منه فى وقت واحد لهجوم مفاجىء ناجح – يحتم علينا انشاء مراكز للمراقبة والمقاومة حول الساحل أو الحدود ، غايتها عرقلة الزحف الأجنبى ، مع ايجاد أكبر قوة ممكنة من الاحتياطى فى الوقت نفسه تضم الجنود المدربين والعاملين فى وحدات متحركة يمكنها الوصول الى أى مكان يقع عليه هجوم مفاجىء فى أقصر مدة ممكنة ثم الشروع فى هجوم مضاد .

وحين رأى هتلر نفسه محاطا – فى المراحل الأخيرة من الحرب – بأعداء ، وواجه نفس المشكلة ، ارتكب فى معالجتها – كما سنعرف بعد – أخطاء جسيمة فلقد اقام شبكة من المواصلات تشبه نسيج العنكبوت ، واغفــل العنكبوت نفســـه ، ولما كانت قصــــة تشتيت القــــوات الفرنسية الخاطئة التى أدت بنا الى الكارثة واقتضتنا ثمنا فادحا ، لاتزال ماثلة فى ذهنى ، فاننى قد صرفت جهدى كله منذ البداية الى

حشد قوات المناورة ، وقد رسخت هذه السياسة فى نفسى الى اقصى حد ممكن تسمح به مواردنا المتضاعفة .

وقد التقت آرائى بوجهات نظر البحرية ، وارسل الى لأميرال بلوند فى ١٢ يوليو بيانا مفصلا مكتملا جهزه بالاشتراك معرئاسة أركان حربه قائما على هذه الاسس النظرية .. وقد فصل البيـان بالطبع جميع الصعوبات التى علينا مواجهتها ، وقال الاميرال باوند فى اجماله للخطة مايلى :

ربما يصل الى شواطئنا بما يقرب من مائة الف جندى دون أن تكون لدينا القوات البحرية الكافية لقطع الطريق عليهم ووقفهم ...

ولكن الابقاء على خط مواصلات — لتموين هذه القوات — امر مستحيل عمليا اذا استطاع السلاح الجوى الالمانى التغلب على سلاحنا الجوى واسطولنا فى وقت واحد ، واذا ما قام العدو بعملية كهذه فربما كان التقدم بسرعة الى لندن ، والاعتمـاد فى تموينه على البـلاد التى يستولى عليها على حين يرغم الحكومة على الخضوع والاستسلام .

وقد اقتنعت اقتناعا كاملا بهذا الاحتمال . وتغير الوضع تغيرا حاسما فى شهر اغسطس ، فقد استيقنت مخابراتنا الماهرة من ان هتلر قد اصدر تعليماته بالاعداد لعملية « سبع البحر » وأن هذه العملية فى دور الاعداد الفعلى فى هذه الآنة ، وظهر لنا بشكل نهائى أن الرجل سيقدم المغامرة وكانت الجبهة التى سيهجم عليها تختلف تماما ، وقد تكون ثانوية بالنسبة للساحل الشرقى الذى كنت انا قد وجهت اليه بالغ العناية مع رؤساء أركان الحرب والاميرالية وسرعان مابدأ عـدد كبير من الصنادل ذوات المحرك الآلى ، والزوارق البخارية يعبر أثناء الليل مضايق دوفر ، زاحفا بمقربة من الساحل الفرنسى ، ومتجمعا شيئا فشيئا فى سائر الموانىء الفرنسية الممتدة من كاليه الى بريست ، وكانت الصور الفوتوغرافية التى تصل الينا يوميا ، توضح لنا هذه التنقلات بدقة وعناية ، ورأينا انه من العسير علينا أن نبث الغامنا على مقربة من الساحل الفرنسى ومضينا فورا الى مهاجمة هـذه المراكب المتحركة بواحداتنا الصغيرة ، وركزت قيادة قاذفات القنابل هجومها على موانىء الغزو وسرعان ما انهالت علينا الانباء عن احتشاد جيش او جيوش المانية هائلة للقيام بهذا الغزو على قطاع الساحل المعادى ، وعن تحركات واسعة النطاق على السكك الحـديدية واحتشـادات ضخمة فى خليج كاليه ونورماندى ، وخرجت الى حيز الوجود اعداد وفيرة من بطاريات المدافع القوية البعيدة المدى ، منتشرة على طول السـاحل الفرنسى القائم على القنـاة وكان علينـا أن نواجه الخطر

الجديد ونقل اعتمادنا على هذه القدم الى القدم الاخرى ونهيىء كافة السبل لتيسير نقل احتياطنا المتحرك الذى يضاعف عـدده ــ الى الجبهة الجنوبية ومضى الوقت وقواتنا المتزايدة عددا المتقدمة الكفاءة وسرعة التحرك ، تطمئننا الى قدراتهـا وفعاليتها ولم ينقض النصف الاخير من شهر سبتمبر ، حتى كان فى استطاعتنا انتحشد ستعشرة فرقة مر خيرة الفرق نظاما واعدادا على الساحل الجنوبى ، بينها ثلاث فرق مدرعة ، عدا أجهزة الدفاع الساحلية المحليـة ، وقد اصبح فى مكنتها القيام على الفور بأى عمل عسكرى يوكل اليها ضد اية عملية للغزو أو الأنزال : وأصبحت لنا قوة ضاربة أو مجموعة من القوى الضاربة التى كان الجنرال بروك وحده القادر على تحريكها عندما تحين الساعة فهو اكثر سيطرة عليها من كل من عداه .

* * *

حدث كل هذا بالرغم من عدم ثقتنا بأن جميع المداخل ومصبات الانهار المنتشرة من كاليه الى تيرشيلينج وهليجولاند ، وكل ما امامه من جزر تقع بالقرب من الساحلين الهولندى والدانمركى ، لا تخفى قوات معادية هائلة أخرى من نوع صغير أو متوسط .

وقد خطر ببالنا ان الهجوم سيبدأ من هارديش حول بورتماوث وبورتلاند الى بليموث ، مع تركيز خاص على مقاطعة « كنت » أيضا، ولم توجد لدينا اية براهين أخرى ايجابية على ان موجة ثالثة من الغزو قد لا تتسق وتتوافق فى الزمن مع الموجتين الاوليين ، وتشن من موانىء البلطيق خلال مضايق سكاجراك فى سفن كبيرة ، ولا ريب فى ان مثل هذا الغزو جوهرى بالنسبة لخطط الالمان لتحقيق النجاح ، اذ تعتبر الوسيلة الوحيدة لوصول الاسلحة الثقيلة التى تم انزالها ، أو لاقامة مستودعات تموين كبيرة .

ودخلنا فى ذلك الحين فترة من التوتر الشديد ، واليقظة الدائمة وكان علينا طيلة الوقت ان نحرص على وجود قوات كبيرة فى الشـمال من « دوش » حتى « كروماريتى » كما قمنا بعمل الترتيبات اللازمة لسحب جزء منها فى حالة وقوع الغزو فى الجنوب ، وكان فى مقدرتنا بفضل الشبكة الرائعة الداخلية من سكك حديدنا ، وبفضل استمرار سيطرتنا على الجو فى سماء وطننا ان نسحب بكل ثقة ــ اربع فرق أو خمسا من الشمال لتعزيز الدفاع عن الجنوب فى حالات الضرورة القصوى ــ فى أيام الرابع والخامس والسادس من بدء تحرك العدو .

وأجرينا دراسة دقيقة لاوضاع القمر والمد والجزر وتيقنـا من

أن العدو سيؤثر عبور البحر فى الليل والنزول الى الارض عند الفجر ، وهانحن أولاء الآن نعرف أن ماتيقنا كان على صواب ايضا ، ولم نجد لدينا ذرة من الشك فى مقدرتنا على تحطيم كل مايسر للعدو النزول فى اكمة دوفر البحرية ، أو فى القطاع الساحلى الممتد من دوفر الى بورتسماوث الى بورتلاند وكانت أفكارنا جميعا ــ نحن الذين نتولى القيادة ــ تسير فى اتجاه وتوافق تامين مما يثير الأعجاب لتوجيه ضربة الى عدونا تخلف دويا فى كافة أنحاء العالم ، ولم يكن فى استطاعة أى انسان الا أن يحس بالحماسة ويشعر بالتأثر من هذا الجو الذى يوحى بعزم هتلر وعتاده .

وكان من بيننا من يتحرق شوقا الى قيام هتلر بمحاولته ، يحدوهم الى ذلك العوامل المجردة التى تؤكد لهم مدى تغير مجرى الحرب لو منى هتلر بتدمير محاولته ، وتحطيم أمانيه .

وكنا قد انتهينا خلال شهرى يوليو واغسطس من السيطرة الجوية على سماء بريطانيا ، وكانت قوتنا متفوقة تماما وبصورة خاصة فى سماء القطاعات الواقعة فى الجنوب الشرقى لبلادنا ، واخذت المدافع الدفاعية الدقيقة ، والمراكز المنيعة ، والحصون الشماء ، وحواجز مكافحة الدبابات ، وحواجز الطرق ، الى غير ذلك تملأ كل مكان وتوهجت سواحلنا بالاجراءات الدفاعية والبطاريات كما توفر لدينا عدد من المدمرات العاملة فى الأطلنطى مع مانى هذا الاجراء من ثمن باهظ تكبدته قوافلنا التجارية فى الاطلنطى كما شيدنا عددا اخر منها ، ليزيد استحكام الدفاع عن السواحل ، وقد أحضرنا بارجة التدريب (سنتوريون) واحدى الطرادات الى بلايموث . وظل اسطولنا فى ذروة قوته ، وفى قدرته ان يعمل مع تجنب كثير من الاخطار حتى الهامبر أو « ووسن »

وبهذا كنا على أتم الاستعداد لمواجهة اى شىء واخيرا .. فقد اقترب موسم الزوابع الاستوائية المعروفة فى اكتوبر ، وكان سبتمبر هو الشهر الذى يتحتم على هتلر أن يوجه فيه ضربته اذا واتته الجرأة الكافية حيث تكون فى صالحه ظواهر المد والجزر والقمر فى أواسط ذلك الشهر .

وارى الوقت قد حان ، لننتقل معا الى معسكر الاعداء ، حتى اطلع القارىء على مدى استعداداته وخططه ، كما وقفنا عليها فى هذه الآونة .

* * *

عملية سبع البحر

لم تكد تنشب الحرب فى ٣ سبتمر عام ١٩٣٩ ، حتى بدأت البحرية الالمانية ـ كما تشير الوثائق المصادرة بعد الحرب ـ عدا الدراسات اللازمة لغزو بريطانيا . وقد رأت نقيض ما ارتأيناه ـ أن السبيل الوحيدة هى اتمام الغزو عبر هذه المياه الضيقة لبحر المانش ولم يقدر الالمانيون أى احتمال آخر ، ولوكنا عرفنا هذهالحقيقة آنذاك ، لاسترحنا كثيرا حيث يواجه الغزو عبر المانش اكثر سواحلنا تحصينا ، وهى الجهة البحرية القديمة المواجهة لفرنسا حيث الموانى المحصنة وحيث قواعد المدمرات الرئيسية ، واغلب المطارات ومحطات الاشراف الجوى للدفاع عن لندن ، ولم نكن نعتمد فى أى جزء من أجزاء الجزيرة اعتمادنا على هذا الجزء فى المسارعة الى العمل بقوة ضخمة ، وبجميع قواتنا المسلحة الثلاث .. وكان الاميرالاى ريدر موجها كل اهتمامه للاعداد فى حالة قيام الاسطول الالمانى بغزو بريطانيا ، وفى نفس الوقت طلب تركيز الكثير من الاوضاع ، وفى مقدمتها الاشراف الكامل على سواحل فرنسا وبلجيكا وهولندة وموانيها ومصبات انهارها وهذا هو سبب نوم المشروع طيلة فترة « شفق الحرب » التى مضت .

وفجأة برزت الافتراضات بصورة تثير الاستغراب ، وتمكن ريدر بالرغم من بعض وساوسه من التقدم الى الفوهرر ، مساء معركة دنكرك واستسلام فرنسا ، بمشروع نال رضاه ، وتحدث فى ٢١ مايو الى هتلر فى الموضوع ، ثم رجع فتحدث اليه فى العشرين من يونيو ، لاعن اقتراح القيام بالغزو بل بنسبة التأكد من انه فى حالة صدور الأمر بالغزو فان اعداد التفاصيل المتعلقة بالمشروع لن يتم بطابع العجلة وكان هتلر بدوره تساوره الظنون فى النجاح فعقب قائلا ، انه يقدر تماما الصعوبات المحتومة التى سيواجهها مشروع كهذا وكان هتلريتعلق بالأمل الواهى من أن انجلترا قد تطلب الصلح وتنشده ، ولم تتنبه القيادة الالمانية الى فكرة الغزو الا فى آخر اسبوع من يونيو وفى الأسبوع الثانى من يوليو صدرت التوجيهات الأولى بتجهيز خطة للغزو كأمر محتمل الوقوع ، وتقضى هذه التوجيهات بأن الفوهرر قد علق غزو انجلترا على توفر بعض الشروط الخاصة وفى طليعتها السيطرة الجوية .

واصدر هتلر فى ١٦ يوليو توجيها منه يقول انه على الرغم من المازق العسكرى الحرج لانجلترا فانها لم تظهر أية رغبة فى التفاهم ومن أجل هذا عزمت على اعداد عملية النزول فى انجلترا ، لتنفذ فى الوقت

المناسب . وينبغى أن تتم الترتيبات اللازمة للخطة كلها قبل منتصف شهر اغسطس ... وكانت الأجراءات العملية لتنفيذ هذه الاشـارة قد بدأت فى كل مكان .

كانت خطة الاسطول الالمانى ميكانيكية على العموم ، فتحت ستار نيران البطاريات الساحلية من كالية فى اتجاه دوفر ، وتحت حماية مدفعية قوية على طول الساحل الفرنسى المقابل للمضيق ، كانت خطة البحرية تقضى باقامة نطاق ضيق عبر المانش فى أقصر مسافة ممكنة وأحاطته من الجانبين بسياج من الالغام مع قيام الغواصات بحماية خارجية وكان من المتفق عليه أن ينقل الجيش فى صنادل عبر القناة على أن تمـونه سلسلة طويلة من الامدادات والى هنـا ينتهى دور الاسطول الالمانى وعلى قيادة الجيش معالجة بقية المشكلة .

فاذا قدرنا انه كان فى استطاعتنا بفضل تفوقنا البحرى الهائل ان نقضى على حقول الالغام المذكورة بالقطع البحرية الصغيرة تحت ستار قوة جوية ماهرة وضرب الغواصات المحتشـدة من الجانبين لحماية الحقول لاتضـح لنا ان هـذه الخطة كانت خطة متداعية منذ البـداية .

وكان فى مقدور اى انسان يوقن انه بعد انهيار فرنسا لم يكن هناك مفر من امتداد اجل الحرب وتزايد الاخطار الا اذا اضـطرت بريطانيا الى التسليم .

وكان الاسطول الالمانى ــ كما عرفنا سابقا ــ قد نالت منه بصورة خطيرة معركة النرويج ولم يعد فى مقدور ه بوضعه الراهن ان يقدم الى الجيش الا بمساعدة جزئية ضئيلة ومع ذلك فقد جهز الاسطول خطة ولم يكن فى مستطاع احد ان يقول ان حسن الحظ قد هبط عليه فجأة

وكانت القيادة العليا للجيش الالمانى قد اعتبرت غزو انجلترا فى بادىء الامر شيئا يثير التقزز ، فى النفوس ولم تكن قد دبرت ايه خطط أو اعدادات لتنفيذه كما لم يتلق جنودنا تدريبا على العمليات الخاصة به ولكن بعد ان توالت أسابيع من نشوة الانتصارات الرائعة ، وجدت القيادة فى نفسها الجراة والشجاعة للقيام بأية مهمة ولم يكن اقتحام البحر بامان مسئولية تتعلق برجال القيادة من الناحية الادارية ولكنهم كانوا على ثقة من أن الجيش اذا بلغت قواته الضخمة شاطىء بريطانيا فى سلام وامان فان مهمة احراز النصر على بريطانيا تصبح أمرا يسيرا .

وقد احس الاميرال ريدر فى شـهر اغسطس بوجوب توجيـه انظارهم الى ماقى عبور القناة من خطورة والى توقع ضياع الجيش فى هـذه المحـاولة .

وعندما تولى الاسطول مهمة نقل الجيش العابر اصبحت البحرية الالمانية تدور فى دوامة قلق مستمر وقابل قادة الاسلحة الثلاثة الفوهرر فى ٢١ يوليو فأبلغهم بأن الحرب قد بلغت مرحلتها الفاصلة ولكن انجلترا لاترغب فى الاعتراف بذلك وما زالت ترجو ان تدور عجلة القدر وتحدث عما يصل انجلترا من عون الولايات المتحدة كما اشار الى احتمال تبدل فى العلاقات السياسية فى المانيا وروسيا واستطرد قائلا ان تنفيذ عملية « سبع البحر » تعتبر الخطة الاكثر جدوى فى التعجيل بنهاية الحرب ,وبعد حديث طويل مع الاميرال بدأ هتلر يكشف خطورة ما تخبئه عمليات اجتياز المانش بما فيه من تيارات ومد وجزر وبما فى البحر من غموض واسرار ثم وصف عملية « سبع البحر » بأنها فى منتهى الجراة والمقامرة واستطرد يقول : وبالرغم من قصر المسافة فان العملية ليست عبور نهر ولكنها اقتحام بحر يسيطر عليه العدو وليست العملية اجراء فرديا فى العبور كما حدث فى النرويج اذ لم تكن هناك عناصر للمفاجاة ولكننا هنا سنواجه عدوا مستعدا للدفاع وقد صمم على القتال وقد فرض سيطرته على المنطقة البحرية التى يجب علينا استخدامها وستقتضينا عملية الجيش نحوا من أربعين فرقة وربما يكون اصعب اجراء فى العملية كلها هو نقل الامدادات والتموين اذ ليس فى مقدورنا ان نعتمد على اى نوع من المؤن يتيسر لنا الحصول عليه داخل انجلترا ، وكان الأساس الأول فى نجاح الغزو هو السيطرة الكاملة فى الجو واستخدام مدفعية قوية فى مضيق دوفر والحماية عن طريق الالغام .. ثم تابع هتلر حديثه قائلا : والطقس عامل حيوى ايضا فالطقس فى بحر الشمال وفى المانش يعنف فى النصف الثانى من شهر سبتمبر كما يتكاثف الضباب فى منتصف اكتوبر ولهذا يتحتم انهاء الغزو قبل ١٥ سبتمبر اذ بعد هذا الوقت يشق علينا ان نتأكد من قيام التعاون بين السلاح الجوى والاسلحة الثقيلة وهذا التعاون من السلاح الجوى يعد عاملا حاسما فى تحديد الموعد .

وقد ثار نقاش حاد تخلله شىء من الخشونة بين اركان الحرب الالمان حول عرض الجبهة وعدد المراكز التى يتحتم ان تهاجم وقد طلب الجيش ان تتم سلسلة من عمليات الانزال على طول الساحل الجنوبى لانجلترا الممتد من دوفر الى « لايم ريجيز » الى الغرب من بورتلاند وطالب ايضا بان تنزل قوات مساعدة فى رامسجيت الى الشمال من دوفر . وقد أعلن أركان البحرية الآن أن آمن مكان للعبور هذا الواقع بين فورلاند الشمالية وجزيرة وايت . وعلى هذا الوضع أجرى اعداد مائة الف جندى لانزالهم فى هذه المنطقة على أن يتبع ذلك بمائة وستين الف جندى آخرين فى أماكن متفرقة تمتد من دوفر غربا حتى خليج لايم .

واعلن الجنرال هولد رئيس اركان حرب الجيش ان من المحتم انزال اربع فرق على الاقل فى منطقة برايتون ، كما طلب انزال قوات اخرى بين ريل ورامسجيت وان توزع ثلاث عشرة فرقة ان امكن فى وقت واحد فى اماكن متعددة على طول الجبهة وطلب السلاح الجوى الالمانى فى ذات الوقت سفنا كافية لنقل اثنتين وخمسين بطارية . من المدافع المضادة للطائرات مع حملة الانزال الاولى .

ولكن رئيس اركان البحرية بين استحالة القيام بعمليات واسعة وسريعة كهذه العمليات ، وقرر أنه لا يستطيع عمليا حراسة أسطول الانزال فى هذه المسافة الممتدة من البحر وأن على الجيش اختيار افضل نقطة او مكان ضمن هذه الحدود التى ذكرت — فليس لدى الاسطول قوة تكفى لحماية أكثر من عملية عبور واحدة فى وقت واحد حتى ولو كانت لنا السيادة على الجو . وهو يرى أن أضيق مكان فى مضايق دوفر هو اكثرها سهولة من ناحية الحماية بطلب نقل المائة والستين الف جندى فى المرحلة الثانية فى عملية واحدة وذلك يحتاج الى الف سفينة حمولتها مليون طن

واضاف رئيس اركان البحرية أنه حتى فى حالة توفر هذا الرقم الخيالى فان موانىء الابحار لا تستطيع استيعاب مثل هذا العدد الضخم ، أما مايمكن عمله فهو القيام بنقل الفصائل الاولى من الفرق الاربع لاقامة رؤوس جسور ضيقة على أن تنقل فى خلال اليومين التاليين الفصائل الباقية من هذه الفرق فحسب دون ذكر أدنى معلومات عن الفرق الست الباقية المحتم انزالها لنجاح العملية واشار ايضا الى أن الانزال على جبهة واسعة يعنى ايجاد فرق فى أوقات المد العالى بين مختلف الاماكن المختارة يتراوح بين الثلاث ساعات والخمس ساعات ونصف . وعلى هذا ينبغى أن نختار بين أمرين اما أوضاع المد غير الملائمة فى بعض الاماكن وأما العدول نهائيا عن انزال القوات فى اماكن متفرقة فى آن واحد وكان الرد على هذا الاعتراض من اشد الصعوبات .

ومر وقت طويل ضاع خلال تبادل هذه المذكرات .. واخيرا التقى الجنرال هولدر ورئيس اركان البحرية لأول مرة فى اجتماع عقد بينهما فى ٧ اغسطس قال هولدر فى هذا الاجتماع ، اننى أرفض مقترحات الاسطول رفضا باتا فمن وجهة نظر الجيش تعتبر العملية بهذا الوضع انتحارية فارسال القوات كما اقترحتم معناه القاؤها فى مفرمة اللحم كما يلقى اللحم . فرد عليه رئيس أركان البحرية قائلا : انه ليس فى وسعه ايضا أن يقبل عملية النزول على جبهة واسعة اذ ان ذلك لا يعنى الا شيئا واحدا هو التضحية بالجنود أثناء عبورهم، واخيرا تم الوصول

الى حل وسط تولاه هتلر بنفسه ولم يقتنع به الجيش او البحرية فقد صدر قرار من القيادة العليا فى ٢٧ اغسطس جاء فيه ان على عملية الجيش أن تتسق والحقائق التى توجبها شروط الحمولة المحدودة فى البواخر وسلامة العبور والانزال وقد تم نبذ فكرة النزول فى منطقة ريل رامسجيت ولكن تقرر أن تمتد الجبهة من فولكستون الى بوجور وهكذا لم يتم اتفاق نهائى حتى نهاية شهر اغسطس ، فكل شىء بالطبع متوقف على النصر والتفوق فى المعركة الجوية الناشئة منذ ستة اشهر تقريبا .

وتم اعداد الخطة النهائية على هدى طول الجبهة التى جددت فى النهاية وعهد بالقيادة العسكرية الى رونشتادت لكن النقص فى السفن قلل من عدد القوات فأصبحت ثلاث عشرة فرقة أساسية واثنتى عشرة فرقة أخرى احتياطية ، وتقرر أن يبحر الجيش السادس عشر من الموانى الواقعة بين بولون وروتردام وأن تنزل بالقرب من هايث وراى وهيسنجير وايستبورن وأن يبحر الجيش التاسع من الموانى الواقعة بين بولون والهافر وان يهاجم المناطق بين برايتون دورتيج وقد جهزت الخطة على اساس الاستيلاء على دوفر من ناحية البر وأن يزحف الجيشان بعد ذلك على الخط الممتد من كانتربورى الى اشفورد فيفيلد وارونديل وستنزل احدى عشرة فرقة فى المراحل الاولى وتمنت القيادة الالمانية ان تتمكن القوات الغازية فى الاسبوع الأول من التقدم الى جريفسن وريفيت وبوزفيلد وبورتسمات وأن يقف الجيش السادس الاحتياطى على اهبة الاستعداد لتعزيز القوات الغازية او لتوسيع منطقة الهجوم اذا الحت الظروف الى ويماوث وليس ريب فى أن القيادة الالمانية لم تفتقر الى الجنود الشجعان المسلحين خير تسليح افتقارها الى سفن للنقل وسلامة العبور .

ووقع عبء المرحلة الثقيل فى الهجوم على اركان « البحرية » ولم يكن فى حوزة المانيا مايزيد على حمولة مليون ومائتى الف طن من السفن المعدة اعدادا كاملا ونقل القوات الغازية يحتاج الى اكثر من نصف هذه الحمولة ويؤدى الى الكثير من المشكلات الاقتصادية وعند ما حل شهر سبتمبر تمكنت القيادة البحرية من أن تعلم انها استطاعت أن تضع يدها على البواخر التالية ١٦٨ باخرة مجموع حمولتها سبعمائة الف طن ، ١٩١٠ من الصنادل ، ٤١٩ من القاطرات وسفن صيد الاسماك ، ١٦٠٠ من الزوارق البخارية .

وكان من الممكن نقل هذا الاسطول العتيد بعد تجهيزه بالبحارة الى موانىء التجمع عن طريق البحر والمانش وعند ما بدأت فى اليوم الاول من سبتمبر عملية اندفاع الملاحة الضرورية للغزو جنوبا كانت

قواتنا الجوية تراقبها وترصد تحركاتها وتقصفها بعنف على طول الجبهة من انتويرب الى الهافر وسجلت اركان البحرية الالمانية مايلي أن دفاع العدو المستمر من الساحل وتركيز غارات طائراته على موانيء ابحار عملية « سبع البحر » ومواصلة اعمال الاستكشاف توحي جميعا بأن العدو يتوقع غزوا قريبا عاجلا .

وذكرت تقارير أركان البحرية الالمانية ايضا ، أنه مازالت الطائرات البريطانية قاذفات القنابل وطائرات بث الالغام تواصل اعمالها بصفة دائمة وعلينا أن نقرر أن غارات الطائرات البريطانية كانت موفقة وان لم تكن فاصلة فى عرقلة نقل السفن الالمانية الى الموانيء .

وبالرغم مما حدث من التدمير والتعويق فقد استطاعت البحرية الالمانية انجاز الجزء الاول من مهمتها الخطيرة ولم تجاوز الخسائر أعلى ما قدرته القيادة العليا للحوادث وهى عشرة فى المائة من مجموع قوة الغزو كاملة أما ما بقى على أهبة الاستعداد فلم يكن بأقل من الحد الادنى الذى قررت القيادة الالمانية حتمية وجوده للقيام بالمرحلة الاولى من العملية .

وقد القى الجيش والاسطول الالمانى العبء كله على كاهل السلاح الجوى وكانت حماية المعر بما يلازمها من بث الالغام التى بمثابة الاسوار موكلة الى السلاح الجوى الالمانى ضد التفوق الظاهر لعمليات المدمرات البريطانية والسفن الصغيرة ، أى أن الخطة كانت قائمة على هزيمة السلاح الجوى البريطانى والسيطرة المطلقة لالمانيا على الجو لا فوق المانش وجنوب شرقى آسيا فقط بل فوق مناطق العبور والانزال كذلك وهكذا وكل السلاحان الالمانيان القديمان تنفيذ الخطة الى ماريشال الرايخ جورنج .

ورحب جورنج بقبول هذه المسئولية لثقته بالتفوق العددى للسلاح الجوى الالمانى وانه لن تمضى اسابيع قليلة من القتال العنيف حتى تنزل الهزيمة بالدفاع البريطانى وتدمير مطاراته فى كنت وسكس واحكام السيادة التامة على المانش .

واعتقد جورنج ايضا اعتقادا لا يقبل الشك أن قصف انجلترا من الجو وخلاصة العاصمة سيدفع بالشعب البريطانى المنحل الذى يؤثر العافية الى الرضوخ وطلب الصلح ، هذا بالاضافة الى أن نذر الغزو كانت قد بدت فى الافق القريب ، ولكن البحرية الالمانية لم تجاره فى تفاؤله وكانت شكوكها عميقة الجذور .

وأن عملية «سبع البحر» لايمكن الا أن تكون اجراء اخيرا فأوصيت فى شهر يوليو بتأجيلها حتى ربيع عام . ١٩٤١ الا اذا أجبرت الغارات

الجوية المستمرة وحرب الغواصات الرهيبة العدو على مفاوضة الفوهرر بالشروط التى يراها ، اما الفيلد مارشال كايتل والجنرال يودل فقد كانا مغتبطين من تفاؤل قائد الجو الاعلى جورنج .

لقد عاشت المانيا النازية اياما مجيدة رائعة انتشى فيها هتلر بخمرة النصر قبل أن تذل له فرنسا فى هدنة كومبيين وسار الجيش الالمانى الظافر تحت اقواس النصر وعبر الكاب اليليسيه ، فهل بقى هناك شىء يعجزون عن تنفيذه ؟ فلم التردد اذن فى الاقدام على مجازفة مضمونة ؟ وهكذا فإن الاسلحة الثلاثة التى تشترك فى انفاذ خطة « سبع البحر » نظر كل منها الى الجانب المضىء فى الدور الذى سيضطلع به وترك الجانب المظلم الى السلاحين الآخرين .

وبمرور الايام تضاعفت الشكوك وقامت العراقيل وكان قرار هتلر الصادر فى ١٦ يوليو قد حدد انهاء جميع الاستعدادات قبل منتصف شهر أغسطس ولكن كافة الاسلحة وجدت أن تنفيذ هذه المهمة فى الوقت المحدد غير ممكن وقبل هتلر فى نهاية شهر يوليو تحديد موعد ١٥ سبتمبر كموعد مبكر للغزو بينما أجل قراره الأخير الذى يقضى بتحديد موعد البدء فى العمل حتى تستبين نتائج المعركة الجوية التى حمى وطيسها .

وابلغت البحرية فى ٣٠ اغسطس القيادة العليا ، ان استعدادات اسطول الغزو يستحيل ان تتم فى ١٥ سبتمبر بالنسبة للاجراءات المضادة التى اقدمت عليها بريطانيا وعلى هذا تأجل البدء فى الغزو حتى ٢١ سبتمبر مع اشتراط عشرة أيام كانذار مسبق ، وهذا يعنى ضرورة صدور الامر الاول فى ١١ سبتمبر وأبلغت البحرية مرة اخرى فى ١٠ سبتمبر القيادة مدى الصعوبات الجمة التى توجهها لرداءة الطقس وأعمال بريطانيا المضادة ، وأشار الى أنه على الرغم من أن التجهيزات البحرية المطلوبة قد تتم فعلا قبل ١١ سبتمبر ، الا ان الشرط الاساسى الذى يحتم السيطرة المطلقة على جو القناة لم يتحقق بعد . وقد ادى ذلك الى ان اصدر هتلر قراره فى ١١ سبتمبر بتأجيل صدور الامر التمهيدى لثلاثة أيام اخرى ، وبهذا تأجل الغزو الى الرابع والعشرين ، وتأجل ثانية فى الرابع عشر ثلاثة أيام أخرى ، وفى يوم ١٧ سبتمبر تأجل اصدار هذا الامر الى اجل غير مسمى لاسباب وجيهة فى رأيهم ورأينا أيضا .

وعلمنا من الانباء التى وصلت الينا فى ٧ سبتمبر ، أن تحركات الصنادل والسفن الصغيرة مازالت مستمرة غربا وجنوبا فى اتجاه الموانىء الواقعة بين او مستند والهافر ، ولما كانت هذه الموانىء تحت

وطأة الغارات البريطانية القاسية فقد كان من المعقول الا تنتقل اليها السفن الكبيرة الا قبيل الغزو ، وتضاعفت القوة الضاربة للسلاح الجوى الالمانى بين امستردام وبريست حتى بلغت مائة وستين قاذفة قنابل جيء بها من النرويج الى هذه المنطقة كما رأينا مجموعات من طائرات الانقضاض ذات المدى القصير فى المطارات الامامية والواقعة فى خليج كاليه ، وقد قرر أربعة من الجواسيس الالمان تم اعتقالهم قبل مضى بضعة ايام من هبوطهم من احد زوارق التجديف على الساحل الجنوبى والشرقى من انجلترا ، انهم بعثوا ليكونوا على استعداد فى اية لحظة اثناء الاسبوعين القادمين وارسال تقارير خاصة عن تحركات الوحدات البريطانية . الاحتياطية فى قطاع ايبويس ــ لندن ــ ريدنج ــ اكسفورد وكانت أوضاع القمر والمد بين الثامن والعاشر من سبتمبر ملائمة لغزو الساحل الجنوبى الشرقى . ولذلك فقد قرر رؤساء أركان الحرب عندنا أنهم يتوقعون الغزو فى اية لحظة ، وأن على قوات دفاعنا أن تقف على اهبة الاستعداد لمواجهة اى طارىء عاجل .

ولم يكن ثمة جهاز فى القيادة العامة حينذاك يستطيع أن ينقل اعلان حالة الطوارىء المحددة له ثمانى ساعات الى عمل فورى ، ومع ذلك فقد صدرت كلمة السر « كرومويل » ــ التى يقصد بها أن الغزو محتمل فى اية لحظة ــ الى القوات فى الساعة الثامنة مساء ٧ سبتمبر والى القيادتين الجنوبية والشرقية ، للعمل الفورى السريع للفرق الساحلية الامامية ، وجميع الوحدات فى منطقة لندن والى الفيلقين الرابع والسابع من قوات الاحتياط التابعة للقيادة .

وكررت الكلمة « للعلم فقط » الى جميع القيادات الاخرى فى المملكة المتحدة ، وعندما وصلت هذه الكلمة الى قادة الحرس الوطنى فى بعض انحاء البلاد ، قاموا بدافع من أنفسهم باستدعاء قوات الحرس بدق اجراس الكنائس ولم اكن انا ورؤساء أركان الحرب قد علمنا بان كلمة « كرومويل » قد استخدمت فعلا ولذا فقد صدرت أوامرنا فى الصباح التالى بضرورة ايجاد مراحل انتقالية ، يتضاعف فيها الحذر فى المناسبات المقبلة دون اعلان ان الغزو قد وقع ، وفى استطاعة كل انسان ان يتخيل ما أثاره هذا الحادث من هرج ومرج ، وان لم يشر اليه سواء فى الصحف او فى البرلمان .. وعلى كل فقد كان هذا الحادث بمثابة تدريب لكل من يعنيهم الامر .

***

والآن .. وبعد ان تتبعنا مراحل اعداد القيادة العليا الالمانية حتى وصلت الى القمة .. فقد غدا فى امكاننا أن نعرف كيف تغير الموقف من الزهو بالانتصار المبكر الى قيام حالة من الشك ، ثم الى ضياع كل ثقة فى النتيجة ، وقد شاهدها القائد البحرى ويدر فى

شهرى يوليو واغسطس وحاول ما استطاع تثقيف زملائه من قادة البحر والجو وتبصيرهم بمتاعب الحرب البرمائية الواسعة النطاق ومشتقاتها ، فقد أحس الاميرال بضعفه واحتياجه الى عامل الوقت لاستكمال المعدات وان كان تنفيذ الخطة الواسعة النطاق التى وضعها هولدر هي انزال قوات ضخمة فى وقت واحد فى منطقة مترامية الاطراف وكان جورنج فى الوقت نفسه بخياله الجامح مصرا على احراز نصر ساحق بقواته الجوية وحدها وأبى أن يساهم بدور متواضع فى الاعداد لخطة مشتركة تهدف الى تخفيض قوات المقاومة بحرية وجوية فى جبهة الغزو .

ويتضح من الوثائق والسجلات ان القيادة الالمانية العليا لم تعمل بانسجام وتعاون فى سبيل الهدف المشترك ولم تواجه مشكلات الاسلحة المختلفة الوعى الناجح السليم .

وكان الاحتكاك بينها واضحا منذ البداية وطالما كان فى مستطاع هولدر أن يلقى بالمسئولية على كاهل ريدر فانه لم يحاول أن يوجد الانسجام بين خططه الشخصية وبين الامكانيات العملية وكان من المحتم ان يتدخل هتلر ، وقد تدخل بالفعل ولكن تدخله لم يعمل على تحسن العلاقات بين القوات المسلحة وكانت سمعة الجيش فى المانيا قد سمت الى ما فوق السحب وكان القادة العسكريون ينظرون بتعالى وكبرياء الى زملائهم من قادة البحرية .

وقد يكون من الصعب على اى انسان ان يقاوم الادلة التى تنهض على تأكيد ان الجيش الالمانى لم يكن راضيا عن وضعه تحت اشراف البحرية فى عملية رئيسية كهذه وعندما سئل الجنرال بودل بعد انتهاء الحرب عن هذه الخطط اجاب وهو نافد الصبر « كانت خططنا تشبه تماما الخطة التى وضعها يوليوس قيصر » .

وربما يكون فى هذا القول الصادر عن جندى المانى موثوق به بالنسبة لعمليات البحار ، ما يلقى الضوء على أن الجندى الالمانى لم تتضح فى ذهنه المشكلات الخاصة بعمليات الانزال والاخطار الناجمة من نقل قوات بحرية كبيرة وتوزيعها على ساحل قد أجيد الدفاع عنه

اما نحن فى بريطانيا فضلا عما كنا نعانيه من نقص فقد خبرنا البحر ووقفنا على مشكلاته فالبحر منذ قرون عديدة جزء من كياننا وتقاليده لا تستثير بحارتنا فحسب بل الشعب البريطانى بكامله ولعل هذا التفهم هو الذى مكننا من أى عامل آخر من النظر الى خطر الغزو بكل ثقة وهدوء وقد خضع التخطيط الذى وضعناه لاشراف رؤساء اركان الحرب الثلاثة برئاسة وزير الدفاع مما ادى الى ايجاد

نظام متناسق ككتلة واحدة والى التعاون التام الذى لم نر مثيلا له فى الماضى والى التعرف المتبادل الى كافة المصاعب وعندما آن الاوان لنبدأ نحن فى عمليات غزو عظيمة وواسعة النطاق من البحر كان عملنا اذ ذاك مرتكزا على اســاس وطيد من الاستعداد الشــامل لاداء العمل ومن الاحاطة الكاملة بكل احتياجات تكميلية للاقدام على مشروعات واسعة لها هذه الدرجة من الخطورة .

ولو كان للالمـان فى عام ١٩٤٠ قوات برمائية جيدة التــدريب مستكملة مختلف المعدات الحربية البرمائية الحديثة لما قدر لمهمتها النجاح امام قواتنا البحرية والجوية فما بالنا والالمان لم يكن لديهم شىء من ذلك لا من ناحية المعدات ولا من ناحية التدريب وهما ضروريان فى مثل هذه الحـرب وكلما زادت رغبة الفوهرر والقيــادة العليا فى المغامرة وهنت آمالهم فيها ولم يكن فى استطاعتنا أن نصل الى معرفة اوضاع بعضنا البعض وتقديرات كل منا ولكن كلما مر اسبوع ابتداء من اواسط يوليو وانتهاء منتصف سبتمبر كان الغموض الذى يكتنف الموقف بالنسبة للبحريتين البريطانية والالمانية وللقيادة العليا الالمانية ورؤســاء اركان الحرب البريطــانية وبالنســبة للفوهرر ولمؤلف هذا الكتاب ينجلى رويدا رويدا ولو قدر لنا الاتفاق على نفس المستوى فى القضايا الاخرى لـما وجدت ضرورة لقيام حرب فقد اتفقنا بادىء ذى بدء على أن المصـير سيتقرر فى الجو وكان السؤال الذى يعرض لنـا ولهم فى وقت واحد هو كيف ستنتهى هذه المعركة الدائرة فى الجو ؟ وكان الالمان يتساءلون هل يصـمد الشعب البريطانى لنيران الغارات الجوية التى كان تأثيرها قد بولغ فى تقديره فى تلك الايام ؟ أو أنه سينهار تحت وطأتها ويفرض على حكومته الاستسلام وكان ماريشال الرايخ ذا أمل عريض واثقة بالنتيجة بينما كنا نحن لانهابها .

معركة بريطانيا

ذكرنا من قبل ان مصيرنا اصبح رهنا باحراز النصر الجوى ، وان قادة الالمان ادركوا أن غـزوهم لبريطانيا يتوقف على السيطرة الجوية فى سماء القنـاة ، وفى الأماكن المعينة على السـاحل الجنوبى لبلادنا ، على انه لم يكن فى مقدور الالمان القيام باستكمال استعداداتهم فى موانىء الابحار ، وحشد سفن النقل ، وتطهير المعابر من الألغـام ثم القيـام ببث الغام اخـرى دون أن تكون لديهم الوقاية من غارات السلاح الجوى البريطانى .

اى ان الأمر الفصل كان للسـيادة الجوية فى سماء مناطق العبور والانزال ومن أجل هذا كان لابد من تدمير السـلاح الجوى الملـكى ، وسائر المطارات الممتدة على طول الطريق بين لندن والبحر ، ونحن نعلم الآن من الوثائق التى حصلنا عليها ان هتلر أبلغ الاميرال ريدر فى ٣١ يوليو : « انه اذا لم يستطع سـلاحنا الجوى القيـام بتدمير معظم طائرات العدو وموانئه وقواته البحرية فى خلال ثمانية أيام فان عملية الغزو ستتأجل ضرورة حتى مايو من العام القادم » . وهـذه المعركة المعركة التى كان علينا أن نخوض غمـارها ، على انى لم أحس بخوف لحظة واحدة — ولو عن طريق التصور — من التجربة العظمى التى كنا نواجهها وكنت فى الرابع من يونيو قد أدليت للبرلمان ببيان هذا نصه : « ان الجيش الفرنسى العظيم قد اجبر على التراجع ، واضطرب جل اموره نتيجة الهجوم الذى قامت به بضـعة الوف من السـيارات المدرعة ، فهلا يدافع عن قضية الحضـارة بضعة الوف من الطيـارين بمهارتهم واخلاصهم ! ! وارسلت الى سمطس فى ٩ يونيو التالى أقول وانى أرى الآن بوضوح ان هتلر بشكل قاطع سيشن هجوما على هـذه البلاد ، فيدمر سلاحه الجوى فى هذا الهجوم . »

وها قد واتت الظروف الآن .

ولا شك ان كتبا عدة قد صدرت لتوضح مدى الصراع الجوى بين السلاحين البريطانى والالمـانى ، وهو الصراع الذى يكون معركة بريطانيا ، وقد استطعنا الآن التعرف الى آراء القيادة الالمانية العليا ، والى ردود الفعل لديها فى المراحل المتباينة ، ويظهر ان خسائر الالمان

فى بعض المعارك الرئيسية ، كانت اقل بكثير مما خيل الينا ، وان تقارير الجانبين فى وقتها كانت تتسم بكثير من المغالاة ولكن لم يكن هناك خلاف على الخطوط الرئيسية لذلك الصراع المعروف الذى كانت تتوقف عليه حياة بريطانيا وحرية العالم قاطبة .

كان السلاح الجوى الألمانى قد التحم فى معركة فرنسا بكل ما لديه من قوة ، واضحى فى احتياج الى الراحة بعد هذا القتال ، تماما كما حدث للأسطول الألمانى بعد معركة النرويج ، وكذلك كان الأمر بالنسبة لنا اذ أن ثلاثة أسراب من مجموع كل أربعة من أسراب طائراتنا المحاربة كانت قد أسهمت فى وقت أو آخر فى معارك القارة ، ولم يكن فى مقدور هتلر الا ان يعتقد أن بريطانيا سترحب بعرض للصلح ، بعد انهيار فرنسا .

وكان هتلر — يشبه فى ذلك المارشال بيتان وفيجان وغيرهما من القادة الفرنسيين العسكريين والسياسيين ، الذين لم يدركوا ما لدى دولة تقوم فى جزيرة من موارد مستقلة وما حبتها به الطبيعة من شمم، لقد كان من شأنه شأن هؤلاء الفرنسيين الذين استهانوا بعزيمتنا وارادتنا ، وقضى هتلر شهر يونيو فى تحوير الاوضاع لتتمشى والأحوال التى وجد نفسه فيها تدريجيا ، وفى خلال ذلك كان السلاح الجوى الألمانى يقضى فترة من النقاهة واعادة تنظيماته استعدادا للمهمة الجديدة ، ولم يكن ثمة ريب فى خطر هذه المهمة ، اذ كان على هتلر أن يختار واحدة من اثنتين ، اما أن يغزو انجلترا ويحتلها ، أو يخوض غمار حرب طويلة الأمد ، تنطوى على كثير من الاخطار والمشكلات ، على أن احتمال نصر جوى يقضى على المقاومة البريطانية كان ماثلا فى اذهانهم مما يجعل الغزو الفعلى أمرا غير محتم ، الا باحتلال بلاد مغلوبة على امرها . واستطاعت القوة الألمانية الجوية فى خلال شهر يونيو ومطلع يوليو أن تنظم نفسها وتبث النشاط والحيوية فى صفوفها ، وان تنتشر فى جميع المطارات الفرنسية والبلجيكية التى يحتمل بدء الهجوم منها ، واستطاعت الغارات الاستطلاعية والتجريبية ، الوقوف على حقيقة المقاومة التى ستجابهها ومدى طاقتها .

وشرعت فى ١٠ يوليو بشن اولى هجماتها الضخمة الكبيرة التى تعد بحق بدء معركة بريطانيا ، وثمة تاريخان مهمان يرتفعان أيضا فى هذه المعركة وهما : ١٥ اغسطس ، ١٥ سبتمبر ، وكانت ثمة مراحل ثلاث متتابعة ومتداخلة فى الوقت ذاته حين الغزو الالمانى ، وقد اتسمت المرحلة الاولى بين ١٠ يوليو ، ١٨ اغسطس ، بالتركيز على القوافل البريطانية فى المانش وعلى الموانىء الجنوبية الواقعة بين دوفر وبلايموث حيث تقرر عجم عود السلاح الجوى البريطانى وايقاعه فى

حبـائل المعـركة والقضـــاء عليه ، وكذلك تدمير الموانىء التى تقرر النزول فيها

وفى المرحلة الثانية الواقعة بين : ٢٤ اغسطس ، ٢٧ سبتمبر ، كان من المحتم تمهيد الطريق الى لندن وذلك بتحطيم السلاح الجوى البريطانى ومنشآته لتأمين الهجمات المتواصلة العنيفة على العاصـمة وقطع طرق المواصلات من الشواطىء المهـددة بالغـزو ، اما جورنج فلا شك انه كان يرى فى هذه الغارات غرضا أكبر وهـدفا ابعد وهو احداث الاضطراب الكامل فى أكبر مدن العالم وشل حركتها . وايقاع الفزع الاكبر فى بريطانيا حكومة وشـعبا ، واضـطرارهما اخيرا الى الخضوع لارادة ألمانيا ، واتجه أمل الجيش الالمـانى والاسطول الى الرغبة فى ان يكون جورنج مصيبا فيما رآه ، ولكن مع مرور الوقت ، وتغير الاحوال ، راى قادة السلاحين أن السلاح الجوى البريطانى لم يقض عليه ، وان أملهم فى عملية « سبع البحر » قد تبدو فى سبيل تحقيق ما أراده جورنج من تدمير لندن ، واخيرا عندما انتابتهم خيبة امل فى كل شىء ، وعندما تأجل الغزو الى اجل غير معلوم لان الشرط الحيوى الأساسى وهو السيطرة على الجو لم يتحقق بدات المرحـلة الثالثة والأخيرة .

لقد تبـدد حلمهم فى النصر الذى بدا كسراب خادع والسـلاح الجوى البريطانى ما زال حيا راعدا مما حدا بجورنج فى شهر أكتوبر أن يقوم بشن غارات عمياء رعناء على لندن وغيرها من مراكز الانتاج الصـــناعى .

ليس هنـــاك وجه للمقـارنة بين طائراتنا المقـــاتلة وطائراتهم فالطائرات الألمانية أسرع واقدر على الارتفاع ، اما طائراتنا فأقدر على المناورات وافضل تسليحا ، وكان طيارو المـانيا على ثقة من تفوقهم العددى ، كما كانت الانتصـارات التى أحرزوها فى بولنـدة والنرويج والأراضى المنخفضة وفرنسا تشعرهم بالعزة والكبرياء .

اما طيارونا فكانوا واثقين بتفوقهم الشـخصى ، وكانوا يتحلون بتلك العزيمة التى تعتبر من صفات الشعب البريطانى وتبدو فى وقت الازمات والعواصف .

وقد كان الألمان متمتعين بمزية اسـتراتيجية هامة ، احسـنوا استغلالها ، فقد توزعت قواتهم وانتشرت فى جبهة واسـعة للغـاية ، وكان فى وسعها أن تشن هجمات علينا بأعداد وافرة ، مع اتخاذ كافة الوسائل لتشتيت أفكارنا حتى لا يتسـنى لنا أن نعـرف مواقعهم الحقيقية ، وكان السلاح الجوى الالمـانى قد جمع فى شـهر اغسطس

٢٦٦٩ طائرة بينها ١٠١٥ من القاذفات ، ٣٤٦ من طائرات الانقضاض

واصدر الفوهرر امرا رقم (١٧) فى ٥ اغسطس بتوسيع جبهة الحرب الجوية ضد بريطانيا ولم يكن جورنج واثقا من عملية سبح البحر ، بل ركز اهتمامه على الحرب الجوية « المطلقة » ولم تكن هذه القيادة تعتبر تحطيم سلاحنا الجوى الهدف الأساسى بل تعتبر تحول الحرب الجوية بعد بلوغها الذروة الى شن هجوم على بوارجنا وسفننا وقد عبرت هذه القيادة عما تشعر بم من اسف لأن جورنج لا يهتم كثيرا بتركيز غاراته على الأهداف البحرية ، كما احنقها التوسيف المتكرر للغارات الجوية ، وفى ٦ اغسطس ابلغت القيادة البحرية القيادة العامة بأن بث حقول الالغام فى بحر المانش أصبح من المتعذر القيام به لضغط التهديد البريطانى المتواصل فى الجو .

وقد تركز القتال الجوى المتواصل طيلة شهر يوليو ومطلع اغسطس الى غاية « كنت » البحرية وساحل القناة ، وقد تأكد جورنج ومستشاروه من أن غاراتهم قد شغلت كل اسرابنا المقاتلة فى ميدان المعركة فى الجنوب ، فقرروا القيام بغارة فى وضح النهار على مدننا الصناعية الواقعة فى الشمال ، وكانت المسافة تعد طويلة على مقاتلاتهم من الطراز الاول وهى (المسرز شميت رقم ١٠٩) فاضطروا الى المغامرة بطائراتهم القاذفة على ان تصطحبها طائرات المسرز شميت رقم ١١٠ ، وهذه بصرف النظر عن قدرتها على الطيران الى مسافات ابعد ، فهى غير مجهزة بأسلحة القتال ، وهو امر له اهمية فى هذا الوقت ، ومع ذلك فقد نجحت المغامرة .

وهكذا قامت فى ١٥ اغسطس نحو من مائة « قاذفة قنابل » ، واربعون طائرة مسرز شميت رقم ١١٠ ، بشن هجوم على مدينة تاينيسان ، وفى الوقت نفسه كانت اكثر من ثمانمائة طائرة تشن هجوما على قواتنا الجنوبية لحصدها فى منطقتها ، اذ خيل اليهم انها متجمعة فى هذه المنطقة لكن التوزيع الذى وضعه لود اودنج لطائراتنا المقاتلة بدأ يظهر اثره ، كان داودنج يفكر فى مثل هذا الخطر ، فسحب سبعة أسراب من « الهاريكين » و «السبتفاير» ، من معركة الجنوب المحتدمة للاستجمام قليلا ولحماية الشمال فى نفس الوقت ، وقد احس رجال هذه الأسراب ببالغ الاسى لابتعادهم عن ميدان المعركة مضطرين ، اذ أكدوا لقيادتهم أن القتال لم يجهدهم ، ولم ينل من نشاطهم ، وهاهم أو لا يفاجئون بما لا يخطر على بالهم ، فقد اصبح فى مقدورهم أن يلتقوا بالمهاجمين بعد اجتيازهم الساحل ، واستطاعوا اسقاط اربعين طائرة المانية اغلبها من قاذفات القنابل الثقيلة من طراز هينكل ١١١ ،

التى تقل الواحدة منها اربعين رجلا مدربا ، ولم يصب احد من طيارينا بأى جرح غير اثنين ، وليس هناك مجال للشك فى سعة افق الماريشال الجوى داودنج وتفكيره السديد فى توجيه الطائرات المحاربة مما يستحق عليه كل ثناء وتقدير ، ولكن عظمة هذا الرجل تتجلى فى احتفاظه بهذه القوة من طائراتنا المحاربة فى الشمال اثناء الاسابيع الطويلة من اشتعال الحرب فى الجنوب وهـذا النوع من القيـادة يعد مثلا على العبقرية فى فن الحرب .

واعقب هذا اليوم الفاصل ان اضحت مدن الشمال فى مأمن من الغارات الجوية . ويعد يوم ١٥ أغسطس اليوم الذى بلغ فيه الصراع الجوى اشده ، فقد حدثت خمس معارك رئيسية على جبهة مساحتها خمسمائة ميل ، كان حقا يوما رائعا ، وقد التحمت جميع اسرابنـا الاثنين والعشرين فى موقعة فى الجنوب ، وبعضها عاود المعركة مرتين او ثلاثا ، وكانت خسائر الالمان فى الجنوب والشمال قد بلغت ستا وسبعين طائرة ، مقابل اربع وثلاثين من جانبنا ولا شك فى ان هـذا الرقم يعد كارثة بالنسبة للسلاح الجوى الألمانى .

وليس هنا مجال للشك فى ان قادة الجو الالمان قد هالتهم نتائج هذه الهزيمة الساحقة التى انطوت على اسوأ النذر بالنسبة للمستقبل ، وكان السلاح الالمانى قد ركز اهتمامه فى الاغارة على ميناء لندن ، ذى الارصـفة الطويلة التى تقف عليها مختلف انواع البواخـر ، واذلال كبرياء المدينة باعتبارها من اكبر مدن العالم ، واوسعها على ان تحديد الهدف لا يهم الطيار مما يجعل مهمته أيسر واسهل .

❋❋❋

وقام اللورد بيفربروك فى خلال هذه الاسابيع الطويلة من القتال المستمر والقلق الذى لا نهاية له ، بمساعدات واضحة ، فمن الضرورى ادخال تجديد على اسرابنا المقاتلة ، وتزويدها بطائرات مضمونة ، وقد حال ضـيق الوقت دون الاخـذ والرد ، والاطالة فى البحث والشرح بالرغم من ضرورة ذلك فى كل نظام هادىء رتيب ، وكانت طباع اللورد مناسبة كل المناسبة للضرورة الملحة ، فلقد كانت حيويته ونشاطه من بواعث الأقبال على العمل وقد اغتبطت لذلك كثيرا فقد اعتمدت عليه ووثقت فى مساعدته فلم تخب هذه الثقة مرة واحدة ، وها قد دنت ساعة لاظهار عبقريته واستعداده الشخصى مع ما يصحبها من قدرة على الاقناع وتمكنه من تذليل شتى الصعاب وكنا نلقى فى أتون المعركة بكل مواردنا ، فقد تدفقت علينا الطائرات الجديدة او ما تم اصلاحه من اسرابنـا التى اغتبطت حينما طالعتها هـذه الاعداد الكبيرة غير

المتوقعة ، واخلت ورش الصيانة والأصلاح تضاعف من جهدها وقوة طاقتها . حينئذ تجلت لى قيمة الرجل واهميته فدعوته فى ٢ اغسطس بعد موافقة الملك للأشتراك فى عضوية وزارة الحرب وفى الوقت نفسه كان ولده الاكبر ماكس اتيكن ، قد تصدر قيادة الطائرات المقاتلة ، واحرز انتصاره السادس .

وكان ايرنست بيفن وزير العمل والخدمة الوطنية ، من الوزراء الذين حرصت على الاكثار من لقائهم فى تلك الفترة الحرجة نظرا للمهمة الحيوية التى كان يقوم بها من ادارة اليد العاملة فى البلاد وبعث الحيوية والنشاط فيها . وكان جميع العمال فى مصانع الذخيرة مستعدين لتلقى توجيهاته ، وانضم هو الآخر الى عضوية وزارة الحرب فى شهر اغسطس .

وضحى العمال النقابيون بمكاسبهم وحقوقهم التى احرزوها بعد جهاد طويل والتى كانوا يولونها أعظم الرعاية ، ضحوا بها على مذبح المصلحة الوطنية وهم يرون قرابين الثروة والامتيازات والممتلكات تسبقهم الى التضحية ، وكنت على وفاق تام مع بيفربروك وبيفن فى اسابيع الأزمة التى خضناها ، وقد وقع خلاف بين الرجلين فيما بعد، وهذا مما يؤسف له فقد نتج عن اختلافهما كثير من الصدام ، اما فى تلك المرحلة من الكفاح الذى بلغ ذروته ، فقد كنا جميعا نعمل يدا واحدة، وليس فى مقدورى الا أن اثنى كل الثناء على ولاء المستر تشمبرلين ، واثبات كافة الزملاء وكفايتهم ، فالى الجميع تحياتى .

ولم يدرك جورنج حتى آخر شهر اغسطس اى اثر سيىء للصراع الدائر فى الجو فقد كان على ثقة هو ورجاله من أن المطارات البريطانية وصناعة الطائرات ، وقوة السلاح الجوى البريطانية المحاربة قد منيت بكوارث ساحقة ، وكانت هناك فترة خلال شهر سبتمبر تحسن فيها الطقس ازداد فيها أمل السلاح الالمانى فى احراز نتائج فاصلة، وامتحنت المطارات حول لندن بغارة جوية عاتية ، وقامت ثمان وستون طائرة ليلة ٦ سبتمبر بالاغارة على لندن تبعها فى الليلة التالية هجوم آخر قامت به الاثمائة طائرة فى وقت واحد ، وفى ذلك اليوم ، كما حدث فيما تلا ذلك من أيام حيث اتممنا تعزيز البطاريات المضادة للطائرات، فى ذلك اليوم دارت معارك شديدة ومتواصلة فى سماء العاصمة ، وكانت القوة الجوية الالمانية خلال ذلك توقن بالنتيجة بسبب مغالاتها فى تقدير خسائرنا .

وكان ميزان القتال الذى وقع بين ٢٤ اغسطس ، ٦ سبتمبر قد رجح ضد طائراتنا المحاربة فقد اتخذ الالمان فى تلك الايام الفاصلة

بصورة مستمرة قوات ضخمة لشن الغارة على مطاراتنا فى جنـوب انجلترا والجنوب الشرقى ، وكانوا يهدفون الى تدمير الجهاز الدفاعى عن العاصمة فى اثناء النهار التى استبدت بهم اللهفة لمهاجمتها ، وكان العمل المتواصل فى هذه المطارات ودوام تحركات اسرابنا منها ، اكثر اهمية لنا من حماية العاصمة التى منيت بحملات من القصف الجوى غرضها الاول نشر الرعب واثارة الفزع . وكانت هذه المرحلة فاصلة فى الصراع بين الحياة والموت بالنسبة لكلا الفريقين المتنازعين ، ولم تكن نفكر حينذاك فى الدفاع عن لندن أو غيرها من المدن بقدر ما كنا نتساءل لمن سيكون النصر ؟.. وقددهم قيـادة الطائرات المحاربة فى «ستاجور» احساس بالقلق وخاصة فى مقر قيادة المجمـوعة الحادية عشرة فى أوكسبريدج ، اذ منيت خمسة من مطارات المجموعة الأمامية وستة من مراكز الجبهة بأضرار جسيمة وكذلك محطة قطاع بجين‌هيل الى الجنوب من لندن . حتى أن سربا واحدا هو الذى استطاع‌العمل وحده مدة أسبوع كامل ، ولو استمر العدو فى هجماته الثقيلة على ، القطاعات القريبة ، وهدم غرف العمليـات فيها ، وتقطيع أوصالهـا التليفونية ، لأصبحت جميع تنظيماتنا الدقيقة فى القيـادة الجـوية معرضة لأهم الاخطار ، ولم يكن دليلا على مجرد توجيه الاسـاءة الى لنـدن بل على وهن اشرافنا على سـمائنا فى هـذه المنطقة الحيوية الحساسة وقد فرضت زيادة عدد من هذه المحطات فى ٢٨ اغسطس وخصوصا مانستون وبجين هيل القريبة من بيتى ، كانت المحطتان متداعيتين وطرقهمـا مملوءة بالحفر ، وعنـدما غير العدو هجومه فى ٧ سبتمبر الى لندن ، ادركت قيادة الطـائرات المحاربة هذا التغيير واستشعرت قيادتنا الـكثير من الراحة لذلك ، وكان على جورنج أن يستمر فى هجماته على مطاراتنا التى تعتمد عليها قوتنا الجرية المحاربة فى ذلك الوقت ، ولكنه بتخليه عن قواعد الحرب المألوفة ، وما تمليه الروح الانسانية من قواعد مقررة ، ارتكب أجسم الخطايا وأبشعها وكانت هذه الآونة . الواقعة بين ٢٤ اغسطس ، ٦ سبتمبر من الايام التى شقت على قيادة طائراتنا المقاتلة الى أقصى حد وكانت القيادة قد منيت فى هذين الاسبوعين بخسارة ما يقرب من مائة وثلاثة من الطيارين قتلوا ومائة وثمانية وعشرين اصيبوا بجراح خطـرة ، كمـا تحطمت حـوالى ٤٦٦ طـائرة من طراز الهـاريـكسين والسبيتفاير او اصيبت بأضرار جسيمة ، واذا اعتبرنا أن عدد الطيارين فى قوتنـا المحاربة كان فى هذه الآونة الف طيار ، بدا لنا أن سلاحنا الجوى قد فقد ربع رجاله تقريبا .

ولم يكن فى وسعنا ملء الفراغ الذى نشأ عن فقدهم الا باستحضار

مائتين وستين طيارا جديدا ينقصهم التدريب وان لم تنقصهم الحماسة نقلوا من وحدات التدريب قبل أن يستكملوا مدتهم الدراسية فى كثير من الاحيان ، وتسببت الهجمات الليلية على لندن خلال عشرة أيام بعد ٧ سبتمبر والتى استهدفت الارصفة ومراكز السكك الحديدية فى قتل عدد كبير من المدنيين ، واصابة الكثير بجراح ، ولكنها برغم ذلك اعتبرت بمثابة نعمة هبطت علينا من السماء ، أرسلت الينا على حين كنا فى أشد الحاجة اليها لنأخذ أنفاسنا .

وعلينا أن نعتبر الحرب الجوية قد بلغت ذروتها فى ١٥ سبتمبر فقد شن السلاح الجوى الالمانى — بعد غارتين متواليتين فى ١٤ من الشهر نفسه — أكبر هجوم جوى مركز فى رائعه النهار على مدينة لندن . لقد صارت احدى المعارك الفاصلة فى الحرب ، وقد حدثت فى يوم من أيام الاحد كمعركة « واترلوا » سواء بسواء وكنت فى تشيكرز فى ذلك اليوم ، وطالما قمت — قبل ذلك اليوم — بزيارة لمقر المجموعة الحادية عشرة من الطائرات المقاتلة لأشهد بنفسى سير احدى المعارك الجوية التى لا يحدث فيها الكثير ، واحسست فى ذلك اليوم أن الطقس مناسب تماما ، لعدونا ولذلك فقد ركبت سيارتى الى اوكسبردج حيث زرت مقر الجمعية التى تتكون من حوالى خمسة وعشرين سربا تختص بالدفاع عن ايسكس وكنت وساسكس وهمبشاير وجميع المداخل المؤدية الى لندن ، وكان نائب ماريشال الجو بارك يقوم بقيادة هذه المجموعة منذ حوالى ستة اشهر ، وكان عليها يتوقف مصيرنا الى درجة عظيمة ، ومنذ أن ابتدأت معركة دنكرك اسند الى بارك ادارة كافة أعمال الطيران فى النهار فى جنوب انجلترا وقد بلغت استعداداته حد الكمال ، وتسللت مع زوجتى الى غرفة العمليات الحربية المحصنة ضد القنابل ، والواقعة على بعد خمسين قدما تحت الارض ، ومن المعلوم ان تفوق طائرات السبيتفاير والهاريكين انما يرجع الى وجود هذا الجهاز الدقيق من الاشراف ، وامتداد شبكة اسلاك التليفون تحت الارض قبل الحرب بفضل توجيه وزارة الطيران ونصيحة الماريشال داودنج وكانت القيادة العامة تواجه التعليمات والاوامر من مقر القيادة العليا للطائرات المحاربة فى ستاجور ، لكن القيادة الفعلية لاسراب الطائرات قد عهد بها الى المجموعة الحادية عشرة التى كانت تتولى الاشراف على سائر الوحدات الموزعة فى شتى محطات الطائرات المحاربة فى مختلف انحاء البلاد .

وكانت غرفة عمليات المجموعة تشبه المسرح الصغير وطولها يبلغ ستين قدما ، وتتكون من طابقين واخترنا مقاعدنا فى الحلقة الوسطى وامامنا على المائدة افردت الخريطة الضخمة وقد التف حولنا ~ اا

عشرين شـابا وفتـاة تم تدريبهم ومعهم مسـاعدوهم من موظفى التليفونات وامامنا يقع لوح اسود كبير ، بطول الجدار كله ، وقـد قسمته المصابيح الكهربائية الى ستة أعمدة يمثل كل منها .. محطة من المحطات الست ، ولكل منها أيضا عمود اضافى مقسمة بخطوط افقية .وهكذا كانت المصابيح المنخفضة تكشف عن الاسراب « الواقفة على اهبة الاسـتعداد » والمسـتعدة للطيران فى خلال دقيقتين ، ثم تعلوها المصابيح التى توضح الاسراب المتاهبة للعمل فى خلال خمس دقائق ثم تعلوها تلك التى يتم اسـتعدادها فى عشرين دقيقة ، وهكذا بالنسبة الى تلكالتى تقوم بالطيران ، أو التى شـاهدتالعدو أو المشتبكة معه فى هذه اللحظة أو تلك التى فى طريقها الى قاعدتها وهناك غـرفة صغيرة على الجانب الايسر تشبه المقصـورة فى المسرح يجلس فيها اربعة أو خمسـة ضـباط من فرقة المراقبة التى كان عددها قد بلغ حينذاك حـوالى خمسين الف رجـل وامراة وشـاب وقد كان الرادار أنذاك ــ فى بدايته ، ومع ذلك فقد كان كافيا لتوجيه الانذار بالغـارات حين تقترب من السـواحل ، وكان المراقبون من خـلال مناظيرهم ، وتليفوناتهم المتنقلة ، مصـدر كل المعلومات عن الطائرات المغيرة ، وهكذا كانت القيادة تنهال عليها ألوف الرسـائل والاشـارات فى غضـون وقوع الغارة . وكان يجلس عدد كبير من الرجـال المدربين فى غرف تمتلىء بهم فى مقر القيادة الـكائن تحت الارض ، يحلـون رموز تلك الرسـائل ويلخصـونها بأقصى سرعة وينقلون من دقيقة الى أخرى النتائج التى يصلون اليها الى الذين يضعون ويخططون للمعركة وهم جالسون حول المائدة الرئيسية ، والى الضباط المشرفين على سير العملية من مقصورتهم التى اشرنا اليها أنفا .

وفى الناحية المقابلة « مقصورة » ثانية ، يحتلها عدد من ضباط الجيش الذين يقومون بنقل أعمال البطاريات المضادة للطائرات وقد كان لدينا منها تحت اشراف هـذه القيـادة مائتـا بطارية وكان من الضرورى جدا ان تتوقف هذه البطاريات عن العمل بضع سـاعات من الليل فى بعض المناطق . اذ ان طائراتنـا المقاتلة تكون ــ فى تلك الآونة ــ قد اشتبكت فى القتال مع العدو ، وكنت على علم بهذا النظام فقد اطلعنى داودنج على عمل الجهـاز كله قبل أن تبدأ الحرب بعام عنـدما زرته فى سـتاغور ، ولقد مر النظام بمراحل من التحسين والاصلاح منذ تلك الزيارة .وصار الآن اداة حيوية من أدوات الحرب لا نظير لها فى اى بلد من بلاد العالم .

وقال بارك عندما نزلنا الى المقر فى الطابق الاسفل « لا استطيع التخمين عما يحدث اليوم كل شيء هادىء »

ولم يكد يمضى ربع ساعة على هذا الكلام ، حتى كان منظمو الخطة قد بدأ تحركهم ، اذ ابلغوا ان حوالى اربعين طائرة تحركت للاغارة من المحطات الالمانية فى منطقة دييب ، واخذت المصابيح تضىء فى الصف الادنى مشيرة الى الاسراب التى وقفت على اهبة الاستعداد ثم وافى خبر آخر مؤداه أن عشرين طائرة مغيرة اخرى تستعد ، ولم تمض عشر دقائق أخرى حتى صار من البين أن معركة قاسية فى طريق الوقوع وبدأ الجو يحتشد بطائرات من الجانبين .

وتتابعت الاشارات ، اربعون طائرة أخرى ، ستون طائرة ، وكان اتجاه سير الطائرات المغيرة يبدو أمامنا على الخريطة من وقت الى آخر . فى علامات توضح اتجاهاتها ، بينما كانت على اللوحة المواجهة تضىء المصابيح ، مشيرة الى طيران أسرابنا بصورة متتابعة حتى لم يبق منها على الارض على اهبة الاستعداد أكثر من عدد قليل ، وقد ظلت هذه المعارك الجوية التى يعلق عليها الكثير — أكثر من ساعة بعد وقوعها وقد كان عدونا ما تزال لديه القوة التى مكنته من أرسال هذه الدفعات المتوالية من الطائرات الى قلب الهجوم ، وكان على اسرابنا التى تم طيرانها كلها لتكون لها السيادة على الجو أن تعود الى قواعدها بعد سبعين أو ثمانين دقيقة من طيرانها لتتزود بالوقود او الذخائر ، ولو تمكن العدو فى أثناء ذلك من حشد طائرات جديدة فى حومة القتال لاستطاع تدمير العديد من طائراتنا وهى على الارض ولذا فقد كان هدفنا الرئيسى دائما أن نوجه أسرابنا بحيث لا يتجمع عدد كبير منها على الارض فى وقت واحد .

وسرعان ما اوضحت الاضواء الحمراء أن معظم اسرابنا ، ملتحمة مع العدو ، وكنت أسمع همسا متصلا بين القائمين بالتخطيط ، وهم ينقلون الاشارات من مكان لآخر ، ليوضحوا تطور المعركة ، وتغير الاوضاع وكان نائب ماريشال الجو بارك ، يصدر التعليمات العامة موجها طائراته المقاتلة ، التى تترجم فورا الى تعليمات تفصيلية يوجهها ضابط شاب يجلس فى وسط الغرفة الى كل محطة من المحطات .

وكنت اجلس بجواره ، وسألت عن اسمه بعد سنوات ، فقيل لى انه اللورد ويلوبى دى بروك . وقد التقيت به لثانى مرة فى عام ١٩٤٧ ، عندما استجبت لدعوة من نادى الفرسان ، وكان عضوا بمجلس ادارته لشهود حفلة سباق الدربى . وقد استغرب كثيرا لاننى لم انس لقائى الاول به .

وكان فى ذلك الحين يصدر التعليمات والاوامر للاسراب الفردية بالتحليق فى الجو ، والقيــام بأعمال الدورة على هــدى من النتائج الظاهرة على الخريطة .

وكان ماريشال الجو آنذاك يسير فى الغرفة جيئة وذهابا ، وهو يلحظ بعين حذرة متنبهة كل حركة وخطوة فى اللعبة ، مراقبا بنفسه رجال جهازه التنفيذى ، ومتدخــلا اذا اقتضى الامــر بـكلمة حاســمة لتعزيز نقطة مهددة . ولم تمر لحظات حتى صــارت جميع اسرابنا ملتحمة فى المعركة ، ولم يبق سرب واحد فى الاحتيــاطى ، وتحــدث بارك فى تلك الاثناء تليفونيا الى داودنج فى ستانمور ، فطلب منه أن يضع ثلاثة أسراب من المجموعة الثانية عشرة تحت تصرفه احتياطا للطوارىء وفيمــا اذا وقع هجوم رئيسى آخر ، خلال قيام أسرابه بالتزود بالسلاح والذخائر ، وقد تم هذا فعلا ، وكانت الاسراب الزم ما تكون لحماية لندن ومطارات الطــائرات المحــاربة .. حيث أن المجموعة الحادية عشرة كانت قد استنفدت كل قواها .

واستمر الضابط الشاب ، الذى اتخذ من هذه الامور مسألة روتين فى اعداد اوامره ، المنســقة مع تعليمات قائده العام ، بلهجة هادئة ، وسرعان ما انطلقت الاسراب الاضــافية الثــلاثة الى حــومة الوغى ايضا ، وشعرت بقلق القائد ، الذى كان يصــطنع الهدوء فى وقفته وراء مقعد مساعده ، وكنت حتى هذه الاثناء أشهد التطورات صامتا ، فسألته : « هل تملك قوات أخرى احتياطية ؟ .. » فأجابنى نائب الماريشال : « كلا .. لم يبق لدينا فى الاحتياطى أى شىء . » وقد كتب فى تقريره فيما بعــد أننى ظهرت حينذاك بمظهر المتهجم العبوس ، وربما أكون حقا قدقطبت جبينى ، وعبسوجهى ، اذ ماذا يكون الامر لو فاجأت اربعون طائرة جديدة أو خمسون أسرابنا وهى على الارض تتزود بالقود لتعود الى التحليق من جديد ، ان الميزان حينذاك كان فى كف القدر ، وكانت قدراتنا محدودة ، والاخطار التى نتعرض لها جد كبيرة .

ومرت خمس دقائق أخرى ، واغلب طائراتنا المحــاربة تعود الى الأرض لتتزود بالوقود ، ولم يكن فى وسع مواردنا الحالية أن تضمن لها الحماية الجوية الكافية ، وعرفنا أن طائرات العدو قد أخذت تعود من حيث اتت ، وبدأت العــلامات على الخريطة تظهــر اتجــاه الطائرات الالمانية نحو الشرق ولم يبد اثر لأى هجوم جديد ، وبعد عشر دقائق من انتهاء المعركة بدأنا نرتقى السلم نحو سطح الأرض ، وحينما وصلنا كانت صفارات الأمان تدوى فى الأسماع منبئة بانتهاء الغارة .

وقال بارك : « أسعدنا يا سيدى ، انك رايت المعركة ، حقيقة لقد كنا فى الدقائق العشرين الاخيرة نكاد نختنق من المعلومات التى عجزنا امامها ، ولعلك يا سيدى شهدت القيود المفروضة على مواردنا الحالية وقد تحملت الموارد اليوم أكثر مما نستطيع »

وسألته عما اذا كان شيء من نتائج المعركة قد وصل اليه ، وذكرت أن الهجوم قد رد بصورة رائعة وفعالة ، فأجاب بارك بأنه غير راض وان طائراته لم تستطع أن تسقط العدد الذى كان يتوقعه ، وكان من البعيد أن العدو قد اجتاح خطوطنا الدفاعية فى كل مكان تقريبا ، وقد سرت الأنباء بأن عشرات من القذائف الألمانية قد استطاعت تحت حراسة المحاربات من التسلل الى لندن ، ولكن الصورة الصادقة عن نتائج المعركة لم تتضح تماما ، كما لم تصل الينا اية ارقام نهائية عن الخسائر أو الاضرار .

وكانت الساعة قد انتهت بنا الى الرابعة والنصف بعد الظهر ، عندما رجعت الى تشيكرز ، فمضيت اثر ذلك الى فيلولنى ، ويبدو ان المسرحية التى عاينتها فى مقر قيادة المجموعة الحادية عشرة قد أنهكت قواى ، حتى أننى لم أصح من نومى الا فى حدود الثامنة مساء ، وحينما دققت الجرس حضر لى جون مارتن رئيس أمناء سرى ومعه موجز أخبار المساء من جميع أنحاء العالم .. كانت اخباره مثيرة للقلق فقد سار هذا الأمر سيرا خاطئا هنا ، وتأخر ذاك هناك ، والرد غير مقنع عن آخره أو ابتلع الأطلنطى قطعة بحرية ، ومضى جون مارتن يقول : « اننا قد حققنا فى الجو ما نهدف اليه فقد اسقطنا مائة وثلاثا وثمانين طائرة مغيرة مقابل خسائرنا التى لم تبلغ الأربعين » .

* * *

وبالرغم من أن المعلومات التى بلغتنا من العدو بعد الحرب تشير الى أن خسائره فى هذه المعركة لم تزد عن ست وخمسين طائرة ، الا ان ١٥ سبتمبر كان قمة معركة بريطانيا حقا ، وبدأت قيادة طائراتنا القاذفة فى تلك الليلة القيام بهجمات مركزة على كافة موانىء العدو من يولون الى انتوبرب وقد انزلت بالميناء الأخير خسائر بالغة ، وها نحن أولاء نعلم الآن ان الفوهرر قد قرر فى ١٧ سبتمبر تأجيل عملية سبع البحر الى أجل غير مسمى ، وتم أخيرا فى ١٢ اكتوبر تأجيل هذا الغزو نهائيا حتى الربيع التالى .

وقرر هتلر فى يوليو عام ١٩٤١ تأجيل الغزو ثانية حتى ربيع سنة ١٩٤٣ عندما تكون الاغارة على روسيا قد انتهت .. وكان هذا الحلم

ضروريا مع كل ما فيه من عبث واستحالة ، وفى ١٣ فبراير ١٩٤٢ اجتمع الاميرال ريدر بهتلر للمرة الأخيرة للبحث فى مسالة عملية « سبع البحر » واضطره أن يقرر العدول عنها نهائيا ، ومن ذلك يتضح أن ١٥ سبتمبر عام ١٩٤٠ كان نقطة تطور هامة . ولا شك فى أننا كنا متهاونين فى تقدير خسائر العدو وفى الحقيقة نسقط طائرتين للعدو أو ثلاثا مقابل واحدة تهوى من طائراتنا ، وفى هذا ما يكفينا وقد استطاعت قواتنا الجوية أن تحقق النصر ، بدلا من أن يحيق بها الدمار على يد العدو وكان هناك مدد من الطيارين الجدد لا ينقطع ، وبالرغم من الاصابات التى لحقت بمصانع طائراتنا ــ وهى العامل الفعال فى قدرتنا على شن حرب طويلة الأجل ، الا مجرد امدادنا بحاجاتنا العاجلة فحسب ، بالرغم من ذلك فلم تشل حركتها نهائيا ، وبقى عمالها من فنيين وغير فنيين وراء مخارطهم تزدحم بهم المصانع غير مبالين بالنيران التى تتوهج من حولهم فكانوا أشبه ما يكونون ببطاريات مدفعية تواصل عملها ، وكان هوبرت موريسون فى وزارة التموين يشجع الجميع على مواصلة الجهد ، كل فى حدود عمله ، وكان يحفزهم بكلمة : « هيا الى العمل » فلا ينى أحد عن الاسراع بتلبية ندائه، وقامت قيادة مقاومة الطائرات المغيرة برئاسة الجنرال بايل ، ببذل كل عون مستطاع الى معركة الدفاع الجوى ، لكن اشتراكها الرئيسى كانمتأخرا ، أما فرقة المراقبة فكانت تواصل عملها ليل نهار لا تعرف التعب وبدون أن يتأثر اخلاصها .

أما قيادة الطائرات المقاتلة التى تعتمد عليها المقاومة كل الاعتماد ، فقد أقنعتنا بقدرتها على الصمود المتواصل اشهرا عديدة أمام الاجهاد المستمر ، حقا لقد ادى كل فريق واجبه احسن الآداء .

واستمرت ارواح طيارينا وشجاعتهم وهم يخوضون غمار المعركة فى منتهى القوة والروعة ، وهكذا انقذت بريطانيا ، وأصبح على أن أقف فى مجلس العموم وأقول « لم يسبق قط فى تاريخ الصراع الانسانى أن احس مثل هذا العدد الضخم من الناس بما فى أعناقهم من دين جسيم نحو عدد قليل من الناس مثلما نحس به جميعا اليوم نحو طيارينا ».

صمود لندن

لا شـــك فى ان الآراء التى تروى عن الهجوم الجوى الالمـــانى على بريطانيا هى آراء متناقضة ذات اهداف متباينة ، وخطط مبتورة ، ففى خلال هذه الاشهر كلها ، كان يقلق راحتنا ، ليتخـــذ اسلوبا جـــديدا ، ولكن هذه المراحل جميعها متداخلة وليس فى المســـتطاع الفصل بينها بتواريخ دقيقة محددة . فالمرحـــلة الواحـــدة منها تســـلم الى المرحلة الثانية ، وتتداخل فيها ، وكانت العمليات الأولى تهدف الى الالتحام مع قواتنا الجوية فى معارك فوق المانش والســـاحل الجنـــوبى ، ثم تحول القتال الى سماء المقاطعات الجنوبية ، وخصـــوصا فى كنت وساسكس حيث أراد العدو أن يحطم تنظيم جهاز قوتنا الجوية ، ثم أخذ يتجه نحو لندن قليلا قليلا حتى أصبح اخيرا يحلق فى قلب سمائها ؛ حيث أضحت المدينة هدفه الرئيسى ، واخيرا عندما أحرزت لندن النصر ، انتقل القتال الى سماء المدن فى الاقاليم والى شريان الحياة البريطانى خلال الأطلنطى عن طريق ميرس وكلايد .

وقد شـــهدنا الهجمات الألمـــانية العنيفة على مطارات الساحل الجنوبى فى الاسبوع الاخير من شهر اغسطس . والأسبوع الأول من شهر سبتمبر ، وفى ٧ سبتمبر تسلم جورنج علنا قيادة المعركة الجوية وجعل الغارات ليلية، ونقل مكان المعركة من مطارات «كنت» وساسكس الى عمارات لندن وابنيتها ، اما الغارات النهارية فلم تنقطع وان كانت ثانوية ، حدث هذا باستثناء غارة نهارية ضخمة أخرى ، لكن الطابع العام للهجوم الألمـــانى قد تغير تماما ، وقصفت لندن بصـــفة متواصلة لمدة سبع وخمسين ليلة دون انقطاع،مما جعل أكبر مدن العالم تواجه تجربة خطيرة بل محنة قاسية ، ولم يكن فى مقدور اى انسان ان يتنبأ بالنتائج ، ولم يسبق قط ان تعرضت هذه البلدان لمثل هـــذا القصف الجوى الراعد ، كما لم يسبق ابدا ان واجه العـــدد الضـــخم من الأسر المشكلات والمصاعب التى احدثها هذا القصف الرهيب ونكباته .

وقد قمنا بغارة على برلين ردا على هذه الغـــارات المتواصلة على لندن فى نهاية شهر اغسطس ، ولكن المسافات الشـــاسعة — التى كان على طائراتنا أن تجتازها ، فلم تكن مثل هـــذه الغـــارة شـــيئا مذكورا بالنسبة للغارات الألمانية المركزة على لندن من المطارات القريبة الفرنسية

والبلجيكية . ولكن وزارة الحرب ، رات نفسها فى وضع يحتم عليها الثأر ، رفعا للروح المعنوية ، وتاكيدا لتحدينا للعدو ، وكنت على ثقة من صحة هذا الراى وجدواه اذ انى اعلم أن هتلر يثير اضطرابه صمود بريطانيا . واظهار قوتها وان كان هتلر فى أعماق نفسه يعجب بشعبنا ، وبالطبع واتته الفرصة حين قمنا بغارتنا الشارية على برلين ، فأعلن ما انطوت عليه نفسه من رغبة فى تحويل لندن وغيرها من المدن البريطانية الى أطلال ورسوم حين صرح فى ٤ سبتمبر قائلا : « ان هجومهم على مدننا سيدفعنا الى ازالة مدنهم من الوجود . »

وقد بذل هتلر أقصى ما يستطيع من جهد .

واسهم فى الغارات الليلية المتواصلة على لندن بين ٧ سبتمبر . و ٣ نوفمبر اكثر من مائتى طائرة فى كل غارة ، وكانت الهجمات التمهيدية العديدة التى نزلت بمدننا الاقليمية فى الأسابيع الثلاثة الماضية قد فرضت علينا ان نوزع مدفعيتنا المضادة للطائرات بصور فعلية وعندما أصبحت لندن الهدف الرئيسى للمرة الأولى لم تكن تحتوى على أكثر من اثنين وتسعين مدفعا ، ورأينا أن الاجدى ترك الجو حرا لطائراتنا الليلية المقاتلة تحت قيادة المجموعة الحادية عشرة ، وكان من بين تلك الطائرات ستة أسراب من طراز « بلنهايم » وطراز « ديفايانت » وكان الاشتباك الليلى ما يزال فى بدايته ، ولذلك فان خسائر العدو كانت طفيفة ومحدودة .

وهكذا استمرت مدافعنا المضادة متوقفة عن العمل فى الليالى الثلاث الاولى ، وبالرغم من عدم دقة الوسائل التى تستخدمها المدافع المضادة ، فقد اضطرنا ضعف طائراتنا الليلية المحاربة ، ومدىماتواجهه من مشاكل فى حاجة الى الحل ، اضطرنا كل أولئك الى أن نعطىلمدفعى هذه البطاريات الحرية التامة فى اطلاق نيرانها على أهداف غير واضحة متخذين أى أسلوب يختارونه لتحديد الهدف ودقته .

وبعد ثمان وأربعين ساعة ، استطاع الجنرال بايل ، المشرفعلى قيادة المدافع المضادة من زيادة عددها فى العاصمة بجلب عدد من مدن الاقاليم ، وهكذا اخليت السماء من طائراتنا المقاتلة ، وقامت المدافع المضادة بمهمة الدفاع .

ب

ومكث اهل لندن ، ثلاث ليال متعاقبة ، ملازمين مساكنهم أو معسكراتهم غير المعدة ، محتملين أعنف الغارات حتى كانت ليلة ١٠ سبتمبر فانطلقت مدافعنا المضادة فجأة تضىء لها السبيل المصابيح الكاشفة المتوهجة ، وبالرغم من دويها العظيم فلم تنزل بالعدو اضرارا جسيمة ، الا انها اعلت الروح المعنوية بين أبناء العاصمة ، وتمشت

الحماسة فى صدر كل انسان لمجرد الاحساس بأننا نرد الصاع صاعين، واستمرت المدافع المضادة منذ ذلك الوقت تتابع اطلاق نيرانها بصفة منتظمة ومتواصلة ، ومهد التمرين والاختراع والحاح الحاجة الى زيادة التصويب دقة ، واخذ عدد الطائرات المصابة من سلاح العدو يتكاثر ليلة بعد أخرى ، وكانت البطاريات تلوذ بالصمت احيانا حين تنطلق الطائرات الليلية المقاتلة لتخوض غمار المعركة ، بعد ان تحسنت أساليبها ، وظلت الغارات الليلية بل النهارية متواصلة الى الحد الذى كانت تشن فيه هذه الغارات مجموعات صغيرة من الطائرات بل طائرة واحدة احيانا ، وطالما اطلقت صفارات الانذار ، ودوى صوتها فترات متلاحقة طيلة ساعات اليوم بأكمله ، ولكن أهل لندن الذين يبلغون ، فى ذلك الوقت سبعة ملايين قد رتبوا حياتهم على وضع يلائم تلك الاحوال الشاذة .

* * *

ولتنوير القراء ، ورغبة منى فى الترفيه قليلا عنهم ، والتخفيف من وقع هذه التجربة القاسية على مشاعرهم ، اورد هنا بعض ملاحظاتى الشخصية عن غارات لندن ، متيقنا أن لدى الآلاف من أبناء العاصمة كثيرا من الحكايات التى تبذ فى اثارتها هذه الملاحظات .

فعندما اخذت طائرات العدو فى قصف جو العاصمة كنا نرى أن نواجه هذه الغارات بالتهوين وعدم الاكتراث ، فاستمر كل انسان فى حى « الويست اند » يعمل ويلهو ، ينام ويأكل كما تعود ، دون أن يغير شيئا من مجرى حياته العادية ، فالمسرح مزدحم بالنظارة والشوارع المظلمة تموج بالمارة ، ولعل هذا الموقف كان رد فعل صائبا للرعب المستطير الذى بدا فى العناصر الأنهزامية فى باريس ، عندما تعرضت المدينة لأول هجوم جوى فى شهر مايو واذكر انى كنت على مائدة العشاء ذات ليلة ، مع صحبة خيرة ، عندما حدثت غارات مستمرة قوية وكانت نوافذ قصر « ستورانواى » ـ حيث كنا نجلس ـ نطل على الميدان الاخضر « جرين بارك » الذى اثارته شعل المدافع المضادة وانفجار القذائف المضادة ، وهيىء لى اننا كنا نغامر بأرواحنا ، دون ما ضرورة أو مبرر وبعد أن تناولنا العشاء انتقلنا الى عمارة شركة الصناعات الكيمائية الامبراطورية وهى تطل على الجسر ، وكان منظر النهر يأخذ بنفوسنا ونحن نطل عليه من الشرفات العالية ، ورأينا على الاقل عشر حرائق تشتعل فى الجانب الجنوبى ، وبينما كنا نقف تساقط عدد من القنابل الثقيلة ، انفجرت احداها بالقرب منى فدفعنى صديق الى ما وراء عمود حجرى راسخ القواعد ، واكدت هذه الحادثة الفكرة

التى خطرت ببـالى وهى أن نكيف حيـاتنا مع الوضع الجديد ، وان نفرض على متع حياتنا كثيرا من القيود .

وسقطت القنابل مرات عديدة على مجموعة من الابنية الحكومية المحيطة بالبيت الابيض ، على أن دور الحكومة فى « داوننج ستريت » قام ببنائها قبل مائتين وخمسين عاما المتعهد الاستغلالى الذى ما زال اسمه محفورا على اسس ضعيفة واهنة ، وخلال ازمة ميونخ اقيمت المخـابىء لسـكان رقمى (١٠ ، ١١) من هـذا الشـارع ، كما دعمت الأسقف بأعمدة جديدة قوية ، وانشئت سقوف داخلية أخرى ، وكان الظن ان هذه الأسقف الجديدة تسـتطيع أن تصمد فيما اذا نسفت الابنية أو انهارت ، لكنها لا تحتمل على اية حال الاصابة المباشرة ، وقد تم فى الاسبوعين الأخيرين من سـبتمبر نقل مقر رئاسـة الوزارة الى مكاتب جـديدة اكثر تحملا وصـلابة ، مطلة على ميـدان « سنت جيمس » . وكنا ندعو هذه الابنية باسم « الملحق » ، وقد ظللت مع زوجتى خلال الايام البـاقية من الحرب فى هذا البنـاء ، ننعم بالهدوء والراحة ، وكنا نوقن أن هذه الابنية القوية المشيدة من الاسـمنت فى وسعها أن تصد الحديد والفولاذ ، وعلقت زوجتى عددا من صورنا فى غرفة الاستقبال التى كنت اقترح عليها ان تظل بلا صـور ، ولـكنها نفذت فكرتها ، وتغلبت على بالطبع ، وساعدتها الأحداث ، وكان منظر لندن رائع الجمال حين نراها من سطح « الملحق » على مقربة من القبة فى الليالى الساجية ، وقد هيأوا لى مكانا على السـطح ، فوقه سقف متين ، كى أتمكن فى ضوء القمر من مراقبة الغارات الجوية وتحت هذا المكان اقيمت غرفة الحرب حيث زودت ببعض الأثاث الصالح للنوم ، وحيث لا تجد القنابل اليها منفذا وكانت القنـابل فى تلك الايام أصـغر بالطبع من القنابل التى طالعتنا فى المراحل الاخرى من الحرب ، وبالرغم من ذلك كانت حياتنا فى داوننج استريت فى الفترة التى سبقت بناء هذا المسكن الجديد مثيرة للغاية ، اذ كان كل منـا يحس وكأنه قد دفع به الى مركز قيادة احدى الفرق فى ميدان القتال .

ولست انسى مساء يوم ١٧ من اكتوبر حيث كنا نتناول عشاءنا فى غرفة الحديقة بداوننج رقم/ ١٠ عندما انطلقت الغارة الليلية المألوفة وكان يشـاركنى العشاء آرشى سـنيكلير واوليفر ليتلتون ومور ـ برابا زون . وكانت النوافذ الفولاذية مغلقة ، وحدثت بعض الانفجارات المدوية بالقرب منا ، وسقطت قنبـلة على مكان اسـتعراض حرس الفرسان وهو لا يبعد عنا بأكثر من مائة يارده ، وكان دويها هائلا ، وعلى حين غرة شعرت بهاتف سماوى .. ينبهنى الى الخطر الماثل . فالمطبخ عال ومكشوف ، وبه نافذة زجاجية يبلغ طولها خمسة وعشرين قدما ،

والساقى والفتاة يقدمان لنا العشاء دون تأثر بدوى الانفجارات وخلف النافذة توجد السيدة لانديمير الطباخة ومعها مساعدتها دون مبالاة . فنهضت مسرعا وغادرت المائدة ، وامرت الساقى ان يحمل العشاء الى غرفة المائدة مباشرة ، وطلبت الى الطباخة وسائر الخدم أن يسرعو الى المخبأ ، ثم عدت الى مكانى بالمائدة ، فلم تمر ثلاث دقائق حتى فوجئنا بدوى هائل واصوات دمار جد قريبة وشعرنا بهزة عنيفة مم يؤكد أن البيت نفسه قد اصيب ، وجاء مفتش المباحث الملحق بخدمتى ليخبرنى بفداحة الخسائر ، فقد اصيب المطبخ ، ومخزن التموين ومكاتب القسم المالى ..

وذهبنا الى المطبخ لنشاهد ما جرى ، فلم نر الا انقاضا فقد اسقطت القنبلة على بعد خمسين ياردة ، على القسم المالى ، فدمر كل ما فى المطبخ وتحول الى أنقاض وتهشمت النافذة الزجاجية الكبيرة وتطايرت شظاياها فى كل جوانب المطبخ ، ولو ظل به احد الى ان حدث الانفجار ، لغدا اشلاء مبعثرة ، ولا شك فى أن الهاتف السعيد الذى خطر لى جاء فى وقته المناسب . اما مخبأ القسم المالى فى الساحة فقد أصابته قذيفة مباشرة فتناثرت أجزاؤه ، واستشهد تحت انقاضه اربعة حراس كانوا يقومون ليلا بأعمال الخفارة ، وعلى أية حال فلم يكن فى مقدورنا أن نحدد عدد المفقودين ، فقد دفن الجميع تحت ركام الانقاض .

ولما كانت الغارة متواصلة ، فقد لبسنا خوذاتنا وارتقينا الدرج الى سطح الملحق لنشاهد المنظر كاملا ، وقبل ذهابى لم أستطع مقاومة الرغبة فى أن اغرى الطباخة والخدم بالتوجه الى المطبخ ، وبالطبع أصيبوا بالهلع من رؤية مكانهم وقد استحال الى ركام .

وصحبت آرشى الى سطح الملحق ، كان المساء ساكنا والجو صافيا ، وكانت لندن بكاملها تجاهنا ، ورأيت معظم حى (بال مال) تأتى عليه النيران ، وعلى اية حال كانت ثمة خمس حرائق مضطرمة فى الجانب المقابل من المدينة على طول النهر ، لكن « البال مال » كان طعمة للنيران .. ثم اخذت الغارة تنزاح غمتها شيئا فشيئا الى ان دوت صفارات الأمان ، وان ظلت الحرائق مشبوبة فى المدينة .. ونزلت الى مسكنى الجديد فى الطابق الأول من الملحق وقد وجدت الضابط ديفيد فارجيسون ، رئيس مراقبى مجلس العموم ، والذى يقطن فى نادى الكارلتون ، وقد أخبرنا ان دار النادى قد أصبحت فى خبر كان ، وكنا قد تخيلنا ذلك بانفسنا بمجرد أن شاهدنا اندلاع النيران ، وكان مارجيسون فى النادى عند ما دوى الانفجار ، وحوالى

مائتين وخمسين من الأعضاء والموظفين ، وقد احـدث الانفجار قذيفة ضخمة مباشرة ، أطاحت بواجهة المدخل من جهة شارع « بال مال » وكان الاعضــاء يزحمون قاعة التدخين ، فتهاوى السقف عليهم ، وعندما شاهدت الأنقاض فى اليوم التالى أخذتنى الدهشـة لأن أحدا ممن كانوا فى القاعة لم يقتل ، وانما نجا الجميع رغم الأنقاض والدخان وكأنما حدثت معجزة ، ولئن أصيب بعضهم بجروح الا أنهم نجوا من الموت جميعا . وعندما سعيت بالحقائق مفصلة الى مجلس العموم عقب زملاؤنا الوزراء من حزب العمال مازحين بقولهم « ان الشيطان لا يمس انصاره بسوء » (أعضاء نادى الكارلتون من كبار زعماء حزب المحافظين) وقد انتشل المستر كانتان هوغ والده ــ وهو وزير مالية سابق ــ من بين الركام ، كما حمل اينيـاس والده انخيزاس فى حرب طروادة ، ولم يجد مارغيسون مسكنا يأوى اليه فى تلك الليلة ، فأعددنا له سريرا فى الطابق الأرضى من الملحق ، لقد كانت هذه الليلة بصـورة عامة مثيرة للفزع ، وكان من الغريب حقا بالنظر الى اصـابات المبانى الا يزيد عدد القتلى عن خمسمائة شخص وعدد الجرحى عن الفين أو ثلاثة آلاف .

ومضيت للمرة الثانية الى زيارة رامسغيت . وشن علينا الهجوم فمضوا بى الى النفق الكبير ، الذى يقيم فيه عدد كبير من الناس بصفة مستمرة ، وعندما غادرنا النفق بعـد ربع ساعة تقريبـا ، بدأنا نتأمل الخرائب التى ما زال يتصاعد الدخان من جوانبها ، وقد تهدم فندق صغير دون ان يصاب أحد من نزلائه بأذى ، على الرغم من تحوله الى تل من الركام والحجـارة تتنـاثر خـلالها قطع الأثاث المحطم ، وأدوات المطبخ ، وراعنا صاحب الفندق وزوجته والطبـاخون والخدم ، وهم يولولون حول فجيعتهم فى مصدر رزقهم ، ومأوى حياتهم .. وعندئذ قررت بكل ما لى من نفوذ وامكانيات ان أصدر أمرا بالتعويض الفورى الكامل ، وعندما أبت بالقطار أمليت على وزير المـالية كنغز لى وود الرسالة التى توضـح هـذا المبـدأ الهام وهو أن كافة الخسـائر التى تحدثها الغارات يجب أن تكون على مسـئولية الدولة ، وأن الحـكومة تلتزم بتعويضها حتى لا يقع عبؤها على كاهل الذين يصابون فى بيوتهم او اعمالهم بل على كاهل الشعب كله تحقيقا للعدالة وقد أثار هذا القرار فزع كنغزلى وود بما ينطوى عليه من التزام لا نهائى ولكنى اكدت له ضرورة القيام بهذا الاجـراء ، ولم يمر اسـبوعان على ذلك حتى كانت وزارة المالية قد جهزت مشروع التـأمين الذى قدر له أن يقوم بدور فعال فى حيـاتنا .. وقد واجهت وزارة الخزانة مشـاعر مضـطربة ومتصلاحة ازاء هذا المشروع، فقد ظنت فى بادىء الأمر انه سيستنزف

الخزانة حتى الافلاس ، ولكن بعد مايو عام ١٩٤١ ، حيث توقفت الغارات الجوية أكثر من ثلاث سنين ، اخذت المكاسب تنهال على خزائن الوزارة بفضل هذا المشروع الذى اعتبرته أنا فى حينه عملا من اعمال التوفير والبراعة السياسية ، وفى أخريات مراحل الحرب ، عندما اخذنا بغارات الصواريخ والقذائف الموجهة ، صعدت الأرقام ثانية الى جانب الخسارة وتكبدنا ما لا يقل عن ثمانمائة وتسعين مليونا من الجنيهات فى شئون التعويض ، وبالرغم من كل ذلك فقد كنت غير مستاء لما يحدث .

* * *

وغدا من المحتم فى هذه الآونة الجديدة من الحرب ، ان نستفيد بغاية ما نستطيع من العمل ، ليس فى المصانع فقط بل فى الدوائر الحكومية بلندن كذلك ، بالنسبة لتعرضها لهجوم جوى مستمر ليل نهار ، فكان الموظفون فى البداية عند ما تدوى صفارات الانذار يسرعون الى الطوابق الأرضية حيث تستخدم كملاجىء للوقاية ، وكان يثير زهونا أن تتم هذه العملية فى هدوء ونجاح ، وفى أحوال كثيرة لم تكن الغارة تعنى أكثر من هجوم من بضع طائرات أو حتى طائرة واحدة ، وطالما عوقت هذه الطائرات فلم تصل الى العاصمة ، وهكذا يتوقف العمل فى جميع المصالح الحكومية الادارية والتنفيذية بسبب غارة صغيرة تافهة .

ولذلك فقد فكرت فى أن يستخدم الانذار على مرحلتين . مرحلة التنبيه المبدئى ومرحلة الخطر الفعلى الذى لا تنطلق صفاراته الا حين يحل الخطر ، ويصبح فى حالة مداهمة فعلية ، فقبل اقتراحى ،ونسقت الخطة على اساسه .

وكان البرلمان ايضا فى أمس الحاجة الى الارشاد بالنظر الى مواصلة عمله فى تلك الأيام المليئة بالخطر وكان أعضاء المجلس يوقنون بأن واجبهم يحتم عليهم أن يكونوا مثلا للشعب ، ولا شك فى أن الحق كان بجانبهم فى هذا اليقين ، ولكن كان على أن أوجه انتباههم الى ضرورة اتخاذ الحيطة والحذر نظرا الى الأخطار المحدقة واستطعت اقناعهم فى جلسة سرية بوجوب اتخاذ الاجراءات الوقائية الضرورية، فاتفقوا على كتمان مواعيد الجلسات ، وايقاف النقاش حين تدوى صفارات الانذار ، وصاروا يخفون بنظام الى المخابىء المقمعة ، والتى لم تكن معدة كما ينبغى .

ولا شك فى أن مواصلة البرلمان البريطانى أداء مهمته ، وتصريف

الشئون فى تلك الآونة صفحة مشرقة فى تاريخه وذيوع شهرته ، والنواب عادة أكثر الناس حساسية بالنسبة لمهامهم فى هذه الظروف فكان من اليسير على أى انسان أن لا يخشن الحكم على حقيقة تصرفاتهم ، فعندما تنزل الأضرار باحدى القاعات كانوا ينتقلون الى قاعة أخرى ، وكنت أواجه صعوبات جمة فى اقناعهم بضرورة الأخذ بوسائل الحكمة والموعظة الحسنة لكن جميع النواب فى هذه الفترة قد نهجوا نهجا ينم عن التعقل ووزن الأمور والحرص على الكرامة . ومن يمن الطالع أن الانفجار الذى حدث بعد عدة شهور ، واطاح بقاعة مجلس الشيوخ حدث ليلا حينما كانت القاعة صفصفا ليس بها أى انسان ، ولقد أعطانا تفوقنا على الغارات النهارية احساسا بالراحة والهدوء النفسى ، أما فى خلال الشهور الأولى فقد سيطر على الشعور بالقلق الذى يتمتع بحقوق السيادة ، والذى انتخب بطريقة عادلة ونزيهة وهى الاقتراع العام ، وفى يده — دائما — القدرة على اسقاط الحكومة ، ولكنه الآن فى أقسى الظروف كان يدعمها ويسند مركزها .. وهكذا كتب النصر لبرلماننا .

وانى لا أعتقد أن أى دكتاتور قد حاز من السلطات الفعلية فى بلاده مثل تلك التى خولت لوزارة الحرب البريطانية ، وكنا عندما نعبر عما نريده يعطينا نواب الشعب تأييدهم فيطيع الناس رغباتنا بسعة أفق وحرية ، وعلى الرغم من ذلك لم نحاول مرة مصادرة الحريات وان ظل الناقدون بأنفسهم يرجحون المصلحة القومية على أى شىء آخر . واذا تحدانا النقاد رأينا المجلسين يصوتان ضدهم باغلبية ساحقة ، واذا ما قورن هذا بأساليب الدول الجماعية ، بدا لنا أن برلماننا كان يخولنا هذه السلطة ضد الناقدين بلا أدنى اضطهاد أو كبت أو ايحاء أو استعمال للشرطة وأجهزة الامن السرية ، ولا شك فى ان هذا كان يثير زهونا واعتزازنا ، ويؤكد لنا ان الديمقراطية البرلمانية أو على الاصح مايحق أن نسميه السلوك البريطانى فى الحياة العامة قد استطاع الصمود والانتصار والبقاء ، بالرغم من كل المحن القاسية ولم يستطع التهديد بالابادة وافناء اعضاء برلماننا أن يرهب أحدا ، وكان من حسن الحظ أن هذا التهديد لم ينفذ ، ولم تحدث الابادة .

* * *

وحل منتصف سبتمبر ، ففاجأنا العدو باستعمال نوع جديد ومدمر من وسائل الحرب علينا ، فقد بدأت الطائرات تلقى بقذائف تنفجر بعد مرور بعض الوقت مما وضعنا أمام مشكلة حساسة وغريبة ، وكثيرا ماسارت فى وجوهنا مسافات شاسعة من السكك الحديدية ، فنخترق

الطرقات الهامة ، والسـبل الموصلة للمصـانع الحيوية والمطارات والمؤسسات ، وحظر علينا دخولها فى أوقات احتياجنا اليها ، اذ فرض علينا اولا ان نتعقب هذه القنابل لنفجرها أو نتلفها ، وكانت هذه عملية خطيرة وخاصة فى بداية الأمر ، عندما اضطرونا الى أن نتعلم الوسائل والاساليب بواسطة عمليات من التجارب الموضحة .

وقد تكلمت آنفا عن حكاية الالغـام المغنطة ، اما هذه القذائف المتفجرة تلقائها ، فقد أصبحت منتشرة ، وصارت مشكلة تحتاج الى التفكير ، وقد وجهت اهتمامى الى القنابل المؤقتة منذعام١٩١٨ عندما استعملها الالمان لاول مرةضدنا بصورة شاملةليرغمونا على عدم استخدام القطارات فى زحفنا على المانيا ، وكنت قد اقترحت ان نسـتخدمها فى النروج وقناة كييل ومنطقة الراين ولاشك فى أن هذا السلاح من اكثر أسلحة الحرب فعالية

بالنسبة الى ما يشيعه من التوجس والقلق والارتياب وهكـذا دار الزمن لنذوق نحن طعم هذا السلاح فانشـأنا هيئة خاصـة للتصرف فى شأنه وعهدنا الى مجموعات خاصة شكلت فى كل مدينة وبلدة ومقاطعة يتتبعه وسارع المتطوعون يبذلون جهودهم لمكافحة هذه القنابل ، وتكونت فرق كان بعض منها حسن الحظ وكان للأخرى سوء المصير وقد استطاع رجال من هذه الفرق النجاة من العاقبة الوبيلة لهذا السلاح ، والسلامة الى خاتمة الحرب ، بينما نجا البعض الآخر من التجربة العاشرة او العشرين أو الثـلاثين أو الأربعين قبـل ان يلقوا حتفهم ، وكنت حين أشاهد اعضاء هذه الفرق اينما ذهبت فى رحلاتى وتجولاتى ، أرى وجوههم مغايرة تماما لكل الوجـوه التى اعرفها أو رأيتها ، بالرغم مما يتحلون به من شجاعة وتفان وصبر فعلى هذه الوجوه تبدو واضحة ظلال الشحوب ، ومعالم الاجهاد ، وسماته الضخمة والجهد ، فضلا عن بريق العيون وزرقة الوجوه ، وجفاف الشفاه ، فاذا ما تذكرنا الايام المضنية التى عشـناها ، فيجب ان لا نستعمل كثيرا كلمة « أوقات كئيبة » اذ تكاد الكآبة كلها تخص افراد هذه الفرق وحدهم .

وواجب على هنا ان اسرد ما حدث لاحدى هذه المجـموعات كمثال لما كانت تواجهه سائر المجموعات ، كانت هذه المجموعة تضم اللورد سافولك وسكرتيرته وسائقه العجوز ، وكانوا يسـمون انفسـهم « الثالوث المقدس » وقد شاعت اخبار جرأتهم ، وذاع الكثـير عن شجاعتهم ، وقد استطاعوا أن يتخلصـوا من اربع وثلاثين قنبلة لم تنفجر ، بروح مرحة طيبة ، لكن القنبلة الخامسة والعشرين قد ثارت

لزميلاتها ، فانفجر معها الورد وثالوثه المقدس ، ولكن الايمـان يملأ نفوسنا بأن ارواحهم عرفت مستودعها الامين فى دار الخلود .

وقد توصلنا بفضل اخلاص كل فرد فى هـذه المجـموعات ، وبالتضحيات النبيلة التى بذلوها الى أن نتحكم فى هذا الخطر الجديد .

***

من الشاق علينا أن نعقد مقارنة بين الاختبار القاسى الذى مر به سكان لندن فى شتاء ١٩٤٠ ــ ١٩٤١ ، وبين الاختبارات التى عاناها الالمان فى سنوات الحرب الثلاث الاخيرة ، فقد غدت القنابل اشد هولا والغارات أكثر قسوة ولكن من ناحية ثانية ــ كان الاعداد الطويل ، وما اشتهر عن الالمان من دقة قد ساعدهم على انشاء وحدات كاملة من الملاجىء المحصنة ضد القنابل ، وكان يفرض على كل المانى الالتجاء عند قيام الغارات كعمل عادى رتيب وعندما اخترقنا المانيا فى النهاية شاهدنا منها قد أصبحت بكاملها خرائب واطلالا ولكننا شاهدنا أيضا عمارات مشيدة ما تزال صامدة على الارض وملاجىء حصينة كان السكان ينامون فيها كل ليلة بالرغم من تساقط دورهم وخراب كل ما يملكونه على سـطح الارض ، أما فى لنـدن ، فعلى الرغم من أن الغارات كانت اقل قسوة ، الا ان وسائل التأمين والوقاية كانت أبطأ تطورا ، فاذا استثنينا الاقبية لم نجد عندنا أماكن للوقاية والتأمين ، حقا لقد كان ثمة طوائف أرضية ، وطوابق تحت الارض تستطيع أن تجابه الضربات المباشرة ولكن عددها كان قليلا لدرجة ملحوظة وكانت الغالبية من سكان لندن يمضـون الليل فى الخنادق الخاصة ببيوتهم تحت سيل من قذائف العدو ، مستمتعين بما اشتهر عن الانجليز من حبهم للاسترخاء بعد يوم من العمل المثمر الجاد ولم تكن ثمة أية وسائل للوقاية الا من شظايا القذائف ، لكن الانهيار النفسى لم يكن شيئا بجانب الاحتمال البدنى ، وحقيقة لو كانت قذائف عام ١٩٤٣ قد اسقطت على لندن فى عام ١٩٤٠ لانتهينا الى وضـع قد دمر فيه كل تنظيم بشرى ، ولكن لكل شىء وقته المعين ، ونسبه المحدودة ، وليس يملك انسان القول بأن لندن التى لم تجرب الخضوع قط : كانت محصنة دائمـا ضـد الاستسلام .

ولم تكن الحكومة قد شيدت قبل الحرب او فى الفترة السلبية الاولى التى مرت فى مطلعها ، اية أماكن محصـنة ضد القـنابل ، تستطيع هيئتها المركزية ان تلجأ اليها لمواصلة الاعمال ، فقد درست خطط لتحويل العاصمة عن مدينة لندن ، وفعلا انتقلت فروع بأكملها من جميع الوزارات والدوائر الى هاروغيت وباث وشيلتيفهام وغيرها

واستحوذت السلطات على المساكن الكافية فى مناطق شاسعة لسكنى جميع الوزراء وكبار الموظفين حين الانسحاب من لندن ، أما فى هذه الاونه وطائرات العدو تواصل عدوانها فقد انعقد عزم الحكـومة والبرلمان ورغبتها الاكيدة على البقاء فى لندن دون مناقشـة وكنت اشاركهما نفس هذه المشاعر ، وكنت مثل غيرى يخيل لى ان الدمار سيكون عاما ، بحيث يصير الانتقال وتوزيع الاعمال امرا محتما ، ولكن بالنسبة الى ما حدث بالفعل ، فقد امتلأ بعكس هذا الاحسـاس ، وظللنا فى تلك الاشهر نعقد اجتماعاتنا الوزارية ليلا فى غرفة الحرب فى الطابق الاسفل . ولم اكن اتخيل مدى ما يتحمله المستر تشمبرلين من عناء هذا السير بالنظر الى العملية الجراحية التى اجريت له ، ولكن لم يستطع أى شيء أن يقعد به عن هذه الاجتماعات التى كان يتسم فيها بكثير من الهدوء البارد والتصميم الاكيد والتى كانت آخـر ما شهده من اجتماعات .

ونظرت ذات مساء فى أواخر شهر سبتمبر ١٩٤٠ م من باب دارننغ ستريت الذى يطل على الطريق ، فشـاهدت العمـال يقومون بوضع اكياس من الرمال تجاه النوافذ المنخفضة من بناء وزارة الخارجية المواجهة لنا ، وسألتهم عما يقومون به فقيل لى ان المستر نفيل تشمبرلين فى أمس الحاجة الى العلاج من حين لآخر بعد العملية التى قد أجريت له ، وكان من غير الميسور أن يقوم بهذا العلاج فى ملجأ دوننج ستريت رقم ١١ لان عشرين شخصا على الاقل يتجمعون أثناء قيام الغارات ، ولذلك فقد رؤى تهيئة ملجأ صغير خاص به وظل حريصا على عاداته اليومية ، لابسا خير ثيابه ، باديا غاية فى الاناقة وانسجام الهندام — وكان هـذا كله أكثر مما فى طوقه ولذلك رأيت أن استخدم سلطاتى فذهبت الى الطريق الممتد بين رقمى ١٠ ، ١١ وحين رأيت السـيدة تشمبرلين قلت لهـا : « ينبغى الا يوجـد هنـا فى هـذه الظروف ، ويجب أن تبتعدى به حتى تعاوده الصحة وسأرسل اليه يوميا بالانباء » وذهبت السيدة للقاء زوجها ، وبعد سـاعة أرسلت الى تقول « لقد أبدى استعداده لتنفيذ مشيئتك .. سـنرحل الليلة » ولم التق به ثانية ولكنى على يقين أنه كان يرغب فى الموت اثناء قيامه بواجبه ولكن القدر شاء غير ذلك .

***

ونتيجة لوفاة المستر تشمبرلين حدثت بعض التغيرات الوزارية الهامة ، فقد اظهر المستر هربرت موريسون نشـاطا ملموسـا كوزير للتموين ، كما قابل السير جون اندرسون الهجمات على لنـدن بادارة

فى منتهى الصـمود والكفاية ، وتبين لى فى مطلع اكتوبر ان الهجـوم المتواصل على اعظم مدن العالم كان من القسـوة والعنف بحيث خلف الكثير من المشاكل السياسية والاجتمـاعية لدى أهل المدينـة الذين واجهوا أقسى الظروف ، مما يفرض علينـا أن نعهد الى برلمانى حازم صاحب خبرة وتجربة شئون وزارة الداخليـة التى اصبحت فى تلك الآونة وزارة الامن الداخلى كذلك . فلندن هى التى تعانى قسـوة الغارات ، وهربرت موريسون واحد من أهلها ، وهو عليم بكل جانب من جوانب ادارتها ، وكانت له خبرة لا تبارى فى حكم مدينة لندن ، اذ كان رئيسا فيما سبق لمجلس مقاطعتها ، وكان الشخصية البارزة فى كافة امورها وكنت فى ذات الوقت فى احتياج للسير جون اندرسون ليمثل الحكومة فى مجلس الملك الخص ليقوم كما يملى عليه منصبه الجديد بالاشراف على كثير من الامور الداخلية فى مجال أوسع باعتباره رئيسا للجنة الشئون الداخلية التى يعهد اليها بالكثير من المشـاكل تخفيفا لاعباء مجلس الوزراء . وأتاحت لى هذه التغيرات التى خففت العبء عن كاهلى أن أحشد اهتمامى لتصريف الحرب .. التى تبين لى أن زملائى يميلون الىتوسيع مسئولياتىبشأنها وزيادةاختصاصاتى ولذلك فقد رغبت الى هذين الوزيرين اللامعين أن يحل كل منهما محل الآخر ، ولم يكن ما قدمته لهربرت موريسـون طريقا مفروشا بالورود وليس فى مقدور هذه الصفحات بحال ما أن توضح المصـاعب الجمة فى ادارة لنـدن وحكومتها فى ذلك الوقت الذى كان يمضى فيه عشرة آلاف مواطن او عشرون الفا كل ليلة بدون مأوى نتيجة للهجومالجوى المستمر ، وعندما كانحذر السكان وحرصهم وحده بمثابة حرس أولى يقاوم حدوث حرائق على اسطح المنازل قد يتعـذر القضـاء عليها ، وعندما اكتظت المستشفيات بمشوهى القنابل من الرجال والنسـاء ، وعندما ظل مئات الآلاف من البشر المنهكين يكدسون كل ليلة فى هذه الخنادق التى تحتاج الى الامان والوسائل الصحية ، وعنـدما كانت طرق المواصـلات بالقاطرات وغيرها تغلق باسـتمرار ، وعندما كانت المجارى والقوة الكهربائية والغاز تدمر تدميرا ، وعندما يجب أن تظل ـ بصرف النظر عنكل ذلك ـ روحلندنالمناضلة صامدة غالية،وأنيتيسر نقل حوالى مليون مواطن فى كل يوم ليلا ونهارا من مسـاكنهم الى المصانع وبالعكس، كان يجب علينا كل هذا ولميكن فىمقدورنا أن نعرف مدى هذه المحنة ومتى تنتهى ، ولم يكن لدينا ما يشير الى انها لن تستمر أو لن تزداد سوءا ، وعندما حدثت مستر موريسون عن رغبتى بالنسبة للمهمة الجديدة كان يدرك جيدا ما ينطوى عليه هذا العرض من خطورة ومشاكل فاستمهلنى بضع سـاعات ليفكر ولم يلبث أن

جاءنى قائلا انه سيكون فخورا بالقيام بكل هذه المهام ، وهزنى اعجابا به هذا القرار الذى يدل على كل صفات الرجولة .

وبعد أن تمت هذه التعديلات الوزارية أدى تغيير العدو لوسائله الى أن تتأثر سياستنا العامة ، فقد كانت الغارات حتى الآن تستخدم القنابل الشديدة الانفجار فحسب ولكن فى ليلة ١٥ اكتوبر ، وكان القمر بدرا نزلت بنا أقسى غارات جوية فى ذلك الشهر ، واسقطت الطائرات الالمانية فضلا عن حمولتها المعروفة من القذائف المتفجرة حوالى سبعين الف قذيفة حارقة وكنا حتى هذه الاثناء نبث الشجاعة فى سكان العاصمة ونحثهم على اللجوء للخنادق وقت حدوث الهجوم ، وكنا نفتش عن كل وسيلة ممكنة لتأمين وقايتهم ولكن بعد هذه الليلة اضطررنا أن نطلب اليهم الصعود الى سطوح المساكن بدلا من اللجوء الى الخنادق أثناء الهجوم وكان على وزير الداخلية الجديد ان ينفذ هذه السياسة فأعد على الفور تشكيلا هائلا لمراقبى الحرائق ومقاومتها على مدى واسع يكفى مدينة لندن بكاملها فضلا عن اجراءات أخرى اتخذت من المدن الاقليمية فى أقصر مدة ممكنة وكانت مراقبة الحرائق عملا اختياريا فى أول الامر ، ولكن اشتداد الحاجة لمزيد من الافراد والأحساس بحتمية قيام كل انسان بواجبه فى مثل هذه المحنة القاسية ليشارك فى آلامها ، فرض علينا أن نلزم المواطنين بالمشاركة فى أعمال المكافحة ، وقد أدى ذلك الى مزيد من نشاط كافة المواطنين على جميع الوانهم ومستوياتهم وصممت النساء على المساهمة بقدر حيوى فى هذه الخدمة واتخذت التدبيرات على نطاق واسع للقيام بتدريبات عامة ولتعويد مراقبى الحرائق مكافحة كل انواع القذائف المحرقة التى يسقطها الاعداء ، وقد تفوق الكثيرون فى اداء هذه الخدمة حتى استطاعوا أن يخمدوا الوف الحرائق قبل شبوبها ، وسرعان ماصارت تجربة الصعود الى أسطح المنازل ليلة اثر اخرى تحت وطاة النيران المشتعلة ودن أدنى اجراء وقائى آخر سوى الخوذة النحاسية ؛ أمرا عاديا مألوفا .

ورأى المستر موريسون ان يجمع الفرق المحلية للاطفاء التى يبلغ عددها حوالى الف واربعمائة فرقة فى تشكيل قومى موحد لمقاومة الحرائق وأن يزود هذا التنظيم بحرس شعبى كبير للحرائق من المدنيين المدربين المتطوعين للعمل فى أوقات فراغهم ، وكان حرس الحرائق أول الامر يتألف من المتطوعين ايضا ولكن ما لبث أن تقرر بالاجماع تحويله الى خدمة الزامية ، وقد استطعنا بواسطة الجهاز القومى لمكافحة الحرائق من استخدام النقل الآلى ، واحدث الاجهزة وادق التدريبات فى اعمال رسمية تشرف عليها مجموعة من العسكريين

اما اسلحة الدفاع المدنى الاخرى فقد كانت تضمن وجود مجموعات على استعداد للتوجه الى اى مكان فى خلال دقيقة واحدة وقد اكتفى باسم سلاح الدفاع المدنى عن الاسم القديم الذى عرف قبل الحرب بقوات الاحتياط من الغارات الجوية وزود رجال السلاح الجديد بملابس عسكرية خاصة تبث الشعور فى نفوسهم بأنهم يؤلفون السلاح الرابع من قوات التاج المسلحة .

وقد اغتبطت لأن لندن قد صمدت أمام الموجات المتتالية من الغارات الجوية على مدننا . ان لندن تشبه فيما أرى حيوانا هائلا من حيوانات ما قبل التاريخ فى وسعها أن تتحمل الاذى المخيف ثم تظل رغم جراحها النازفة عتية الصمود تموج بالحياة والحركة ، وقد كثرت خنادق اندرسون فى أحياء الطبقات العاملة المكونة من بيوت ذات طابقين وقد بذلنا كل ما فى وسعنا لتكون هذه الخنادق صالحة للاقامة والحياة ، مع الحرص على تخفيفها من الرطوبة أثناء الامطار .

وقد اغتبطت لان لندن قد صمدت أمام الموجات المتتالية من مائدة مطبخ ثقيلة من الفولاذ محاطة الاضلاع بالاسلاك القوية ، تقدر على أن تقاوم كل ما يتساقط عليها من أنقاض منزل صغير بالتحمل نوعا من الوقاية لاهل ذلك المنزل ولا شك فى أن الكثيرين قد كتبت لهم حياة جديدة بفضل هذا الخندق المبتكر وكان الشعار الشائع على كل لسان « تستطيع لندن أن تصمد » وقد صمد أهل لندن كثيرا وكان فى طاقتهم أن يصمدوا اكثر وأكثر ، وكنا حقيقة فى ذلك الوقت ننتظر شيئا اقل من هدم العاصمة بأكملها ومع ذلك فقد أوضحت لمجلس العموم فى تلك الآونة ان قانون تناقص النتائج يطبق بدقة على المدن الكبيرة التى تجابه الدمار ، فسوف تهوى القنابل كثيرا على مبان دمرت من قبل فلا تصنع شيئا سوى اثارة الغبار ، وسترى الطائرات المهاجمة عما قليل انه لم يبق الكثير الذى يستأهل قذائفها الحارقة والمدمرة ولكن الناس سكان لندن رغم كل ذلك يعيدون انشاء منازلهم هنا وهناك ويمارسون أعمالهم اليومية بارادة فولاذية وعزم لا يفل .

***

وللمرة الاولى منذ حوالى شهرين لم تدو فى الجو صفارة الانذار ليلة ٣ نوفمبر فى لندن فاستغرب الكثيرون جو الهدوء السائد، وبدأوا يتساءلون ما الخبر ؟.. وفى الليلة التالية شنت الغارات على نطاق واسع حتى عمت اكثر الجزر البريطانية وظل هذا بصفة مستمرة الى بعض الوقت واتضح أن الالمان قد جددوا وسائلهم الهجومية، وبالرغم

من ان لندن استمرت كهدف اساسى الا ان جهودا ملحوظة كانت تبذل لتشل العمل فى المراكز الصناعية البريطانية وقد ارسل العدو اسرابا جديدة مدربة على ابتكارات جديدة فى الملاحة الجوية لتهاجم مراكز حساسة فى الجزيرة ، فمثلا تمرنت فرقة خاصة من الطائرات الالمانية على تحطيم مصانع آلات الطائرات «رولزرايس» فى «هيلتنجتون» قرب غلاسجو ، ولا شك فى أن هذه الخطة الجديدة لم تكن تعنى مجرد التغيير فقد قرر العدو تأجيل غزو بريطانيا الى حين ولم يكن قدانتهى من تدبير هجومه على روسيا بعد ، كما لم يفكر فيه أحد غير هتلر وخاصة المقربين ، وهكذا كانت أشهر الشتاء الباقية مجرد فترة تمرينات بالنسبة لسلاح الجو الالمانى على التكتيكات الجديدة فى الهجوم الليلى والاغارة على التجارة البحرية فى بريطانيا اما الغاية من ذلك فهى تدمير انتاجنا المدنى والعسكرى ، وكان اجدى للالمان لو ظلوا على هجومهم فى ناحية واحدة حتى آخر الشوط فربما وصلوا الى نتيجة حاسمة ولكن الحيرة والتردد كانا طابعهم فى ذلك الوقت لأن ثقتهم بأنفسهم كانت غير كاملة .

وبدأت هذه الوسائل الجديدة فى الهجوم ، بغارة جوية عارمة على كوفنترى ليلة ١٤ نوفمبر ، وقد اتضح لغورنج أن مدينة لندن شاسعة الابعاد الى الدرجة التى لا تتيح له نتائج فاصلة ، بينما كان فى مقدوره أن يزيل من الوجود مدن الاقاليم ومراكز انتاج الذخيرة ، وقد بدأ الهجوم فى الساعات الاولى من الليل وتواصل حتى الفجر واشترك فيه حوالى خمسمائة طائرة المانية اسقطت حوالى ستمائة طن من القذائف الشديدة الانفجار عدا الوف القنابل المحرقة وكانت تلك الغارة أقسى ما دهمنا من غارات ثقيلة مدمرة بصورة عامة ، فقد تحطم قلب كوفنترى ، واصيبت الحياة بالشلل التام فى المدينة وقد قتل حوالى اربعمائة انسان ، كما اصيب بجراح عدد أضخم من هذا بكثير واذاعت المانيا ان جميع مدننا ستلقى نفس مصير كوفنترى ، ومع هذا فلم يعطل العمل بمصانع الطائرات أو قطع الماكينات الاخرى كما لم تمت حركة اهل المدينة بالرغم من عدم [illegible]ابهتهم قبل ذلك لمثل هذه الغارات ولم يمر اسبوع حتى كانت لجنة تجديد الابنية قد قامت بأعمال رائعة تيسر عودة الحياة الى طبيعتها فى المدينة .

وشن العدو ليلة ١٥ نوفمبر هجوما آخر على لندن استخدم فيه عددا ضخما من الطائرات فى ضوء القمر الساطع فأصيبت العاصمة بكثير من الخسائر وخاصة فى كنائسها ونصبها التذكارية وكانت بيرمنجهم هدف العدو الثالث فشن عليها هجومه لثلاث ليال متتابعة

بين ١٩ ، ٢٢ نوفمبر فأصيبت المدينة بخسائر فادحة فى الارواح والممتلكات ، ووصل عدد القتلى الى حوالى ثمانية والجرحى إلى اكثر من الفين ولكن روح بيرمنجهام وحياتها قاومتا المحنة ، وارتفع المليون من اهلها بتنظيمهم ووعيهم وتفهمهم الى اعلى مما نزل بهم من آلام وتحولت وجهة الغارات فى آخر اسبوع من شهر نوفمبر ومطلع ديسمبر الى الموانىء وتعرضت بريستول وسوثهامبتون وليفربول لهجمات قاسية ، ومرت بلايموث وشفيلد ومانشستر وليدز وغلاسجو بالمحنة ذاتها بشجاعة نادرة ولم يعد يعنينا أن يوجه العدو ضربته فان الشعب كله واجهها بايمان وصبر وعزيمة .

وصعدت الغارات الى ذروتها مرة ثانية حين شن العدو هجومه على مدينة لندن يوم الاحد ٢٩ ديسمبر ، وقد جمع الألمان فيها كل ما حصلوه من خبرات فكان الهجوم مفعما بالقذائف المحرقة ، التى ركزت قسوة نيرانها على حى « السيتى » وكانت هذه الغارة مدبرة لتقع حين ينحسر الماء عن النهر بسبب الجزر ، وتهدمت سدود المياه فى بداية الأمر بسبب الغام شديدة الانفجار ، اسقطتها المظلات ، واضطرت فرق المقاومة أن تكافح أكثر من ألف وخمسمائة حريق ، وكان الضرر الذى اصيبت به محطات السكة الجديدة والأرصفة فادحا ، وهدمت ثمانى كنائس وشبت الحرائق فى «غيلدهول» وفى كاتدرائية القديس بولس ، ولم تنج من الدمار الا بجهود خارقة تفوق حد الوصف ، وأخذنا نرى الخراب يجتاح العالم البريطانى ولكن عندما زار الملك والملكة هذه الأماكن المصابة قوبلا بحماس بالغ اشد مما كانا يقابلان به فى اية زيارات اخرى .

وظل الملك صامدا فى غضون هذه الأشهر الطويلة من التجربة القاسية والتى لم تنته بعد فى قصر بكنجهام ، وقد شيدنا خنادق ملائمة فى الطابق الاسفل من القصر ، ولكن اعمال البناء استلزمت الكثير من الوقت ، وكثيرا ما حضر الملك خلال اشتداد الغارة من قصر بكنجهام ، وقد انقذ جلالته والملكة باعجوبة من الموت ذات مرة ، ففى حديقة قصر بكنجهام انشىء ميدان خاص للرماية ، كان جلالته وغيره من أفراد الأسرة المالكة ، وكبار رجال الحاشية يتدربون على الرماية فيه بالمسدسات ومدافع التومى ، وقد قدمت للملك غدارة امريكية قصيرة المدى ، كانت واحدة من مجموعة وصلتنى ، وكان سلاحا قيما .

وبدل الملك فى تلك الاثناء موعد لقائى الرسمى بجلالته من الساعة الخامسة مساء كل يوم ثلاثاء ، كما جرت عادته فى خلال الشهرين الاولين منذ توليت الحكم ، الى أن اتناول الغداء معه فى نفس اليوم

من كل اسبوع . وكنت فى هـذه الزيارات التى قد تحضرها الملكة ، اعرض على جلالته شـئون الحكم ، وكثيرا ما اضطررنا الى حمل صحاف الطعام واقداح الشرب الى الخندق الذى كان لا يزال فى حالة الاعداد فنستكمل طعامنا فيه ، واصبحت هذه الزيارات الاسـبوعية عادة رتيبة ، وبعد مرور الأشهر الأولى ، أمر جلالته ان يبعد الخدم جميعا من هذه الاجتماعات وان نمارس نحن خدمة أنفسنا بأنفسنا ؛ وقد تكشف لى خلال السنوات الاربع والنصف التالية من الحـرب ان جلالته كان يطلع بكثير من الاهتمام على جميع البرقيات والوثائق الرسـمية التى أقدمها اليه ، ويقرر العرف الدسـتورى البريطانى أن من حق الملك أن يطلع على كل شىء يقع ضمن اختصاصات وزرائه ، وان يقدم المشورة لحكومته بدون قيد ولا شرط ، وكنت حريصا جدا على أن أطلعه على كل شىء وكثيرا ما بدا لى خلال اجتماعاتنا الرسمية الأسبوعية انه قد قام بدراسة كافة الوثائق التى لم اكن قد درست بعضها بعد ، واننى لأقرر أن من يمن الطالع لبريطانيا ان كان على عرشها فى مثل هذه السنوات المصيرية ملكان خيران كملكنا ومليكتنا ، وانى كواحد من الذين يؤمنون بالملكية الدستورية، نظرت ببالغ التقدير الى الشرف الذى اسبغه على صاحب الجلالة بهذه الصـلات التى وثق عراها معى كوزيره الأول ، واننى لا أرى لذلك نظيرا فى تاريخنا الا فى ايام الملكة آن ورئيس حكومتها مارلبورو .

وهكذا بلغ بنا العام الى نهايته ... ، وان كنت قد استطردت ـ راغبا ـ بعيدا عن شئون القتال الخاصة ، وسيرى القارىء أن كل هـذا الدوى وتلك الزعازع لم تكن الا رفيقا على الطريق يسـير مع اجراءاتنا الهادئة التى حرصنا عليها فى ادارة جهودنا الحربية ، وتوجيه سياستنا ودبلوماسيتنا ، وعلى أن أقرر هنا أن هذه الخسـائر التى منينا بها والتى لم تكن مميتة ، كانت فى اعتبارنا نحن القيمين فى قمة الموقف دافعا فعالا للتعبير عن آرائنا ، وتوطيد زمالة بارة بيننا وتدعيم أسس اعمالنا الجوهرية الواعية ، وربما يكون من غير الحكمة على كل حال أن أفترض بأن الغارات التى شنت علينـا لو تزايدت الى عشرة أو عشرين ضعفا أو حتى بنسبة ضعفين أو ثلاثة فان هذه الانطباعات السلمية التى فصلتها ، كانت ستوجد بصـورة مؤكدة ، وعلى النحو الذى أوضحت .

الأعارة والتأجير

اطل علينا الآن فجر جديد ، وصليل الأسلحة يملأ الجو لكن مصدره هذه المرة كان مختلفا عما سبق فقد دارت الانتخابات الامريكية للرئاسة فى ٥ نوفمبر ، وبالرغم مما تتسم به من حيوية وصلابة تلك المصارعة الحادة التى تحدث مرة كل اربع سنوات ، وعلى الرغم مما يثار من اختلافات شديدة حول الشئون الداخلية بين الحزبين الرئيسيين ؟ الا أن كبار الزعماء فى كل من الحزب الديمقراطى والجمهورى كانوا يجمعون على تقدير قضيتنا العظمى ، والاهتمام بها ، فاعلن المستر روزفلت فى ٢ نوفمبر بمدينة كليفلاند ، أن سياسته تؤمن ببذل كل مساعدة فعالة للشعوب التى ما زالت تكافح العدوان عبر المحيطين الأطلنطى والهادى » ، كما صرح منافسه المستر ويندل ويلكى فى نفس اليوم فى خطاب القاه بحديقة ماديسون « بأنهم جميعا جمهوريين وديمقراطيين ومستقلين ، مصممون على مؤازرة المقاومة البريطانية الباسلة وانهم يتعهدون للشعب البريطانى بأن يستخدم متى شاء ثمار صناعتهم » . ولا شك فى أن هذا الشعور الوطنى النبيل كان الحامى المخلص لحياة الولايات المتحدة وحياتنا نحن ايضا .

ومع ذلك فقد كنت أحس بالقلق العظيم ، وانا اترقب النتيجة ، فليس فى مقدور كل من يتولى منصب الرئاسة ، أن يكون مسلحا بالخبرة والمعرفة كما يتمتع بهما فرانكلين روزفلت ، وليس فى مقدور اى شخص سواه ، ان يحوز نفس المواهب والكفايات ، وكنت قد وثقت علاقتى الشخصية به ، وحافظت على تنميتها ورايت انها قد بلغت أسمى مراتب الثقة والصداقة ، الى الدرجة التى أصبحت بها ذات أهمية فى تفكيرى ، وكنت لهذا أحس بالقلق ازاء كل ما يهدد هذه الزمالة ، وقد تم توطيدها بعناية وعلى مهل ، وانفر من فكرة قطع هذا الاتصال فى أحاديثنا ومباحثاتنا لأبدأ من جديد مع شخص آخر صاحب عقلية وشخصية مختلفين ، ولم أحس منذ أيام بمثل ما أحس به الآن من قلق ، ولذلك فقد كانت غبطتى عظيمة عندما علمت أن الرئيس روزفلت قد أعيد انتخابه .

***

وكنا حتى تلك الساعة نلجأ فيما نحتاجه من الذخيرة للمصانع

الامريكية بحرية وجوية ، وان كان ذلك يتم بعد التفاوض معها .

وادت زيادة رغباتنا وتعدد مطالبنا الى التناقض احيانا مزاحمة الرغبات الامريكية ذاتها مما كان ينذر بحدوث اصطدام على المستويات الخفيضة بالرغم من توافر حسن النية لدى الطرفين وكتب المستر ستيتينيوس يقول :

« ان فى امكان سياسة موحدة من اجل تحقيق غايات المقاومة ان تؤدى اغراض هذه المهمة التى تواجهنا الآن » . ومعنى هـذا ان لحكومة امريكا أن توصى وحدها بصنع الاسلحة التى نحتاجها من أمريكا وخرج الرئيس روزفلت بعد توليه الرئاسة بثلاثة أيام بنظرية جديدة تقرر الافضليـة فى توزيع انتاج الاسلحة الامريكيـة ، على أن يكون خمسون فى المائة من انتاج أمريكا للاسلحة مخصصا لاحتياجات أمريكا الدفاعية ، وخمسون فى المائة للقوات ــ البريطانية والكندية . واصدر مجلس الأفضلية الامريكى فى نفس اليوم موافقته على رغبة بريطانيـا فى اعداد اثنى عشر الف طائرة فى الولايات المتحدة فضـلا عن رغبتنا السابقة فى احد عشر الف طائرة اخرى ، ولكن من أين نأتى بالاموال الضرورية لنغطى ثمن الاسلحة التى نحتاجها من المصانع الأمريكية ؟

وامضى اللورد لوثيان فى أواسط نوفمبر يومين فى ديتشـلى معى ، وكان قد ركب الطائرة من مقر عمله فى واشـنطن الى الوطن ، وكنت قد استمعت الى نصيحة بأن لا امضى فى تشيكرز جميع نهايات الاسابيع ، خصوصا عندما يكون القمر بدرا ، خشـية ان يعطف على العدو بلطفه الخاص ، وكان السيد رونالد ترى وزوجته قد استقبلانى احسن استقبال ، أنا وموظفى ، فى بيتهما الكبير الجميل الذى يقع على مقربة من اوكسفورد ولا تزيد المسافة على أربعة او خمسة اميـال بين ديتشلى وبلنهايم ، وهكذا التقيت بسفيرنا فى واشنطن فى هذا الجـو الآمن ، وكان يعرف شتى جوانب الموقف الامريكى ولم يكن قد حصل على شىء سوى النية والثقة من واشنطن ، وكان قد اتصل منذ قليـل بالرئيس الذى توثقت بينهما أطيب العلاقات ، وكان فكره مشـغولا بمسالة الدولار ، وهى مسالة كئيبة بلا شك .

فعندما خاضت بريطانيا غمار الحرب ، كان فى حوزتهما حـوالى ٤٥٠٠ مليون دولار اما على صورة دولار بالفعل ، أو ذهب أو استثمارات امريكية من المستطاع ان تتحول الى دولارات ، وكانت الوسيلة الوحيدة المستطاعة لتزيد هذه الموجودات ، هى التوسع فى استخراج الذهب فى الامبراطورية البريطانية وخاصة فى جنوب افريقيا . وبذل كافة السبل لزيادة الصادرات الى أمريكا وخاصة الكماليات كالويسكى والمنسوجات

الصوفية الرائعة ، والخزف وقد استطعنا بهذه الوسيلة زيادة حصيلتنا بحوالى الفى مليون دولار فى خلال ستة عشر شهرا منذ بداية الحرب، وكنا فى فترة « شفق الحرب » تتجاذبنا الحيرة بين حاجة ملحة الى العتاد من امريكا ، وبين فزعنا من نقصـــان دولاراتنا الموجودة لدى امريكا ، وكان السير جون سيمون وزير المـــالية فى حكومة المستر تشمبرلين يتحدث كثيرا عن المصير المؤسف لارصـــدتنا الدولارية ، ويوجه انظارنا الى ضرورة الحرص عليها ، وكنا على اية حال متفقين على ضرورة الحد من مشترياتنا الامريكية بقدر المستطاع ، وكنا نبدو كمـــا قال مرة المستر بوفيز ، رئيس لجنـــة المشتريات المستر ستيتينوس « وكأننا نحيا فى جزيرة منقطعة بكمية محدودة من الطعام الذى تحاول الابقاء عليه أطول مدة ممكنة » .

وكان يقصد بهذا اعداد ترتيبات واسعة المدى لزيادة اموالنا ، وكنا قبل الحرب نمارس حريتنا فى الاستيراد ، وندفع بالعملة التى نريد ، وعندما قامت الحرب اضطررنا ان نوجد هيئة لتعبئة الرصيد الخاص من الذهب والدولار والنقد الاجنبى ، وأن نقف دون تحقيق رغبات ذوى النوايا المنحرفة فى تحويل رأسمالهم الى البـــلاد التى يحسون انها اكثر امنا من بلادهم ، وأن نقلل من قيمة الواردات غير الضرورية وغير ذلك من وسائل الانفاق الاخرى ، وفضلا عن عزمنا على الابقاء على اموالنا ، كان علينا ان نضمن استمرار الاخرين فى قبول عملتنا ، وكانت بلاد الكتلة الاسترلينية معنا فهى تحتم سياسة الاشراف ذاتها على النقد التى تحتمها ، وهى تريد التعامل الدائم بالاسترلينى ، وقمنا بابرام عقود خاصة مع الاخرين تلزم بأن ندفع لهم بالاسترلينى الذى يقدرون على التعامل به فى أى مكان داخـــل حدود الـــكتلة الاسترلينية ، كما ضمنوا الابقاء على فائض الاسترلينى لديهم ، وأن يحرصوا فى مبادلاتهم على السعر الرسمى للنقد ، وكانت أولى العقود التى ابرمت على هذه الشروط مع السويد والارجنتين ، ثم مالبثت أن اتسع نطاقها فشملت بلادا اخرى فى القارة وفى جنوب امريكا ، وقـــد تم تنسيق هذه الخطة بعد ربيع عام ١٩٤٠ ، ولاشك فى أن مما هو جدير بالثناء وباطراء الاسترلينى نفسه اننا استطعنا الابقاء عليـــه فى مثل هذه الظروف القاسية ، وقد قدرنا بهذه الوسيلة على الاستمرار فى معاملاتنا التجارية مع غالبية البلاد فى العالم بالاسترلينى ، وأن نبقى على مالدينا من دولار وذهب ثمين لمعاملاتنا الحيوية مع امريكا .

وعندما اصبحت الحرب واقعا مرعبا فى مايو ١٩٤٠ ، أدركنـــا على الفور اننا نشهد ميلاد حياة جديدة للعلاقات الانجليزية الامريكية،

فمنذ أن توليت تاليف الوزارة ، وعد الى السير كنغزلي بوزارةالمالية ، بدانا نسير فى طرق اكثر يسرا ، وهى أن توصى باحتياجاتنا ورغباتنا بغض النظر عن المصاعب المالية المقبلة ، تاركين للآلهة الخالدة ان تتولاها بعنايتها ، ولقد كان من الزيف فى شئون الاقتصاد ومن الخداع بالنظر للروية والعقل ان نترك الفرصة للقلق ونحن نواجه معركة حياة أو موت ، منفردين ، لا نصير لنا ولا معين ونقع تحت وطأة هجوم جوى مستمر ، ونتعرض لاهوال غزو يذيقنا من ويلاته : ان نترك الفرصة للقلق يستولى علينامن جراءنفاد أرصدتنا الدولارية لدى أمريكا ، وكنا قد شعرنا بالتحول الكبير فى الرأى العام الامريكى وشعرنا بالادراك الجديد الذى سرى لافى واشنطن وحدها بل فى جميع أرجاء الولايات المتحدة ، بأن مصير أمريكا وثيق الصلة بمصيرنا نحن ، وفضلا عن هذا فقد سرى تيار من العطف والاعجاب ببريطانيا بين صفوف الشعب الامريكى ووصلتنا برقيات مودة من واشنطن مباشرة، وعن طريق كندا ، لمسنا فى غضونها التشجيع والمؤازرة ، والاحساس بأن شيئا مافى الافق ، سيتحقق عن قريب ولقيت قضية الحلفاء فى المستر مورغنتا ووزير الخزانة الامريكية نصيرها وحاميها الذى لا يكل من الذود عنها ، وبسبب ورود الطلبات الفرنسية الينا فى شهر يونيو تضاعف معدل اتفاقنا فى النقد الاجنبى ، زيادة على ذلك اننا رغبنا من جديد فى صنع طائرات ودبابات وسفن تجارية من مختلف الانواع . وحثثنا على انشاء مصانع ضخمة جديدة فى أمريكا وكندا .

والى شهر نوفمبر قد قمنا بدفع الثمن لكل ماوصلنا من أمريكا وكنا قد بعنا ما قيمته (٣٣٥) مليون دولار من السندات والاسهم الامريكية التى قمنا بمصادرتها من ذويها فى لندن مقابل الدفع بالاسترلينى ، وكنا قد قمنا ايضا بدفع مايزيد على (٤٥٠٠) مليون دولار نقدا ، وأصبح كل ما لدينا الفى مليون معظمها فى صورة استثمارات غير قابلة للبيع الفورى فى الاسواق ، وظهر أن ليس فى وسعنا أن نسير على هذا المنوال ، لأننا انفقنا كل مافى حوزتنا من الذهب والنقد الاجنبى فلن نستطيع أن ندفع الثمن لنصف احتياجاتنا من المصانع الامريكية ، فكيف يكون الامر والحقيقة أن امتداد زمن الحرب وشمولها يضطرنا الى أن نحتاج من المصانع الامريكية عشرة أضعاف ما احتجنا اليه الان . وعلينا فضلا عن كل هذا أن نبقى على شىء فى ايدينا لنواجه به مطالبنا اليومية المتجددة .

وكان لوثيان واثقا من أن الرئيس ومستشاريه يفكرون جديا فى خير الوسائل لمعاونتنا ، اما وقد انتهت المعركة الانتخابية ، فقد دقت ساعة العمل ، وكانت المباحثات دائمة فى واشنطن بين ممثل

لوزارة حربيتنا هناك ـ السير فريد ريك فيلبس ـ وبين المستر مورغنتاو ، ورغب الى سفيرنا فى أن احرر رسالة مفصلة للرئيس توضح كل أوضاعنا ، وهكذا كتبت بالمشاورة معه فى ذلك اليوم ، الاحد فى ديتشلى ، رسالة خاصة الى الرئيس روزفلت ، ولما كان ينبغى عرض هذه الرسالة على رؤساء أركان الحرب ، ووزارة الخزانة لدراستها ، ثم توافق عليها وزارة الحرب فانها لم تكن معدة للارسال قبل رجوع لوثيان الى واشنطن ، وتمت الرسالة فى صورتها الاخيرة ، ثم أرسلت بتاريخ ٨ ديسمبر الى المستر روزفلت فورا ، فانتهت ـ وهى من أهم ماأحرزته فى حياتى ـ الى صـديقنا العظيم وهو يمخر عباب البحر الكاريبى على ظهر البارجة الامريكية « توسكالوزا » مع أصـدقائه وخاصته ، وابلغنى هارى هوبكنز ، بعد ذلك وكنت لم أتعرف به بعد أن الرئيس قرأ الرسالة مرارا على ظهر البارجة وهـو جالس على مقعده ، وانه امضى يومين فى دراستها ، الى أن وضحت امامه مراميها لقد ظل فى أحضان تفكير عميق ، يتمتم لنفسه فى صمت

ونتج عن كل هذا قرار عظيم ، فالقضية لم تكن عدم معرفة من الرئيس لحقيقة مانريد ، وانما كانت فى أى الوسائل يجب أن يسلكها لتؤمن بلاده بالمسير معنا ، وليقتنع الكونجرس بضرورة مايرى ، ويقول ستيتينيوس أن الرئيس كان فى أخريات الصيف الماضى قد رأى فى احدى جلسات لجنة الدفاع الاستشارية فى موضوع الموارد الملاحية أن ليس من المحتم ان يبذل البريطانيون أموالهم ، وليس من المحتم ايضا أن يستدينوا منا لهذا الغرض ، ولكن ـ مع انه لا يوجد مايحـول دون تنفيذ كل ذلك ـ فى مقدورنا أن نأخذ الباخرة التى تم صنعها ، وأن نؤجرها لهم أثناء استخدامهم لها » .

ويظهر انه كان هناك قانون صـدر فى عام ١٨٩٢ ، يدع لوزير الحربية حرية تأجير ممتلكات الجيش مادام يرى ، ذلك مصلحة عامـة شرط الا يـكون الجيش فى احتياج اليها مدة خمس سنوات وكانت هناك حالات طبق الجيش فيها هذا القانون ، وأجر بعض ممتلكاته من حين لاخر .

وهكذا انبثقت فكرة « التأجير » فى ذهن الرئيس روزفلت لتأمين حتياجات بريطانيا ، بدلا من تقديم قروض غير محدودة ، ربماتتضاعف لى درجة يصعب معها الدفع والتسديد ، وسرعان ماانتقلت الفـكرة ن المجال النظرى الى المجال العملى ، وظهرت فى هذا الزى الخلاب لذى أعلن فورا وهو الاعارة والتأجير .

وعاد الرئيس من رحلته فى البحر الكاريبى فى ١٦ ديسمبر ،وأدلى

بمشروعه العميق فى مؤتمر صحفى عقد فى اليوم التالى ، وقد أوضحه فى بساطة عندما قال : « لنفرض أن منزل جارى قد شب فيه حريق ، وكنت أملك فى حديقتى خرطوما طويلا يبلغ اربعمائة قدم او خمسمائة ، وكان فى استطاعة جارى اذا منحته خرطومى أن يوصله بصنبور مياهه ويتغلب على النار المشبوبة ، فماذا ترون واجبى فى ذلك الحين ؟ اننى لا اخاطبه قائلا فى مثل هذه الظروف : اسمع ياجارى ، لقد كلفنى هذا الخرطوم خمسة عشر دولارا وعليك أن تدفع ثمنه أولا .. كلا .. اننى لن أفعل ذلك ، وانما سأقول له .. أنا لا أريد الخمسة عشر دولارا ولكننى أريد خرطومى بعد أن تخمد الحريق « .. واستطرد قائلا : لاريب عند أى امريكى فى أن أفضل سبل الدفاع العاجل عن أمريكا،هى ان تنتصر بريطانيا فى الدفاع عن نفسها ، ولذلك ــ فضلا عن مصلحتنا التاريخية والحاضرة فى المحافظة على الديمقراطية كشىء جوهرى ــ فان فى غاية الاهمية ــ من الناحية الذاتية أيضا ــ وبالنسبة للدفاع الامريكى ان نبذل كل مانستطيع لمعاونة بريطانيا فى الدفاع عن نفسها .. « ثم ختم كلمته قائلا : اننى أحاول أن أمحو حاجز الدولار » .

وعلى هذه الاضواء ، تم اعداد مشروع الاعارة والتأجير عاجلا ليعرض على الكونجرس ، وقد وصفت هذا الجهد فيما بعد أمام البرلمان فى احد البيانات قائلا : « أكرم عمل قام به اى شعب فى التاريخ » وفى الوقت الذى تمت فيه موافقة الكونجرس على هذا القانون ، تغير الوضع كاملا بصورة عاجلة ، فقد اعطانا القانون الحرية فى أن نبرم الصفقات الضخمة بكافة احتياجاتنا تحت رعاية اتفاق الاعارة والتأجير

ولم ينص على اعادة الدفع ، كما لم يكن ثمة حساب رسمى يسجل بالدولار أو الاسترلينى ، فكل مانحتاج اليه يأتينا بالاجارة او الاعارة ، لان مقاومتنا المتصلة لجبروت هتلر ، اعتبرت اعمالا دفاعية عن مصالح الولايات المتحدة ، فقد قال الرئيس روزفلت أن الدفاع عن أمريكا لا الدولار هو الذى سيعين منذ الان المكان الذى ستتوجه اليه الاسلحة الامريكية .

***

وامتدت يد الموت فى تلك الساعة الحاسمة الى اللورد فيليب لوتيان ، فانتزعته من بين جماعتنا ، بعد رجوعه الى وشنطن حيث تسلط عليه المرض بصورة غير متوقعة ، ولكنه ادى واجبه حتى النهاية وبدون أدنى توقف ، وتوفى فى ١٢ ديسمبر وهو كدبلوماسى مرموق فى قمة نجاحه ، فكان موته خسارة لوطنه وللقضية كلها ، ودمعت عليه

عيون الاصدقاء فى جانبى المحيط ، أما أنا وكنت قبل اسبوعين وثيق الصلة به ، كما ذكرت قبل ذلك بقليل ، فقد كانت وفاته صدمة شخصية لى ، وقد أبنته بخطاب فى مجلس العموم أعظم تأبين ذاكرا له بثناء جم جهوده ومسيرته .

وكان على أن أوجه اهتمامى فورا لمن يخلفه ، وادركت أن ـ علاقاتنا بأمريكا فى تلك الفترة فى حاجة الى أن يكون سفيرنا اليهـا شخصية بارزة متمتعة بسمعة قوية خاصة ، فضلا عن الكفاءات التى ينبغى أن يكون حائزا لها سياسى مطلع على كافة شئون العـالم ، وبعد أن ضمنت موافقة الرئيس روزفلت على وجهة نظرى رغبت الى المستر لويد جورج فى أن يقوم بمهام هذا المنصب ، وكان المستر لويد جورج قد اعتذر عن تولى منصب فى وزارة الحرب فى يوليو الماضى كمـا كانت ظروف سـيئة فى السـياسة البريطانية الداخلية ، وكانت آراؤه فى الحرب والاحداث التى ادت اليها تخالف ما أراه ، وبالرغم من ذلك لم يكن هناك شك فى انه المع رجل فى وطننا ، وفى أن كفاياته وخبراته التى لا نظير لها ستساعده كلها على حمل اعبائه ، وقد تحدثت اليه طـويلا فى غرفة الحرب فى اليوم التالى حول مائدة الغداء ، واستخفه السرور بهذا التكليف فقال : « اننى سأخبر أصدقائى بأن رئيس الوزراء عرض على عروضا مشرفة ، ولكنه كان على ثقة من ان رجـلا فى السـابعة والسبعين مثله ، ليس فى وسعه القيام بالتبعـات الجسام التى يعنيها هذا المنصب ، وبعد محادثات متواصلة معه اتضح لى ان الرجل قد أوهنته الشيخوخة لاسيما فى الاشهر الاخيرة منذ دعوته للاشتراك فى وزارة الحرب ، لذلك تنحيت عن اختيارى الأول ـ عن يقين يشوبه كثير من الاسف .

وتنبهت الى اللورد هاليفاكس ، صاحب المقام الرفيع فى حـزب المحافظين والمكانة التى دعمتها اعماله فى وزارة الخارجية ، ولاشك فى أن توجه وزير الخارجية الى منصب سفارى يعنى أهمية خاصة لهذه البعثة الدبلوماسية التى تحظى برئاسته ، وبالاضافة الى هذا المغـزى فان أعماله فى سنوات ماقبل الحرب،والاسلوب الذى سارت به الاحداث فى تلك الفترة قد وضعاه موضع عدم الاستلطاف بل العداء أحيـانا من جانب العمال فى حكومتنا القومية ، وكنت اعرف أن اللورد يدرك هذا جيدا .

وعندما عرضت الامر عليه ، الذى لم يكن بالطبع يعنى أى ترقية ذاتية اكتفى بكلمة بسيطة متعالية تعبر عن استعداده للخدمة حيث تكون خدماته نافعة ومحتمة ، وتأكيدا منى لاهمية بعثته وواجبـاته ،

رتبت الامور على أن يباشر عمله كعضو فى وزارة الحرب عندما يعود فى اى اجازة الى الوطن وقد نجحت فى هذا دون صعوبات بفضل ماتنطوى عليه نفوس الشخصيات التى تناولها هذا الترتيب من ذكاء وخبرة وكفاية .

ومكث اللورد هاليفاكس يعمل فى ظل الحكومة القومية الائتلافية وخليفتها الحكومة العمالية الاشتراكية كسفير فى واشنطن مدى ست سنوات ، فى نجاح مستمر لما يقوم به من أعمال ، ونفوذ تتضاعف يوما بعد يوم .

وقد اغتبط الرئيس روزفلت والمستر هل ، وغيرهما من شخصيات واشنطن البـــارزة ، بتعيين اللورد هاليفاكس ، وسرعان ماعرفت أن الرئيس قد استحسنه عن اختيارى الاول ، وبذلك صـادف التعيين الجديد رضى وترحيبا فى كل من أمريكا وبريطانيا ، واعتبر منسجما مع روح الاحداث الجارية .

ولم اكن على حيرة من أمرى فى الشخص الذى سيخلف اللورد هاليفاكس فى وزارة الخارجية فقد ظللت طيلة السنوات الاربع الماضية كما أوضحت ذلك فى الصفحات السابقة متفقا اتفاقا تاما بالنسبة للقضايا الرئيسية مع أنتونى ايدن .

وقد بينت مشاعر القلق فى نفسى عندما تنحى عن صحبة المستر تشمبرلين بعد فى ربيع عام ١٩٣٨ وكنا قد امتنعنا معا عن التصويت على اتفاق ميونيخ ، ووقفنا معا نقاوم الضغط الحزبى الذى تعـرض له كل منا فى دائرته الانتخابية فى شتاء تلك السنة المؤسفة ، وقد التقينا معا عقلا ووجدانا عند اعلان الحرب وفى خلال مسيرها ، كزميلين، وكان ايدن قد خصص الجزء الاكبر من حياته العامة لدراسة الشئون العالمية، وتولى منصب وزير الخارجية المرموق فملأه عن كفاية ومقدرة، واستقال منه وهو فى الثانية والاربعين من عمره لأســباب اذا نظرنا اليها الان بمنظار الحقيقة فسوف تنال تأييد جميع الاحزاب ، وقد قام بدور فعال كوزير للحربية فى تلك السنة الرهيبة ، وكان تصريفه لشئون الجيش ، قد قرب كلامنا للاخر ، فكنا نتشابه فى التفكير ، حتى بدون استشارة أو عرض لوجهات النظر ، فى كثير من المسائل العملية ، التى نقابلهـا يوميا ، وكنت بدورى أطمح فى زمالة فياضة بالانسجام والتوافق بين رئيس الوزراء ووزير الخارجية ، وقد جنيت ثمار هذه الرغبة ، فى خلال السنوات الاربع والنصف التالية ، المليئة بأعمال الحرب والسياسة ، وقد اسف ايدن حينما ترك وزارة الحربية التى كان قد دار فى دوامة متاعبها واستشاراتها ، ولكنه عاد الى وزارة الخارجية ، وكأنه رجل يعود الى بيته

انتصار الصحراء

عقدت الهدنة مع فرنســا ، وحدث ما حدث فى وهران وانتهت صلتنا الدبلوماسية بفيشى التى انتقلت اليها حكومة المارشال بيتان ، ولكن على الرغم من كل ذلك بقى لى الايمان بوحدتنا مع فرنسا ، وانى لاهيب بالرجال الذين لم يواجهوا المحن الشخصية التى دهمت رجال فرنســا البــارزين بالنظر الى الدمار المخيف الذى حل ببلادهم ، أن يترفقوا فى اصدار حكمهم على هؤلاء الرجال .

وليس من خطة هذا الكتاب ان يخــوض مجاهيل الســياســة الفرنسية ، ولكننى اقرر اننى كنت مليئا بالثقة من ان الشعبالفرنسى لن يتوانى عن التضحية بكل ما يستطيع فى ســبيل هدفنــا المشترك على ضوء الحقيقة التى تبين له ، فعندما سمع هذا الشعب ان سبيل خلاصه الوحيد ينحصر فى الانقياد لمشورة المارشال المشــهور ، وان انجلترا لم تبذل فى سبيله الكثير ، ستحتل عاجلا او تستسلم لم ير امامه مجــالا للاختيار ، ومع ذلك فقد كنت على يقين من ان جمــوع الشعب الفرنسى ترجو لنا النصر ، وأن اكثر سرورها أن ترى بريطانيا ماضية فى القتال دون هــوادة وكان أول واجب علينــا ان نؤازر بما استطعنا كفاح الجنرال ديجول ، ودفاعه الباسل وابرمت معه فى ٧ أغسطس اتفاقية عســكرية ، تضمنت شــتى الاحتياجات العاجلة ، وتوجهت الاذاعة البريطانية بنداءاته الثائرة الى فرنسا والى العــالم كله وكان اصدار حكومة بيتان حكم الاعدام عليه ، بمثابة تمجيد لاسمه، ورفع لشأنه وقد قمنا بكل مانملك لمساندته ، وتوفير الأموال لحركته.

وكان الابقاء على اتصالنا بفرنسا ، بل بفيشى أيضا ، ذات اهمية خاصة فى تلك الظروف ، لذلك بذلت محاولات متكررة للحصول من رجال فيشى على اكثر ما يمكن ، وقد سرنى كثيرا ارسال امريكا فىنهاية ١٩٤٠ بسفير منها الى فيشى من طراز الاميرال ليهى وطبقته ، لصلته المعروفة بالرئيس روزفلت وقد أبديت تشجيعا لرئيس وزارة كنــدا المستر مكنزى كينج لكى يحرص على بقـــاء ممثله المســيو دى بوى المشهور بتفوقه الديبلوماسى فى فيشى ، فبذلك توجد على الاقل نافذة لنا ، نطل منها على عالم لا سبيل الى رؤية ما فيه دون هذه النافذة ، وأرسلت فى ١٥ يوليو مذكرة لوزير الخارجية أخبرته فيها عن رغبتى

فى تشـجيع نوع من التآمر الخفى فى حـكومة فيشى ، بحيث يذهب بعض اعضائها الى الشمال الافريقى باتفـاق مع الاعضـاء الآخرين ، للحصول على مساومة افضل لفرنسا من الشـاطىء الافريقى ، ومن وضع استقلالى احسن وافضـل ، وسأستخدم لهذا الهدف سـلاح الغذاء وغيره من الامور الحـافزة بالاضـافة الى المبررات المعتـادة ، واعتمدت سياستنا دائما على بث الشعور فى حكومة فيشى واعضائها بأن املنا كبير فى احساسهم بالخطأ ومحاولة اصلاح أوضاعهم ، ومهما يكن فى الماضى فستبقى فرنسا بالنسـبة لنا زميلة السـلاح وصديقة الأزمات ، ولن يقف شىء ـ غير انحيازها فعليا فى الحرب ضدنا دونها ودون المساهمة معنا فى ثمرات النصر .

وكان عملنا هذا شاقا على نفس ديجول ، الذى جازف بكل شىء ، لتبقى راية الكفاح خفاقة ولكن لم يكن فى وسع القلة القليلة من اتباعه خارج فرنسا أن يزعموا بأنهم يمثلون حكومة فرنسية كافية وقوية ، ومع ذلك فقد قمنا بكل ما فى وسعنا لتدعيم نفوذه ، وتوطيد سلطانه .

وكان طبيعيا ان يعارض فى اية مداعبة منا لحكومة فيشى ، ويرى بأن الواجب يلزمنا بالوفاء له وحده ، وادرك بأن وضعه تجاه الشعب الفرنسى يحتم عليـه أن يتسـم بالصرامة والـكبرياء فى تصرفاته مع بريطانيا الغادرة بغض النظر عن لجوئه اليها كمنفى ، واسـتناده الى حمايتها واقامته فى ارضها .

وكان من الضرورى ان يتظاهر بخشونة التصرف مع البريطانيين ، ليؤكد للفرنسيين انه ليس لعبة فى يد بريطانيا ولا شـك فى أنه مثـل خطته هـذه بكل عنـاء واصرار ، وقد برر لى ذات يوم هـذا النهج فتفهمت تمام التفهم صـعوبة موقفه ، وكنت دائم الاعجاب بقـوته الخارقة ، ومهما قامت به فيشى من خير او شر ، فمن المحال ان نتنحى عنه او نثبط همته فى استعادة مستعمرات بلاده ، وفضلا عن هذا كله ، صممنا على أن نحول بين اى جزء من أجزاء الاسطول الفرنسى المجرد من سلاحه ، والموجودة حاليا فى موانىء المستعمرات الفرنسية ، وبين العودة الى فرنسـا ، ومضت لحظات كانت الخشـية تسـتبد فيها بالأمبرالية من ان تعلن فرنسا الحرب علينا ، فتضاعف المصاعب التى تواجهها ولكننى كنت دائم الثقة بان اصرارنا على النضـال وقدرتنـا الكافية على الصمود الى آخر الشوط سـتوقظ معنويات الشـعب الفرنسى الى الدرجة التى يحول فيها بين حكومة فيشى وبين القيـام بمثل هذا العمل الشاق ، وفعلا سيطر على الشعب الفرنسى فى هذه الآونة ، اعجاب ببريطانيا وشعور قوى بزمالتها وظلت آمال الفرنسـيين

تنمو وتزداد على ممر الأيام ، وقد اعترف المسيو لافال نفسه عندما اصبح وزيرا لخارجية بيتان بهذه الحقيقة .

وكان الوضع بالنسبة لايطاليا مختلفا من ذلك ، فبعد اختفاء فرنسا من ميدان المعركة ، وبعد التحام بريطانيا فى هذه المعركة المصيرية ذيادا عن كيانها ، كان من المحتمل أن يرى موسولينى ان حلم سيطرته على البحر الابيض المتوسط ، واعادة تشييد الامبراطورية الرومانية السابقة ، قد اقترب من التحقق الفعلى ، وصار فى مقدوره — بعد أن امن ظهره من الفرنسيين فى تونس أن يعزز قواته المحتشدة فى ليبيا لغزو مصر ، لكن وزارة الحرب عقدت عزمها على الدفاع عن مصر ضد كل القوى المعادية ، وبشتى الموارد التى تبقى لديها بعد مستلزمات القتال العنيف الذى يدور فى أرض الوطن

وقد غدت هذه المهمة فى غاية الصعوبة عندما اكدت الاميرالية استحالة مرور القوافل العسكرية عبر البحر المتوسط بالنظر الى الاخطار الجوية ، ومعنى ذلك أن تدور وسائل النقل حول رأس الرجاء الصالح ، وهكذا ستنزع من معركة بريطانيا وسائل هى فى أمس الحاجة اليها .

ومن الغريب اننا كنا فى تلك الايام وجميع القائمين بالامر ، نبدو مرحين هادئين ، مع أن مجرد استعادة هذه الذكريات والكتابة عنها يصيب الانسان بالرعدة .

وعندما أعلنت ايطاليا دخولها الحرب فى ١٠ يونيو ١٩٤٠ ، رأت اجهزتنا الاستخبارية — وقد ايدت الحقائق بعد الحرب صحة مارأت — انه — فضلا عن القوات الايطالية المقيمة بالحبشة واريتريا والصومال — يوجد فى المناطق الساحلية من شمال أفريقيا حوالى ٢١٥١ الف جندى ايطالى بينما وحداتنا فى مصر ، لا تزيد عن خمسين الف جندى ، قد فرض عليها أن تقوم بالدفاع عن الحدود الغربية لمصر ، وأن تحافظ على الامن فى داخل البلاد ، ومن هذا يتضح أن ميزان القوى كان فى صالح الايطاليين بالاضافة الى أن عدد طائراتهم يزيد كثيرا عن كل ما لدينا .

ونشط الايطاليون فى غضون شهرى يوليو واغسطس فى أماكن عدة ، وتوقعنا خطرا من ناحية كسلا غربا فى اتجاه الخرطوم ، وساد الرعب فى كينيا بسبب حملة ايطالية تزحف من الحبشة ، وقد قطعت حوالى اربعمائة ميل نحو تانا ومدينة نيروبى . واخترقت قوات ايطالية ضخمة الصومال البريطانى ولكن هذا الرعب لم يكن شيئا بجانب

ما يترتب من اخطار على غزو الايطاليين لمصر ، وهو ما عرفنا انه كان فى سبيل الاعداد على صورة شاملة . فقبل قيام الحرب تم تعبيد طريق رائع على طول الساحل من القاعدة الرئيسية فى طرابلس بين مقاطعتى طرابلس وبرقة حتى الحدود المصرية ، وكنا نرقب على هذا الطريق خلال ما مضى من الاشهر تحركات عسكرية على مدى واسع وانشئت فى هدوء مخازن ضخمة امتلأت بالمعدات والمؤن فى كل من بنغازى ودرنة وطبرق والبرديسة والسلوم ، ويزيد طول هذا الطريق عن ألف ميل ، انتشرت على طوله الوحدات الايطالية مع معداتها وكأنها حبات مسبحة فى خيط طويل . وعلى مقربة من حدود مصر ، احتشد جيش ايطالى منظم ، يبلغ تعداده من سبعين الف جندى الى ثمانين الفا ، وقد زودوا بالمعدات الحربية ، وتجاه هذا الجيش تألقت جوهرة مصر ، ووراءه امتد الطريق الطويل الى طرابلس ومنها طريق البحر الى ايطاليا ، فاذا استطاعت هذه القوة — التى تم بناؤها شيئا فشيئا، ودعمت اسبوعا اثر اسبوع — التقدم شرقا بصفة مستمرة ، مستولية على كل ما يعترض طريقها ، فانها ستكون ميمونة الطالع ، واذا ما وسعها أن تحتل مناطق الدلتا الخصيبة فى مصر ، فان شتى متاعبها بالنظر الى الطريق الطويل الممتد خلفها ستكون قد انتهت ، أما وهذا هو التقدير الثانى اذا لحقها سوء الحظ ، فلن يجد احد من جنودها الا القليلين طريق العودة الى بلادهم ، فثمة فى جيش الميدان ، وفى حلقات مراكز التموين الضخمة بطول الساحل كان يقف فى خريف ذلك العام حوالى ثلثمائة الف جندى ايطالى ، لن يستطيعوا التراجع غربا حتى ولو هربا من مضايقات جنودنا الا على مراحل وبصورة تدريجية، وهذا يستغرق عدة أشهر ، واذا ما فشلت معركتهم على الحدود المصرية ، واذا ما تصدعت وحدة القوات الايطالية ، ولم يجدوا فرصة كافية للتراجع ، فان مصيرها لن يكون سوى الموت أو الوقوع فى الأسر . ولكن حتى يوليو سنة ١٩٤٠ ، لم يكن أحد يعرف من الذى سيخرج منتصرا .

وكان مركزنا الامامى الحصين فى تلك الاثناء فى آخر الخط الحديدى بمرسى مطروح ، وكانت ثمة طريق ممهدة تمتد غربا الى سيدى برانى، ولكن بينها وبين السلوم الواقعة على الحدود لا توجد طريق نستطيع ان نحشد فيها قرب الحدود جيشا كبيرا لفترة طويلة ، وكنا قد اعددنا وحدة آلية صغيرة للتغطية تتالف من امهر الجنود ، وقد صدرت الاوامر لهذه الوحدة بالهجوم على المراكز الايطالية القريبة من الحدود بعد اعلان الحرب مباشرة وبمقتضى هذه الاوامر عبرت قواتنا

الحـــدود فى خلال اربع وعشرين ســـاعة ، وفاجأت الايطاليين بهجومها عليهم بينما هم لم يسمعوا بعد بنبأ اعلان الحرب ، ومن ثم استولت على بعض الاسرى ، وفى الليلة التالية احرزت نفس النجاح ، ووضعت يدها فى ١٤ يوليو على نقطتى الحدود فى كابوتزو ومادالينا ، واخذت حوالى ٢٢٠ جنـــديا اسيرا ، وتوغلت فى يوم ١٦ الى مســـافة ابعد ، فحطمت اثنتى عشرة دبابة ايطالية وقطعت الطريق على قافلة فى طريق طبرق ، البردية واوقعت جنرالا ايطاليا فى الاسر .

ومن هذه العمليات الصغيرة المعبرة عن القوة والانتصار ، احس جنودنا بمدى تفوقهم على العدو وادركوا على الفور انهم بحق سادة الصحراء ، وكان فى مقدورهم ـــ ما لم تعترض طريقهم جيوش هائلة أو حصـــون منيعة ـــ ان يصـــولوا ويجولوا حيثما ارادوا ، محرزين الغنائم واكاليل الغار من المعارك الصغيرة التى يشتبكون فيها ، وعندما يقترب جيشان كل من الآخر ، يصبح ذات اهميـــة بالغة ادراك ايهما يسيطر على الارض التى يقف عليها الجيش او ينام ، ومن يسيطر على كل شىء آخر ، وقد جربت بنفسى هذا فى قتال البوير ، حيث لم نكن نملك شيئا سوى نيران معســـكراتنا ، ووحداتنا الخلوية ، بينما كان البوير يصولون ويجولون فى مختلف انحاء البلاد ، ووصلت خســـائر الايطاليين فى الاشهر الثلاثة الاولى الى ثلاثة آلاف وخمســـمائة رجل بينهم ســـبعمائة اسير ، بينما لم تزد خســـائرنا عن مائة وخمسين جنديا ، وهكذا كانت بداية المرحلة الأولى من الحـــرب التى شـــنتها ايطاليا علينا بداية مليئة بالتفاؤل .

* * *

واحسست بالحاجة الماسة لمناقشة الاخطار الداهمة فى الصحراء الليبيـــة مع الجنرال ويفل بالذات ولم اكن قد التقيت بهذا القـــائد الماهر الذى يرتبط به مصـــير كثير من الأشـــياء ، فرغبت الى وزير الحـــربية القيام باستدعائه لمدة اسبوع كى اتباحث معه عندما تتيح الظروف الملائمة ، وقد حضر ويفل فى ٨ اغسطس فتباحث طويلا مع اركان الحرب ، ومعى ، ومع المستر ايدن ، وكانت قيادة الشرق الاوسط فى تلك الاثناء تواجه مجموعة غريبة من المشاكل السياسية والعسكرية والديبلوماســـية والادارية بالغة التعقيد ، وقد مر عـــام تقريبـــا من الانتصارات والانكســـارات لتبدو لى أنا والزملاء الضرورة التى تحتم توزيع اختصاصات الشرق الاوسط بين القائد العام ووزير الدولة مع مسئول خاص يصرف شئون التموين وبغض النظر عن عدم موافقتى التامة على وجهات النظر التى ابداها الجنرال ويفل فى توجيه الجيوش

التى يتولى قيادتها ، رايت من الافضل ان اعطيه الحرية فى تصرفاته ، لقد اعجبت بصفاته الممتازة ، كما كنت ماخوذا بالثقة الكبيرة التى منحها الكثيرون لشخصه .

وعلى هدى مباحثات اركان الحرب ابلغنى الجنرال ديل بموافقة ايدن المتحمسة يقول ان وزارة الحرب بدأت تهيىء الوسائل لارسال حوالى من مائة وخمسين دبابة من المدافع عاجلا الى مصر . وكانت العقبة الوحيدة التى تعترضنا هى الطريق الذى تبحر فيه البواخر المحملة بتلك المعدات .. هل هو راس الرجاء الصالح ام هو البحر المتوسط ؟.. ودار — جدل عريض حول هذه المشكلة ، فرات وزارة الحرب ابحار هذه الوحدة المدرعة ، حتى تصل الى جبل طارق ثم يعاد النظر فى قرار نهائى ، وظل الاختيار متأرجحا حتى ٢٦ اغسطس ، وبالطبع راينا الفرصة متاحة لتجمع المعلومات الضرورية عما اذا كان الهجوم الايطالى قد حان ميعاده ام لا ، ولم نضع وقتنا فاجراء عملية نقل الدم هذه فى ذلك الوقت الذى نستعد فيه لمواجهة شر مستطير ، تحتاج الى قرار صائب وان كان رهيبا فى الوقت نفسه ، ولم يتردد واحد منا فى اتخاذ هذا القرار .

* * *

وكانت السيطرة على البحر الابيض المتوسط قبل انهيار فرنسا موزعة بين الاسطولين البريطانى والفرنسى ، ولكن بعد ان عزلت فرنسا من الحرب واشتركت فيها ايطاليا ، غدا امامنا اسطول ايطالى ضخم فى عدده يؤازره سلاح جوى قوى ، وقد ظهر لنا الموقف فى بداية الامر مرعبا ، حتى لقد فكرت الأميرالية فى الانسحاب من شرق البحر الابيض . والتجمع حول جبل طارق ، وقد قاومت هذه الفكرة ، لانها بغض النظر عن وجود كل ما يؤيدها نظريا بسبب وجود الاسطول الايطالى العارم لا تلتقى مع احساسى الخاص بالمثل الكفاحية والحربية، ويضاف الى ذلك ان هذه الفكرة تحكم على جزيرة مالطة بالموت ، وتبعا لأرائى تقرر ان نجابه القتال فى جانبى البحر المتوسط ، وكانت التبعات المنوطة بالأميرالية فى ذلك الحين بالغة الاهمية ، فخطر الغزو ما زال ماثلا ، مما يستلزم منها اعداد اكبر عدد مستطاع من المدمرات والقطع الصغيرة فى المانش وبحر الشمال .

وكانت الغواصات التى اخذت فى العمل منذ شهر اغسطس من موانىء خليج بسكاى ، تفرض ضريبة ضخمة على قوافلنا فى الاطلنطى دون ان تصاب باية اضرار ، والى تلك الساعة لم يكن الاسطول الايطالى قد دخل اية معركة تضعه موضع الاختبار ، ولم يكن فى مقدورنا ان

نغفل عن احتمال دخول اليابان الى ميدان الحرب ، وما يعنيه هذا الدخول من اخطار تهدد كيان امبراطوريتنا فى الشرق ، فلا غرو والحالة كما نرى ان يستولى القلق على الاميرالية من جراء فكرة المجازفة ببوارجنا فى البحر المتوسط ، وان تتشبث بأهداب الوسائل الدفاعية فى كل من جبل طارق والاسكندرية . اما انا فقد كنت لا اجد سببا كافيا لنحول بين هذا العدد الهائل من قواتنا البحرية التى خصصناها البحر المتوسط ، وبين القيام بدور رئيسى منذ البداية ، وعلينا ان نرسل الامدادات الجوية والبحرية الى مالطة وبالرغم من أن قوافل نقلنا التجارى قد اتجهت الى طريق رأس الرجاء الصالح ، وبالرغم من ان البوارج الكبيرة التى تنقل جنودنا الى مصر تتخذ نفس الطريق ، فاننى لم اكن مقتنعا باستمرار هذا البحر مغلقا فى وجوهنا وقد طمعت فى ان يكون اختراق قوافلنا لهذا الطريق وسيلة لاستثارة الاسطول الايطالى وجره الى معركة نختبر فيها قوته ، وكانت رغبتى تتلخص فى ان يجرى كل هذا ويتم امداد مالطة بالحامية وبالمعدات والطائرات والمدافع المضادة قبل ان يقدم الالمان الى هذا الميدان ، وهو أمر كنت اعمل حسابه وقد امضيت اشهر الصيف فى مباحثات هادئة ولكنها جادة مع الاميرالية حول هذا الاتجاه فى نشاطنا الحربى .

وبالرغم من ذلك فقد فشلت فى اقناع الاميرالية بان تمخر الوحدة المدرعة أو سياراتها على الاقل عباب البحر المتوسط ، فاستمرت كل قوافلنا تدور حول رأس الرجاء الصالح .

وقد اسفت لهذا الموقف بل غضبت منه ، ولم تحدث اية واقعة خطيرة فى مصر وبقينا ممسكين بالرغم من وجود سلاح الطيران الايطالى بزمام المبادرة ، كما ظلت مالطة فى مقدمة الحوادث كقاعدة امامية لشن هجومنا على المواصلات الايطالية مع القوات المرابطة فى افريقيا .

* * *

ويظهر أن القلق الذى اعترانا من غزو ايطاليا لمصر كان — كما بدا لنا الآن — اقل من القلق الذى احاط بنفس الماريشال غرازيانى قائد الغزو ، فقبل بضعة أيام من الموعد المتفق عليه طلب الماريشال تأجيله شهرا كاملا فرد عليه موسولينى مهددا بالاقالة من منصبه اذا لم يبادر بالهجوم يوم الاثنين ، فرد الماريشال عليه بأنه سيمتثل للامر . وكتب تشيانو فى مذكراته « ولم يحدث ابدا أن وقعت عملية حربية مثل هذه رغما عن مشيئة قائدها » .

وبدات القوات الايطالية زحفها الرهيب على الحدود المصرية فى ١٣ اغسطس مكونة من ست فرق من المشاة ، وثمانية افواج من

الدبابات وكانت جيوشنا المواجهة تتالف من ثلاثة افواج من المشـــاة وفوج من الدبابات وثلاث بطاريات وسريتين من السيارات المدرعة ، وقد اصدرنا اليها امرا بالاشتباك مع العدو فى قتــال انسحابى وهى طريقة تجيدها قواتنا لما تتسم به من شجاعة ولما اكتسبته من خبرات فى حرب الصحراء ، وبدأ الهجوم الايطالى يفتــح نيران المدفعية على مراكزنا قرب مدينة السلوم على الحدود ، وعندما انكشــف الغبــار والدخان ، تجلت القوات الايطالية مصطفة فى نظام بديع ففى المقدمة راكبو الدراجات النارية فى تنظيمات متقنة تمتد من الجناح الى الجناح، ومن المقدمة الى المؤخرة، وتليهم الدبابات الخفيفة ثم عدد من السيارات المصفحة فى صفوف منتظمة أيضا ، وعلق ضابط بريطانى على هــذا المنظر فقال انه كان اشــبه بحفلة عيد ميــلاد فى الوادى الفسيح فى الدرشوت ، واسرع فوج حرس غولد ستريم الثالث الذى كان امــام الجيش المغير بالانســحاب بينما تقاضت مدفعيتنا ضريبتها من هــذه المائدة المعروضة امامها بسخاء .

وتحرك الى الجنوب فوجان كبيران من افواج العدو عبر الصحراء المكشوفة جنوبى الروابى الممتدة بمحــاذاة البحــر ، والتى ليس فى المقدور اختراقها الا عند « حلفايا » أو ما يعرف « بممر نيران جهنم » . وهو ممر ادى دورا فعالا فى معاركنا المقبلة كلها وكان كل فوج منهما يتكون من عدة مئات من السيارات تساندها الدبابات والمدافع المضادة لها والمدفعية التى تظهر فى المقدمة ، ثم المشاة فى الوسط حيث تقلهم السيارات وكنا نسمى هذا التنظيم الذى شاهدناه كثيرا باسم «القنفذ» وامام هذا العدد الهائل تراجعت وحداتنا مســتغلة كل فرصة لتغير على العــدو الذى بدت الحيرة والاضطراب فى كل تصرفاته وقد قال غرازيانى فيما بعد انه غير خطته فى الآونة الاخيرة التى كانت تعتمــد على القيام بتطويق صحراوى الى « تركيز القوات جميعا فى الجنــاح الايسر ثم شن هجــوم صاعق كالبرق على طول الســاحل فى اتجــاه سيدى برانى » . وعلى هذا الأساس زحفت الجموع الايطالية الضخمة الى الامام ببطء فى خطين متوازيين على الطريق الســـاحلى وكانوا يحشدون للهجوم مجموعات من المشاة تنقلهم السيارات ، تتقدم نحو الامام فى وحدات عدد كل منها حوالى خمسين جنديا واستمر حرس غولد ستريم فى انسحابه وعلى مهل لمدة اربعة أيام من الســلوم الى مواقع متلاحقة ، منزلا بالعدو الاضرار الفادحة أثناء انسحابه .

وعسكرت القوات الايطالية فى سيدى برانى يوم ١٧ سبتمبر ، وبلغت خسائرنا أربعين رجلا بين قتيل وجريح ، بينما نزل بالعــدو من الاضرار ما يقدر بعشرة أضعاف هذا العدد فضلا عن تدمير حوالى

مائة وخمسين سيارة ، وراى الايطاليون بعد ان امتدت بهم سبل المواصلات ستين ميلا اخرى ، ان يجمعوا قواهم وان يرابطوا فى مكانهم الاشهر الثلاثة القادمة ، ولكنهم لم يعفوا من الهجمات المستمرة التى كانت تشنها جماعاتنا الصغيرة المتحفزة ، وقد واجهوا اقسى المتاعب بشأن مستلزمات الصيانة وكان موسولينى فى بداية الأمر قد « اهتز سرورا » ، ولكن لما بلغت الاسابيع شهورا بدأ زهوه يخف فتأكدنا فى لندن اننا فى الشهرين او الثلاثة الأشهر القادمة سنواجه قوات ايطالية هائلة اضخم من كل ما نقدر على تجنيده ، تواصل التقدم بغية احتلال الدلتا ، وهناك ايضا تهديد الخطر الالمانى فقد يدهمنا فى اية لحظة ولم يكن بالطبع يدور بخلدنا أن فترة التوقف لزحف غرازيانى ستطول الى هذه المدة كما دار بخاطرنا احتمال حدوث معركة حاسمة فى مرسى مطروح ، وهو شىء معقول فى وسط هذه الظروف . وقد استطعنا ان نستغل هذه المدة : فوصلت دباباتنا الثمينة التى دارت حول رأس الرجاء الصالح ، دون أن يسبب لنا طول مدة دورانها اية خسائر .

وعندما ارجع بذاكرتى الى كافة هذه المشقات ، اتذكر قصة الرجل العجوز الذى حانت منيته فباح على فراش الموت بانه واجه فى حياته كثيرا من المتاعب ، بينما لم تكن فى حياته اية متاعب .

وارى أن هذه القصة تنطبق تماما على الحالة التى مررت بها فى سبتمبر عام ١٩٤٠ فلقد انهزم الالمان فى غاراتهم الجوية على بريطانيا ولم تحدث اية محاولة لغزونا من البحر ، ثم تحول هتلر بعد ذلك بنظراته النهمة الى الشرق ، وعوق الغزو الايطالى لمصر ، ووصلت وحدة الدبابات التى ارسلناها عن طريق رأس الرجاء الصالح فى موعدها المناسب ، لا لتشترك فى سبتمبر فى معركة دفاعية عن مرسى مطروح ، بل لتخوض عملية أخرى كانت أكثر نفعا وأعظم فائدة .

وقد وفقنا الى الوسائل المطلوبة لتعزيز الدفاع عن مالطة قبل ان يحاول الاغارة عليها احد ، وفى كل مراحل هذه الفترة جبنت كل القوى عن التعرض لهذا الحصن البحرى وعلى هذا النحو مضى شهر سبتمبر .

* * *

واخذ موسولينى الآن يقوم بحركة جديدة كانت فى مجال احتمالاتنا ، وقد اثارت لنا نظرا لمشاكلنا العديدة ، كثيرا من الصعوبات المفاجئة ، والنتائج البالغة الاثر بالنسبة لميدان الحرب فى البحر الابيض المتوسط .

فقد اصدر الدوتشي أوامره بشن هجوم على اليونان في ١٥ اكتوبر ١٩٤٠ ، وقبيل فجر ٢٨ وجه وزير ايطاليا المفوض انذارا حاسما الى الجنرال متيكاس رئيس الوزراء اليوناني ، يطلب فيه موسوليني فتح الحدود أمام الجيوش الايطالية وفي الوقت ذاته زحف الجيش الايطالي من البانيا على اليونان من عدة أماكن فقابلت الحكومة اليونانية هذا الطلب بالرفض وكانت جيوشها على أهبة الاستعداد في الحدود ، وطالبتنا بتنفيذ التعهدات التي سبق أن ضمنها لها المستر تشمبرلين في ١٣ ابريل سنة ١٩٣٩ ، وكان من الطبيعي أن نحترم وعودنا ، وقد رد جلالة الملك استجابة لمشورة حكومته ، وبالاصالة عن رغبته العميقة على برقية ملك اليونان قائلا : « ان قضيتنا واحدة وسنقاتل معا ضد عدونا المشترك » وارسلت الى الجنرال متيكاس في اثناء ردي على رسالته اقول : « سنبذل من أجلكم كل ما في وسعنا ، وسنحارب العدو المشترك كما سنحرز النصر متحدين » . ولقد قمنا بهذه التعهدات بعد قصة طويلة من الكفاح .

ولم يكن في مقدورنا أن نرسل الى اليونان بأكثر من بضعة أسراب من الطائرات ، وببعثة بريطانية ، ومجموعة رمزية من القوات ، وعلى الرغم من ضآلة هذه المعاونة فقد كنا نحس بالألم ونحن ننقصها من حساباتنا في العمليات الحادة الرهيبة التي بدات تواجهنا في صحراء ليبيا ، ووضحت لعيوننا نقطة استراتيجية بالغة الأهمية وهي كريت، التي يهيب بنا الواجب الا ندع الايطاليين يحاولون احتلالها ولذلك فمن الضروري أن نحتلها نحن أولا وعلى الفور وكان المستر ايدن ليمن طالعنا موجودا في تلك الاثناء بالشرق الاوسط فتم لي بذلك وجود الوزير الزميل الذي يسعني تصريف هذا الشأن معه ، فأبرقت اليه ، وعلى الفور قامت قواتنا بدعوة من الحكومة اليونانية باحتلال خليج سودا ، وهو خير موانيء الجزيرة وأكثرها صلاحية .

ولا شك في أن قصة خليج سودا تثير كثيرا من الاسى ، لكن المأساة لم تحدث الا عام ١٩٤١ ، ويقيني أنه توفر لي التصرف الكامل لشئون الحرب مثلما توفر لاي رجل مسئول في أية بلاد غير بلادنا في ذلك الحين فقد ادت خبرتي لحقيقة الاشياء ، وايمان زملائي في وزارة الحرب ، وتآزرهم المخلص معي وتعاون جميع زملائي وصلاحية جهازنا الحربي المتطور على الدوام ، أدى كل ذلك الى تركيز جميع السلطات في يدي ، ومع كل هذا فقد كان العمل الذي قامت به قيادة الشرق الاوسط دون ما أمرت به ودون ما كنا نطمع الى تحقيقه ، ولكن لعلنا لم ننس بعد حدود الطاقة الانسانية ، فقد دارت عدة عمليات في اماكن كثيرة في وقت واحد ، وبالرغم من ذلك فانه مازال يحيرني

حتى الآن عجزنا عن أن يكون خليج ســـودا هو الحصن البرمائى لــكل ما تمثله قلعة بحرية مثل جزيرة كريت .

* * *

وكان هجوم ايطاليا على اليونان من البـــانيا ، صـــفعة جديدة للدوتشى ، فقد اندحر الهجوم الاول بعد أن تكبد اضرارا جسيمة ؛ ومن ثم قام اليونانيون على الفور بهجوم مضاد ، واظهر الجيش اليونانى تحت قيادة الجنرال باباغوس ضروبا من المهارة الفائقة فى حرب الجبال فتفوق على عدوه فى مجال المناورة وحركات الالتفاف ولم تأت نهاية العام حتى كانت بســـالته قد حملت الايطاليين على الانســـحاب الى مسافة ثلاثين ميلا على طول الجبهة ، خلف حدود البانيا ، واستطاعت ست عشرة فرقة يونانية فرض عدم التحرك على سبع وعشرين فرقة ايطالية لاشهر عديدة خلف حدود البانيا .

وبانتشار انباء هذه المقاومة الباسلة ، دبت الحماسة والشجاعة فى نفوس الدول البلقانية الاخرى كماانهارت على أثرها سمعةموسولينى لـــكن القصـــة لم تقف عند هذا الحد ، ـــ فقد عاد ايدن الى وطنه فى ٨ نوفمبر ، وقدم فى نفس الليلة ليرانى بعد بداية الغارات الجوية المعتادة وكان يطوى سرا حرص الا يبوح به لاحد ، وكنت أود لو عرفته من قبل أى ضرر لم يحدث على كل حال ، وتحدث ايدن كثيرا لى ولبعض الصحبة المختارة ومنهم رئيس أركان حرب الامبراطورية ، والجنرال ايسماى ، وشرح بالتفصيل مشروع خطة هجومية وضعها الجنرال ويفل والجنرال ويلسون ، تقضى بالا نظل فى اماكننا بمرمى مطروح ننتظر الهجوم الايطالى المترقب ـــ وقد اعددنا لصده كل الوسائل الدفاعية الممكنة ، بل نبادر نحن فى خلال شهر أو نحوه بشن هجوم على العدو .

وانتشـــينا بهذا النبأ المثير ، وجعلت أهر كست قططه ، فقـــد وقعنا على عمل يستحق التنفيذ ، واخذنا القرار فورا بعد أن صدق عليه رؤســـاء أركان الحرب ، ووزراء الحرب ـــ بالموافقة على الخطة واعداد كل مستلزماتها وكنت مستعدا عندما عرضت الخطة على وزارة الحرب لتوضـــيح الامور ، ولـــكن عنـــدما بلغ الزملاء أن قادة الميدان العسكريين ، ورؤساء أركان الحرب قد تم اتفاقهم معى ، ومع المستر ايدن بهذا الصـــدد ، آثر الزملاء عدم الاطلاع على تفاصـــيله ، حيث رأوا خيرا له وابقى أن تظل معرفته بين عدد محدود ، واعلنوا تأييدهم التام لفكرة الهجوم بصورة عامة ، وكان هذا التصرف مثالا لتصرفات عديدة قامت بها وزارة الحرب فى عديد من المناســـبات ، وانى لاباهى

بتسجيله هنا ليكون سابقة تحتذى فيما اذا تعرضنا فى المستقبل لظروف مماثلة .

* * *

وقد جد تحسن واضح فى موقف قواتنا فى البحر الابيض المتوسط بالرغم مما يبدو من تفوق الاسطول الايطالى على أسطولنا المرابط هناك فى عدد جنوده ومن الناحية النظرية ، وقد استطاعت البارجة « فاليانت » وحاملة الطائرات المدرعة « ايلستريوس » وطرادان مضادان للطائرات اختراق البحر الابيض المتوسط فى سلام وتعضيد قوات الاميرال كينجهام فى الاسكندرية وقد ظلت هذه القوات تحت مراقبة سلاح ايطاليا الجوى ، ومعرضة لهجماته .. لكن .. « الايلستريوس » بطائراتها الحديثة المحاربة ، وجهاز ردارها الجديد وبدورياتها المقاتلة وطائراتها المغيرة تمكنت من ان تضفى صفة السرية على تنقلاتنا ، وكانت هذه الصفات الممتازة قد جاءت فى الوقت الذى نريد .

وكان الاميرال تستبد به الرغبة منذ زمن بعيد الى انزال ضربة قوية بالاسطول الايطالى المرابط فى قاعدته الرئيسية فى تورنتو ، وقد وقع الهجوم فى ١١ نوفمبر كقمة لعمليات حربية متتابعة وشديدة الاحكام ، وتقع تورنتو فى كعب ايطاليا فتبعد عن جزيرة مالطة بحوالى ثلاثمائة وعشرين ميلا ، وميناؤها البديع محصن تماما ضد كافة الوان الهجوم الحديثة ، وبوصول بعض طائراتنا الاستكشافية السريعة الى مالطة استطعنا ان نحدد بالضبط مكان الفريسة ، وبعد الغسق بقليل اطلقت طائرات « الايلستريوس » من مسافة يبلغ بعدها مائة وسبعين ميلا عن تورنتو ، واحتدم القتال زهاء ساعة بين الحرائق المشتعلة والدمار الذى نزل بقطع الاسطول الايطالى وبالرغم من قوة نيران المدافع المضادة فان ما لحق بنا من اضرار لم يزد عن طائرتين سقطتا فى البحر ، اما بقية الطائرات فقد عادت الى قواعدها سالمة .

وبهذه الضربة القوية تبدل ميزان القوة البحرية فى البحر الابيض بصورة نهائية ، فقد أوضحت الصور الجوية ان بوارج ثلاثا من بينها البارجة الحديثة « ليتوريو » فقد اصيبت كما اصيب طراد آخر ، حلت بظهره أضرار فادحة وهكذا أصبح نصف الاسطول الايطالى على الأقل عاجزا عن الحركة لمدة ستة أشهر ، وكان فى مقدور سلاح الاسطول الجوى ان يهتز طربا لاستطاعته بهذه المجازفة الرائعة استغلال الفرصة النادرة التى سنحت له .

ولعل من سخرية المقادير ، أن كان السلاح الايطالى ، انصياعا

لاوامر موســوليني في نفس اليــوم الذى شهد هــذه الضربة القاصمة يجــرب الهجوم الجوى على بريطانيــا العظمى ، فقــد شاءت قوة من القــاذفات الايطالية تؤازرها حوالى ســتين طائرة محاربة الهجوم على الحلفاء فى ميداوى ، فاشتبكت معها مقاتلاتنا وقضت على ثمانى قاذفات وخمس مقاتلات ، وكانت هذه هى التجربة الاولى والأخيرة من جانب ايطاليا بالنسبة للتدخل فى شــئوننا الخاصة ، ولا شك فى انهم عرفوا بعد ذلك أن الدفاع عن اسطولهم فى تورنتو كان خيرا وابقى .

وامضت قواتنا التى بات عليها أن تقوم بعملية هجوم الصحراء مدة شهر تقريبا فى تدريبات خاصة ، يتطلبها هذا الهجوم المعقد لدرجة كبيرة ، ولم يكن احد يعلم بتفاصيل الخطة ســوى عــدد قليل جدا من الضباط ، كما لم يحرر شىء خاص بها على اى ورقة ، وفى ٦ ديســمبر زحف جيشنا المدرع بخمسة وعشرين الف جندى .. كل منهم لوحت وجهه شمس الصحراء وتركت على عوده صلابة طبيعتها الصــارمة ، فاشتد عوده وانفتلت عضلاته ، زحف الجيش بهم مسافة اربعين ميلا ثم اختفى فى الصــحراء عن عيون الســلاح الجوى الايطالى وفى ٨ من الشهر نفسه استأنف زحفه الجــرىء وفى تلك الليلة ، قيل للجنود ، للمرة الاولى ، انهم الآن لا يمارسون تدريبا صحراويا ، ولكنهم يقومون بعملية حية ، وفى فجر ٩ ديسمبر بدأت معركة سيدى برانى ولا أجد داعيا للكتابة عن تفاصيل القتال الكثيرة والدقيقة معا ، الذى ظل يدور فى خلال الأيام الأربعة التــالية على أرض واســعة تكاد تماثل مقاطعة يوركشاير بكل اتساعها ، ومر كل شىء فى نظامه الذى قدرته الخطة الموضوعة وتواصلت المعركة طيلة اليوم العاشر ، وفى الســاعة العاشرة أبرقت قيادة فوج حرس جولد ستريم تقول انه تعذر عليها احصــــاء عدد الأسرى لكثرتهم البالغة ، ولــكن ثمة « ما يملأ خمســة افدنة من الضباط ومائتى فدان من الجنود » وكانت تصلنى فى داونتج انباء القتال لحظة بعد اخرى ، وكان من الصعب على أن استوعب ما يحدث ، ولكن الموقف كان يملأ شعورى بالرضا والارتيــاح ، وقد لفتت نظرى اشارة من ضابط شاب كان يقود دبابة بالفرقة المدرعة الســابعة قال فيها : « لقد وصلت الى بقبق » وتم الاستيلاء على ســيدى برانى فى اليــوم العاشر بعد الظهر ، وفى ١٥ ديسمبر كان جيشنا قد نفى عن أرض مصر تماما جميع القوات المعادية وكانت البردية غايتنا الثانية ، وفى محيطها الذى يبلغ سبعة عشر ميلا ، الجزء الاكبر من اربع فرق ايطالية أخرى ، وتتكون الخطوط الدفاعية عنها من خنــدق ممتــد لمقاومة الدبابات وراءه اسلاك شائكة تستند الى بيوت من الاسمنت المسلح قائمة هنا وهناك ، يكمن وراء خط آخر من الحصون ، وكان اجتياح هذا الحصن

يستلزم عددا كبيرا من المقاتلين ، ولاتمام الحديث عن انتصاراتنا فى الصحراء أرى أن أستمر فى سرد أحداث السنة الجديدة ففى ٣ يناير استطاعت فرقة استرالية تحت حماية المدفعية الشديدة انتزاع موقف لها فى القطاع الغربى ، وبدأ مهندسونا محتمين بالاستراليين يغلقون الخندق المضاد للدبابات ، واستمرت كتيبتان استراليتان فى الاغارة الناجحة فى اتجاه الشرق والجنوب الشرقى ، وفى خلال زحفهم كانوا يتغنون بلحن من الحان الأفلام الامريكية ، نال شهرة فى تلك الآونة فى سائر البلاد حتى فى بريطانيا أيضا ، وهو يتعلق « بساحر أوز » وعندما أصغى الى هذا اللحن اليوم تطوف لى ذكريات تلك الأيام المفعمة بالاحداث واستطاعت الدبابات البريطانية بعد ظهر ٤ يناير اقتحام البردية تؤازرها قوة من المشاة ، واستسلمت حاميتها فى ٥ من الشهر نفسه ، وكان عددهم خمسة واربعين الفا ، أسروا جميعا ، كما استولت قواتنا على ٤٢٦ مدفعا .

وفى اليوم التالى أى ٦ يناير تم حصار مدينة طبرق ، ولم يكن فى المستطاع مهاجمتها قبل ٢١ يناير ، ولكنها استسلمت فى صباح اليوم التالى ، وانتهت مقاومتها وغنمنا فيها ٢٣٦ مدفعا عدا ثلاثين الفا فى الأسر ، وهكذا استطاع جيش الصحراء فى ستة أسابيع ان يزحف مائتى ميل فى ارض جرداء خالية من الماء والزراعة واستطاع الاستيلاء على ميناءين قد حصنا كاملا ضد البر والبحر والجو ، واسر (١١٣) الفا واستولى على أكثر من سبعمائة مدفع ، وتهاوى الجيش الايطالى الضخم الذى كان قد زحف على مصر ، وداعبته الآمال فى الاستيلاء عليها ، وسقط من الحساب كقوة عسكرية وكانت مصاعب التموين والامتداد الهائل للمسافات هى الأسباب الرئيسية لتاخير زحف قواتنا نحو الغرب .

وهكذا ، كان العام يقترب من نهايته ، والصورة امامنا تتنازع جوانبها مختلف الأضواء والظلال فى وقت واحد ، فنحن لم نزل أحياء ، وقد استطعنا انزال الهزيمة بالسلاح الجوى الألمانى ، ورددنا الغزاة من بلادنا مدحورين ، وأصبح جيشنا فى الوطن فى منتهى القوة والتفوق ، ولم تستطع كل المحن ان توهن من عزيمة لندن الصامدة ، وبدأنا نسيطر تماما على سماء جزيرتنا بكافة الامكانيات ، لكن همسات الشيوعيين القذرة خضوعا لأوامر موسكو ظلت تتردد على الاسماع ، عن الحرب الاستعمارية الراسمالية ، ثم تموت على شفاههم ، فالمصانع تفيض بالحيوية ، الشعب باكمله يعمل ليل نهار ، وقد ارتفعت روحه المعنوية ، وتدفق فى كيانه احساس بالارتياح والاعتزاز ، وبدأ نصرنا

النهائى ، فى صحراء ليبيا قريبا ، كما بدأت الولايات المتحدة تقترب شيئا فشيئا من واجبها الحقيقى وهو الاشتراك الفعال معنا .

وفى مقدورنا أن هذه السنة المجيدة نادرة بمكاسبها ، كما كانت مروعة بأحداثها ، ولعلها أروع وأرهب السنين فى تاريخ انجلترا بأكمله ..

فلقد حطمت بريطانيا العظمى بمهارتها الخاصة الارمادا الاسبانية وخاضت غمار الصراع الذى استمر زهاء خمسة وعشرين عاما والذى خاضه ويليام الثالث ووزيره مارلبوروا ضد لويس الرابع عشر ، فظلت طيلة هذه المدة تشتعل فى صدرها حمية العزيمة والأصرار ، كما اقتحمنا حلبة الصراع ضد نابليون وكنا ندين ببقائنا لسيطرة الاسطول البريطانى على البحار ، بفضل القيادة الماهرة لنيلسون ورفاقه ، كما قتل مليون بريطانى فى الحرب العالمية الأولى .. ولكن كل هذه المحن التى ذقنا اهوالها لم تكن شيئا بجانب ما قاسيناه فى عام ١٩٤٠ .

وبرغم ذلك لم تأت نهاية العام حتى كانت الدنيا تشهد هذه الجزيرة الصغيرة العريقة ، بجميع شعوبها المؤمنة بها ، وبممتلكاتها المستقلة ، وعلاقاتها الناجحة تحت كل سماء ، وقد أكدت أنها قادرة على تحمل كل ما يأتى بمصير العالم من أعباء وتبعات .

ولم يعرف الضعف والا التحير سبيلا الينا ، بل ظلت روح الشعب البريطانى ، والعنصر البريطانى فى قوة لا تغلب ، وبرهن حصن جامعة الشعوب البريطانية والامبراطورية على انه لا سبيل الى اقتحامه ، وقررنا وحدنا ــ بتأييد كل القلوب الكريمة الطيبة ــ أن نتحدى الطاغية وهو فى قمة غروره وانتصاراته .

واستيقظت الآن جميع طاقاتنا الفعالة ، فقد تمت سيطرتنا على الارهاب الجوى ، واصبحت الجزيرة حصنا لايمس ولا يمكن تدنيسه، ومنذ الآن سيتوافر لنا السلاح . ومنذ الآن سنكون نحن جهازا حربيا ماهرا ، فقد عرف العالم كله أننا نعرف كيف نصمد فثمة نظرتان لموضوع السيطرة الهتلرية على العالم ، فبريطانيا التى كان لا يعبأ بها الكثيرون ، ما زالت فى الميدان ، اضخم مما كانت عليه فى أى زمن مضى ، وهى يوما بعد يوم تزداد قوة وصلابة ، وها هو عامل الزمن يتحرك ثانية الى صفنا ، ويدعم مصالحنا لا أقصد مصالحنا القومية فحسب ، فأمريكا تدعم أسلحتها بصورة عاجلة ، وتقترب شيئا فشيئا من حلبة الصراع وروسيا السوفييتية ــ التى أصدرت حكمها

الخاطىء علينا بعدم الصلاحية ، والتى تساومت مع المـانيا لتكسب منافعة عابرة وتحصل على نصيب من الغنائم ــ اخذت الآن تســتكمل قوتها واستطاعت غرس اقدامها فى مواقع أمامية لتؤمن على نفسها ، أما اليابان فربما تكون فى هذه الفترة فريسة شـعور جارف بالخوف من استمرار الحرب ، وهى تنظر بقلق الى روسيا والى أمريكا وتقوم بدراسات واسعة لمـا تعتقد انه سـيكون فى صـالحها ، ومتفقـا مع دواعى العقل والحكمة . وها هى بريطانيا بعلاقاتها الدولية الشاملة والتى ظهرت وكأنها على حافة الدمار ، والسيف المصلت يكاد ان يمزق احشاءها تظل صامدة خمسة عشر شهرا ، وقد وجهت كل جهـودها للاعـداد الحربى ، تدرب الرجال وتحشـد للمعركة كل ما لديها من كفاءة وجهود ، ونظرت الدول الصغيرة المحايدة والدول المستعمرة الى السماء ، فرات فيها نجوما لا تزال متألقة فهزتها الدهشة والسعادة معـــا ، واسـتيقظ الرجاء والعطف معا ، فى قلوب مئات الملايين من البشر ، فستنتصر قضية الخير ، ولن يذهب الحق هباء تحت أقدام الطغاة ، وستظل راية الحرية ــ التى يمثلها فى ذلك الحين علم بريطانيا ــ عالية خفاقة مهما عصفت الرياح واشتدت الأنواء .

أما من ناحيتى أنا وزملائى الأوفيـاء ، الذين كنا نحيـا فى ذروة الصورة ، تصلنا ادق المعلومات عن كل شيء ، فقد نازعنا كثيرا القلق ، وانتابتنا الهموم ، فمازال خطر حصار الغواصات ماثلا ، وعلى القضاء على هذا الخطر تستند كل خططنا ، وقد خسرنا معركة فرنسا ، ولكنا ربحنا معـركة بريطانيا ، وكان علينـا فى ذلك الحين أن نخوض غمار معركة الأطلنطى .

اتساع الحرب

توثقت صلتي مع الرئيس روزفلت مع بداية السنة الجديدة ، وكنت قد ارسلت اليه تهنئتي بمطلع العام الجديد ، وفي ١٠ يناير ١٩٤١ م حضر الى داونج انسان لطيف ومعه أوراق الاعتماد يرغب في لقائي ، وكانت البرقيات من واشنطن قد أخبرتنا ان هذا الرجل يعتبر ممثلا خاصا موثوقا به للرئيس ، ومن اجل هذا فقد رغبت ان يستقبله السيد براندن براكن في المطار ، وفي اليوم التالي دعوته لتناول الغداء معا ، وكذا التقيت بالرجل ، بالتقدير هاري هوكبنز الذي ادى دورا هاما في جميع شئون الحرب ، وكان روحا نابضة بالحيوية في جسد نحيل واهن ، وكان منارة تكاد أن تهوى ولكنها ترسل ضوءها الساطع الذي يهدي الاساطل الضخام الى مرساها الأمين ، وكان يتسم بروح من الدعابة الساخرة ، وكثيرا مارغبت في صحبته وخصوصا عندما يسوء الموقف ، ولقد كان في مقدرته أيضا ان يتخلى عن الرقة والدماثة وأن ينطلق في كلمات قلبية جارحة ، وكانت خبراتي قد هدتني الى أن أكون واحدا من هذا النوع عندما تحتم الظروف .

ودام اجتماعنا الأول ثلاثساعات ، وبسرعة توصلت الى مميزات شخصيته الدينامية ، وما يتعلق بها من المهام ، وكنا في أقسى فترات الهجوم على لندن ، بينما تنهال علينا المتاعب من الداخل كذلك ولكن تبين لي أن هذا الرسول الخاص من الرئيس ، ذو أهمية عظيمة لحياتنا ومصيرنا ، وقال لي وعيناه تتألقان والهدوء والتحفظ يغلف حديثه : « ان الرئيس مصمم على ان نكسب الحرب معا فأرجو أن لا تخطيء في تفهم حديثي حين اقول :

« لقد ارسلني هنا لأخبرك بأنه مهما تفاقم الثمن ، وأيا كانت الوسيلة ، فسيظل يؤازركم حتى النصر ، وبالرغم من أي مصير شخصي يواجهه فلن يتوانى عن تقديم كل عون في وسع الطاقة البشرية أن تقدمه حتى تبلغوا غايتكم »

ولا شك في أن كل من عرف هاري هوبكنز في مدى سني الحرب يرسم الصورة التي قدمتها عن شخصيته ، ومنذ التقينا بدأت تنمو

الصداقة بيننا ، وتسمو على كل الانفجارات والزلازل ، ولقد كان أضمن وأقرب وسيلة للاتصال بالرئيس ، فلقد ظل هذا الرجل لسنوات عديدة موضع السر والثقة للرئيس روزفلت ، وباعث الأمل الذى يحفزه ويشجعه ، واستطاع هذان الرجلان ـ واحدهما مساعد بدون منصب رسمى ، والآخر يتولى مهام منصب الرئاسة ـ اتخاذ القرارات ذات النتائج الخطيرة بالنسبة لكافة البلاد التى تتحدث اللغة الانجليزية ، وكان هوبكنز بكل تأكيد يحتفظ بنفوذه الشخصى على الرئيس ولذلك لم يكن يتيح الفرصة لظهور أى منافس له فى صفوف الامريكيين ، ولقد يصدق عليه قول الشاعر جراى : « ان المقرب لا صديق له » ، ولكن هذا لا يهمنى ، فها هو يبدو أمام عينى نحيلا هزيلا واهنا ، ولكنه ينبض بالفهم العميق لمشاكلنا ، ومحور هذه المشاكل كما يتفهمها يتلخص فى اندحار هتلر وتدميره وذبحه فضلا عن عدد آخر من الأمانى والأهداف . ولا شك فى أن تاريخ أمريكا لم يعرف الكثيرين من طراز هذا الرجل النادر الفياض بالاخلاص .

وكان هارى هوبكنز يستشف دائما أعماق القضايا ، يصل الى جذورها ، وقد حضرت عددا من المؤتمرات التى كان يشهدها حوالى عشرين أو أكثر من الشخصيات الكبيرة صاحبة السلطة . وعند ما تمتد المحادثات وتتهادى ، ويصل الكثيرون الى طريق الصواب ، كنت أجد هوبكنز يسأل الرئيس دائما بصراحة وعناد : « حسنا يا سيدى الرئيس ... هذه هى المسألة التى تحتاج الى حلنا واقرارنا ، فهل نحن أولا على أهبة الاستعداد لمواجهتها ؟ »

والنتيجة الضرورية لذلك هى مواجهة المشكلة ، ومعنى ذلك حلها والسيطرة عليها ، لقد كان قائدا عظيما للرجال ، ولم يكن أحد فى مقدوره التفوق على حماسته وحكمته حين الازمات ، وكان ولاؤه للضعفاء والفقراء يسير جنبا الى جنب مع مقته الشديد للطغيان ، ولا سيما عندما يبدو هذا الطغيان فى موقف المنتصر .

واستمر الهجوم الجوى المدمر علينا بكل مناورته ، مع تغير يسير ، فقد تأكد هتلر انه عاجز من سحق بريطانيا بغاراته الجوية المباشرة ، وكان هذا الفشل هو الهزيمة الاولى التى ذاق مرارتها ولم تنجح هجماته الوحشية فى تحويل الشعب وحكومته الى موقف الخضوع ، واخذ الاعداد لغزو روسيا فى مطالع صيف سنة ١٩٤١ يستأثر بالكثير من قوة المانيا الجوية ، ولم تكن الهجمات الكثيرة القاسية التى شنت علينا حتى أواخر شهر مايو تمثل كل ما لديه من

قوات وبالرغم من انها سببت لنا الكثير من المتاعب والمآسى فانها لم تكن على جانب كبير من اهتمام القيادة العليا الألمانية أو الفوهرر ، بل كان استمرارها على بريطانيا العظمى فى تقدير الفوهرر تمويها ضروريا ومناسبا ليخفى استعداده ضد روسيا .

وكانت آماله الواسعة تخيل اليه أن السوفييت كالفرنسيين سيتهاوون فى خلال ستة أسابيع ، وأن كافة القوات الالمانية ستكون محتشدة لتوجيه ضربة قاضية لبريطانيا فى خريف ١٩٤١ ، وفى خلال ذلك سيسأم الشعب من عناده ، وتستنفد قواه ، بفضل حصار الغواصات والغارات الجوية البعيدة المدى أولا ، ثم من الهجمات الجوية على مدنه ومرافقه ثانيا ، وقد استبدلت عملية « أسد البحر » بالنسبة لبريطانيا ، بعملية « بربروسا » بالنسبة لروسيا ، وهذا بالنظر الى الجيش الالمانى . أما بالنظر الى الاسطول فقد تلقى تعليمات بأن يركز اهتمامه على طرق مواصلاتنا عبر الاطلنطى ، كما امر السلاح الجوى بالتركيز على موانينا والمداخل الموصلة لها ، وكانت هذه الخطة ابعد ضررا من الهجمات المتفرقة العمياء على لندن وأهلها الآمنين ، ومن يمن الطالع بالنسبة لنا ان الالمان لم يستمروا فى تنفيذها بكل ما تبقى لديهم من قوات ، وبرغبات حازمة ، وأفسد سوء الاحوال الجوية فى شهرى يناير وفبراير خطط العدو واذا استثنينا الغارات التى شنها على كارديف وبورتسماوث وسوانس . فان قوات دفاعنا المدنى قد وجدت الفرصة للراحة المناسبة ، ولكنها لم تضعها هباء بل استغلتها كاملة ، وعندما تحسنت الأحوال الجوية ، شن الهجوم القاسى ثانية ، واخذ السلاح الجوى الالمانى فى شهر مارس فى تنفيذ ما عرف حينئذ « بالتجول على الموانىء » وكانت غاراته فردية أو مزدوجة ، ومع خطورتها الشديدة فقد فشلت فى ايقاف الحركة بموانئنا ، وتعرضت بورتسماوث فى ٨ مارس ، مدى ثلاث ليال متوالية لهجوم شديد الوطأة انزل بأرصفتها خسائر فادحة ، وشن هجوم على مانشستر وسالفورد فى يوم ١١ وفيما تلا من الليالى حان دور ميرسى سايد ، وفى ١٣ ، ١٤ قامت الطائرات الالمانية بغارة شديدة على « كلايد » للمرة الاولى ، فقتلت وجرحت ما يزيد على الفى شخص . وظلت أحواض السفن متعطلة عن العمل حتى شهر يونيو أو شهر نوفمبر ، ولم تنزل أقصى الضربات الا فى شهر ابريل حيث كانت كوفنترى ، فى ٨ منه هدفا لنيران حامية ، أما فى سائر الايام فقد نزلت أفدح الخسائر ببورتسماوث ، وشنت على لندن هجمات قاسية فى ١٦ ، ١٧ فقتل أكثر من الفين وثلثمائة انسان ، واصيب ما يزيد عن ثلاثة آلاف بجراحات بالغة ، واستمر العدو فى

محاولته التدميرية لموانئنا الهامة بغارات قد تستمر فى بعض الأحيان أسبوعا باكمله ، وتهدمت مدينة بريستول ، واستمرت الغارة على بلايموث بين ٢١ ، ٢٩ ابريل ، وبالرغم من أن الحرائق الخادعة قد ساهمت فى انقاذ الارصفة والاحواض الا أن انقاذ ذلك كان على حساب المدينة وبلغ الهجوم غايته فى أول مايو عندما اغير على ليفربول وميرسى سايد سبع ليال متواصلة ، فاصبح سبعة وستون الف انسان بلا مأوى وقتل وجرح حوالى ثلاثة آلاف شخص ، وتعطل عن العمل تسعة وستون ملاذا من ملاذات البواخر التى يبلغ مجموعها مائة واربعا واربعين ، واصبحت الحمولة التى يمكن تفريغها منخفضة الى الربع ، ولو استمر العدو فى هجماته علينا ، لغدت معركة الاطلنطى بالنسبة لنا شاقة للغاية ، ولكنه كان قد عاد ادراجه ، وقصف مدينة « هل » لمدة ليلتين متتاليتين بنيرانه الحامية وقد دمرت قنابله المتفجرة والحارقة مساكن اربعين الف مواطن ، ونسفت مخازن الاغذية ، واصابت الاعمال الهندسية البحرية بالشلل لمدة شهرين كاملين ، وفى هذا الشهر أيضا شن هجوما على « بلفاست » التى سبق له الهجوم عليها مرتين قبل ذلك .

وكانت اخر الغارات أسوأ من سابقتها ، ففى ١٠ مايو عاد العدو الى لندن بقذائفه المحرقة التى اضرمت اكثر من الفى حريق ، ودمرت حوالى مائة وخمسين انبوبا ضخما للمياه ، حدث ذلك أثناء المد الادنى لنهر التايمز فصعب اصلاحها ، وفى الساعة السادسة من صباح اليوم التالى كانت نيران مئات الحرائق مازالت متأججة وقد عز القضاء عليها ، وحتى ليلة ١٣ كانت لا تزال اربع منها مشبوبة النيران ، وقد لحق الضرر بخمسة ارصفة وحدثت احدى وسبعون اصابة كان عدد المصانع من بينها يبلغ النصف على الاقل ، وتعطلت لمدة أسابيع محطات السكك الحديدية سوى محطة واحدة رئيسية ، وظلت الطرق فى حالة غير طبيعية حتى أوائل يونيو ، وسقط اكثر من ثلاثة آلاف شخص بين قتيل وجريح ، وتعتبر هذه الغارة من زاوية اخرى تاريخية ، فقد نسفت مجلس العموم واحدثت قنبلة واحدة اضرارا فادحة يحتاج اصلاحها الى عدد من السنين ، وحمدنا حسن الحظ لان أحدامن اعضاء المجلس لم يكن بالقاعة ، واسقطت بطارياتنا وطائراتنا المحاربة بدورها ست عشرة طائرة مغيرة ، وهو أكبر عدد تكبده العدو اثناء غاراته الليلة .

وكانت هذه الغارة ــ دون أن ندرك ذلك فى حينه ــ آخر غارات العدو علينا ، ففى ٢٢ مايو تحول كيسلرنغ بمقر قيادة اسطوله الجوى

الى بوزن ، ولم تأت بداية شهر يونيو حتى كانت قوات العدو الجوية بأكملها قد تحولت الى الشرق ، فمرت ثلاث سنوات قبل أن يتحرك دفاعنا المدنى بتنظيماته ليعالج آثار « الهجوم الصغير » الذى شن فى فبراير ١٩٤٤ ، وماتبعه من غارات شديدة الوطأة بالصواريخ والقذائف الطائرة ، وكاد عدد ضحايانا من المدنيين فى الاثنى عشر شهرا المنصرمة بين يونيو سنة ١٩٤٠ ، ويونيو سنة ١٩٤١ ، يبلغ حوالى ٤٣و٣٨١ انسانا قتلوا بينما أصيب بجراح خطرة حوالى ٥٠ر٨٥٦ آخرين، مما يصل بالمجموع الى ٩٤و٢٣٧ شخصا .

ان التفريق بين الامور العسكرية والسياسة يصبح متعذرا فى الحروب الكبيرة ، فكل المسائل فى القمة تصبح واحدة، وطبيعى أن يعتبر الجنود الشئون العسكرية فريدة فى نوعها ومتفوقة فى اهميتها وأن ينظروا الى الاعتبارات السياسية نظرة استهزاء وزراية ، ولاريب فى أن كلمة « سياسات » قد لاقت الكثير من الصعوبات ، بل صادفت التشويه لاقترانها بالسياسات الحزبية ، ولذلك فان معظم ماكتب عن هذا القرن الفياض بالمآسى تؤثر عليه الفكرة القائلة انه فى زمن الحرب تؤخذ بكل عناية الاعتبارات العسكرية وحدها ، وان الجنود كثيرا ماتصدم أفكارهم المستنيرة الحرفية تطاولات الساسة ، الذين يلعبون بنيران المعارك الفاصلة انسياقا لمصالحهم الشخصية والحزبية ، ولكن العلاقات الدائمة التى شملتها الثقة بينى وبين وزارة الحرب ورؤساء الأركان ، واختفاء كل أثر فى بريطانيا للحزبية فى تلك الاثناء ، قد قربت وجهات النظر وقللت من سبل الخلاف الى أدنى حدوده

وبينما استمر القتال فى شمال أفريقيا الشرقى سائرا فى طريق النصر وبينما ظل اليونانيون يخترقون لهم طريقا داخل البانيا بكل شجاعة ، كانت الاخبار التى نستقيها عن تحركات الالمان ورغباتهم تؤكد يوما بعد يوم أن هتلر يقترب من التدخل فى البلقان والبحر الابيض على اوسع نطاق ، وقد علمت فى بداية شهر يناير أن وحدة جوية المانية قد نزلت بصقلية ، وادركت ماتعنيه هذه التحركات من خطر على مالطة، ومن تهديد للآمال التى راودتنا بشأن اعادة الملاحة فى البحر الابيض واصبت بالزعر من جراء انتقال قوات المانية وغالبا ما تكون من المدرعات الى طرابلس ، ولم يكن فى مقدورنا أن نرتاب فى أن خطط الالمان كانت تسعى الى ايجاد ممر من الشمال الى الجنوب عبر ايطاليا الى أفريقيا كما تريد فى الوقت ذاته وبنفس الاساليب مصادرة تحركاتنا عبر البحر المتوسط شرقا وغربا .

وكان الخطر الذى يجابه الدول البلقانية ومن بينها اليونان وتركيا

يتجسم امام عيني في صورة اغراء أو ارهاب لتنضم الى امبراطورية هتلر فان لم ترضخ لهذه الرغبة اجتاح حدودها ، وبذلك نشهد ثانية الحركة الخطيرة التي رأيناها في النرويج والدانمرك وهولندة وبلجيكا وفرنسه فعاد مرة ثانية في جنوب شرقي أوربا .

احقا ... سيحكم على الدول البلقانية بالعبودية واحدة بعد اخرى ومن بينها اليونان النافحة ثم تعزل تركيا حتى تضطر آخر الامر الى فتح أبوابها أمام الجيوش الالمانية الجرارة ، فتزحف على فلسطين ومصر والعراق وفارس ؟ .. الا يوجد أمل في تكتيل وحدة بلقانية وجبهة بلقانية، تتقاضى حتى من العدو افدح الاثمان عن هذا العدوان الجديد ، اليس في الاحتمال أن تكون المقارنة البلقانية لالمانيا ردود فعل بالغة الاثر توقظ الامل في روسيا السوفييتية، لاشك أن في هذا الميدان تتأثر مصالح الدول البلقانية نفسها ، وقد تتأثر المشاعر أيضا اذا سمح البلقانيون لمشاعرهم أن تتأثر على حسابهم ، وهل نقدر بمواردنا المستنزفة والمتزايدة في الوقت نفسه ان نعثر على المشاركة الخارجية الاضافية التي تسعى لتوحيد هذه الدول المتماثلة للعمل من أجل هدف واحد أو ان الواجب علينا من ناحية اخرى ان نركز اهتمامنا على أمورنا ، وأن نحرز نصرا من حملتنا في شمال شرق افريقيا ، وأن ندع اليونان والبلقان وتركيا وغير ذلك من بلاد الشرق الاوسط تنزلق نحو هاويتها المنتظرة؟ لاشك في ان هذا الراى الاخير يعفى الكثيرين من المتاعب والتفكير ، وقد لقى معضدين له في رسائل كل الضباط الذين كانوا يحتلون مراكز ثانوية ، والذين بعثوا بارائهم ، ولاشك في أن هؤلاء الضباط قد انتهزوا فرصة الحديث عما حل بنا من اضرار ، ولكن معلوماتهم لم تكن كافية ليعرفوا المصير الذى كان ينتظرنا لو سرنا وفق وجهة النظر هذه ولو استطاع هتلر دون قتال أن يجبر اليونان على الخضوع وان يرغم جميع الدول البلقانية على طاعته ، وأن يفرض على تركيا عبور قواته الى الجنوب والشمال ، الا نتوقع حينئذ أن يتفاهم مع السوفيت على السيطرة على هذه المناطق الشاسعة وتقسيمها ، ثم يقوم بتأجيل موقعته الفاصلة معهم الى أجل آخر في حسابه ؟ ثم الم يكن في مقدوره اذا دانت له كل هذه الرغبات ان يشن هجومه على روسيا بجيوش اكبر وفي ميعاد اسبق ؟ وفي الفصول التالية ساحاول التعمق في بحث سؤال رئيسى وعرضه في صورة سليمة ، ويتلخص هذا السؤال فيما اذا كان مانفذته الحكومة البريطانية بالغ الاثر بصور واضحة على تصرفات هتلر في جنوب شرق أوربا ، وأنه ادى الى نتائج بعيدة المدى في نظرة روسيا للامور أولا ، وفي مصيرها ثانيا .؟ وطوال شهرى يناير وفبراير كانت تصلنا أخبار طيبة من ميدان الشرق الاوسط فقد أعد الدفاع عن مالطة

فاستطاعت الصمود فى آخر لحظة ، لغارة مجتاحة قام بها السلاح الجوى الالمانى عليها من صقلية ، واقتربت عملية احتلال الامبراطورية الايطالية فى الاريتريا والصومال والحبشة من نهايتها المنتصرة ، وفى خلال شهرين استطاع جيش الصحراء أن يستمر فى زحفه الى مسافة خمسمائة ميل وأن يقضى على جيش ايطالى يربو تعداده على تسع فرق ، وسيطر جيش الصحراء على بنغازى ومنطقة برقة بأكملها ..

وبالرغم من كل هذا فقد ظلت المسائل المحفوفة بالخطر من دبلوماسية وعسكرية بالغة الاهمية وكان الجنرال ويفل تتراكم عليه التبعات مما حدا بلجنة الدفاع أن توفد فى ١١ فبراير وزير الخارجية والجنرال ديل رئيس أركان حرب الامبراطورية الى القاهرة ، وطار ايدن من القاهرة الى اثينا يرافقه ويفل وغيره من الضباط الكبار لاجراء مشاورات مع ملك اليونان وحكومته .

وقرأ المسيو كوريسيس رئيس وزراء اليونان أثناء الاجتماع بيانا تضمن قرارات كان قد انتهى اليها مجلس وزراء اليونان فى اجتماع عقده فى اليومين السابقين ، ولان هذا البيان قد اصبح قاعدة لاعمالنا فانى أورد القسم الحيوى منه هنا تاما ! أود أن أؤكد ثانية أن اليونان كحليفة تضمن قرارات كان قد انتهى اليها مجلس وزراء اليونان فى اجتماع عقده فى اليومين السابقين ، ولان هذا البيان قد اصبح قاعدة لاعمالنا مخلصة ستظل ماضية فى القتال باصرار حتى يتحقق النصر ، ولاتقتصر عزيمتها على مناهضة ايطاليا وحدها بل يشمل ذلك اى عدوان المانى .. وأيا كان الامر وسواء كان لليونان نصيب فى صد الهجوم عن مقدونيا أم لم يكن فانها ستظل مدافعة عن أراضيها حتى ولو اضطرت الى الاعتماد على قوتها وحدها دون عون آخر وقد ابانت الحكومة اليونانية انها صممت على هذا القرار قبل أن تتأكد من مقدرتنا على مساعدتها أم عدم استطاعتنا ذلك ، فأكد المستر ايدن لهم أن عزم لندن قد انعقد مع كل قادتها فى الشرق الاوسط على بذل كل عون لمؤازرة اليونان ، واستمرت المؤتمرات العسكرية ومحادثات الاركان طوال الليلة ، وفى ثانى يوم أرسل الينا ايدن فى ٢٤ فبراير ببرقية بالغة الاهمية هذا نصها :

« لقد هزتنا صراحة المفاوضين اليونانيين ووضوح آرائهم فى سائر الشئون التى اتممنا بحثها وانى على يقين من اصرارهم على المقاومة لآخر جهد فى طاقتهم ، وليس أمام حكومة صاحب الجلالة سوى أن تؤازرهم بصرف النظر عن كل النتائج ، ونحن على يقين تام باننا قد آثرنا السبيل السوى ، ولما كانت الساعة قد اعلنت الحادية عشرة فانى

متأكد انك لا ترغب فى الاطالة ، مؤجلا التفاصيل حتى التقى بكم ، ان المغامرة ضخمة ، ولكن الامل فى النجاح كبير »

وعلى هدى من هذه المكاتبات التى حملت موافقة كل من ديل وويفل اصدرت وزارة الحرب تأيدها للاقتراحات تأيدا كاملا .

سافر المستر ايدن بعد ذلك الى انقرة ، حيث قام بمشاورات طويلة مع الاتراك ، ولم يصل الى نتائج مشجعة ، فالاتراك يدركون الصعوبات التى تواجههم كما ندركها نحن ولكنهم يقررون أن ليس فى وسعنا تقديم قوات بالقدر الكافى لتغيير نتيجة اى معركة فاصلة ولانه لا توجد لديهم أية قوة هجومية فقد رأوا أن مايستطيعون ان يقوموا به هو ان تلتزم بلادهم بموقف الحياد الى أن يستكملوا جوانب النقص التى يحسون بها ، والى أن تصير قواتهم على درجة كافية من التأثير والفعالية ، أما اذا شن عليها هجوم فانها ستخوض غمار الحرب بكل تاكيد ، وقد ادركت كاملا الموقف الذى تواجهه تركيا ، وبدا من الصعب عليها أن تلتزم بالمعاهدة التى ابرمت معها قبل الحرب لتغير الظروف وعندما بدأت الحرب فى عام ١٩٣٩ ، واستعد جيش تركيا الباسل ولكن هذا الجيش يعتمد على وسائل الحرب العالمية الاولى والمشاة الاتراك من أفضل الجنود ومدفعيته مقبولة ولا غبار عليها ، ولكنهم يفتقرون الى الاسلحة الحديثة التى أكدت منذ مايو ١٩٤٠ أنها فاصلة فى الحرب الدائرة كما أن الطيران التركى كان فى صورة بدائية هزيلة الى درجة تستدعى الرثاء وليس فى حوزتهم أيضا دبابات أو سيارات مدرعة ، كما لاتوجد عندهم المصانع التى تنتجها أو تشرف على صيانتها وليس فى حوزتهم أية مدافع مضادة للطائرات أو الدبابات أما سلاح الاشارة فساذج ، والردار شىء لا ندرى به ، كما أن جنودها ليس لديهم التأهيل الكافى لادراك هذه التطورات الحديثة .

أما بلغاريا فقد قامت المانيا بتسليحها بكميات ضخمة من العتاد من شتى الانواع التى غنمتها من فرنسا والبلاد المنخفضة بعد معارك سنة ١٩٤٠ وبهذا أمكن لالمانيا أن تجد فائضا من العتاد تسلح به حلفاءها ، أما نحن فقد خسرنا كثيرا فى دنكرك وكان علينا ان ندعم قواتنا لنصد اى هجوم على الوطن ونجابه أقسى الغارات على مدننا فى الوقت الذى نواصل فيه القتال فى الشرق الاوسط ، ولهذا لم يكن فى مقدورنا ان نبذل الكثير ولا أن نضحى مما يلزمنا .

وهكذا نرى ان الجيش التركى فى تراقيا ، سيكون بالنظر الى هذه الظروف فى حالة سيئة وربما يائسة تجاه الجيش البلغارى ، فاذا

ضاعف هذا الخطر اسراب من سلاح الجو الالمانى ووحدات من السلاح المدرع فان مهام تركيا ستصبح فوق المستطاع .

وفى هذه المرحلة المهددة بخطر امتداد الحرب كان الامل الوحيد هو خلق كتلة واحدة تضم جيوش يوغوسلافيا واليونان وتركيا وكان هذا مانسعى الى تحقيقه وتمثل عوننا لليونان فى ارسال ، بعض الاسراب الجوية من مصر عندما بدأ موسولينى زحفه عليها واقتصرت المرحلة التالية على تقديم عرض بارسال وحدات فنية وقد رفضه اليونانيون، لاسباب احسبها معقولة جدا ، وهانحن نقدم على المرحلة الثانية حيث رأينا ان فى وسعنا حشد جيش صحراوى قوى فى بنغازى وفيما وراءها ، لنوفر الجزء الاعظم من قوات المناورة والاحتياط الاستراتيجى لمصر .

وكنا الى ذلك الوقت لم نقدم على اية خطوة سوى تركيز معظم الاحتياطى الاستراتيجى من قواتنا فى الدلتا ، ورسم الخطط والاستعداد اللاحى لارسال قوات الى اليونان ، واذا تغيرت الظروف بحدوث تغير فى وجهة النظر اليونانية او لاى اسباب أخرى فسنقدر على مواجهة الوضع ومقابلة الطوارىء ، وكان من المحتم علينا بعد كل الذى لقيناه من ضغط شديد ان نستطيع انهاء القتال بنجاح فى الحبشة والصومال والاريتريا ، وأن نضم عددا من الفرق الى قواتنا المرابطة فى مصر وفى الوقت الذى صعب فيه معرفة نوايا العدو أو مدى ردود الفعل ونوعها عند الاصدقاء والمحايدين ، اتسع مجال الاختيار أمامنا وظل المستقبل بالنسبة الينا فى غاية الغموض ، ولكننا لم نبعث بقواتنا بعد ولم نضيع أى يوم فى الاعداد .

معركة الاطلنطى

الشىء الذى اثارنى حقا فى غضون الحرب كان هو تهديد الغواصات فقد كنت متأكدا من فشل الغزو ، وقد مهلت ليقينى هذا نتائج المعركة الجوية فقد احرزنا النصر الجوى ، وبذلك اصبح الغزو شيئا طيبا بالنسبة لنا ، حيث يخوض الانسان معاركه برضى بغض النظر عن شناعة الحرب وقسوة ظروفها ، ونحن الآن نواجه خطرا شديدا اذ ان شريان حياتنا حتى فى غمار المحيطات وخصوصا فى مداخل جزرنا يهدد باستمرار وكان القلق ينتابنى من جراء هذه المعركة اكثر مما لقيته واشد حين خضنا غمار المعركة الجوية المجيدة فى سماء بريطانيا .

واستولى هذا القلق ايضا على الاميرالية الذين كنت دائما معهم فى ود وتفاهم مستمرين ، وكان يتحتم علينا حماية شواطئنا من اى غزو واستمرار خطوط مواصلاتنا مع العالم الخارجى حرة دائمة ، وكان هذا العمل واجبا مقدسا يقتنع به اسطولنا ويحرص عليه ، وهكذا كنا دائمى التفكير والبحث فى هذه الازمة ، وليست هذه المعركة قتالا عنيفا أو اعمالا خلابة ولكنها عبارة عن أرقام ومخططات ورسوم بيانية لا يستطيع الشعب ولا الجماهير معرفتها ولا تفهمها .

فالى اى مدى تستطيع ان تصيب به حرب الغواصات وارادتنا وملاحتنا وهل فى وسعها ان تصل الى حد القضاء على مقومات حياتنا وهنا لا يتسع المجال للحدس ولا للعواطف ولكنه يقتضى التخطيط الهادىء الدقيق ورسم الخرائط التى توضح احتمالات خنق حياتنا ، فاذا ما عقدنا مقارنة بين نتائج هذه الحرب ونتائج الحروب الأخرى ظهر لنا ان لا قيمة للجيوش الباسلة المستعدة للوثب على الغزاة ، ولا لما اعد من خطط جيدة لمعركة الصحراء ، كما ان لاجدوى من الروح المعنوية العالية التى يتحلى بها شعب فى مثل هذا الخضم المظلم ، وليس لنا ان نختار فاما ان نحصل على الغذاء والمؤن والسلاح من العالم الجديد ومن الامبراطورية واما ان نحصل على شىء من ذلك ، اما الالمان فبعد ان استطاعوا السيطرة على سواحل فرنسا من دنكرك الى بوردو لم يضيعوا وقتهم عبثا ، بل سارعوا الى اقامة قواعد لغواصاتهم ولطائراتهم المقاتلة

على مدى الساحل المحتل ، وبعد شـــــهر يوليو اضطررنا الى تحويل ملاحتنا من مداخل ايرلنده الجنوبية حيث لم تستطع حشد طائرات مقاتلة ، وفرض علينا ان تدور كل سفننا حول ايرلنده الشمالية، وقد ظلت الستر هنا صامدة بعون الله ، كحارس لاينام ، فميرس وكلايدهما رئتان بدونها لا نستطيع استنشاق الهواء ، واستمرت البواخر الصغيرة تمر قرب الشاطىء الشرقى وشواطىء القناة على الرغم من تهديد الغارات الجوية ، وهجمات زوراق الطوربيد الالمانى ، فضلا عن الالغام المبثوثة فى كل مكان ولكن مرور كل قافلة بين فيرث أوف فورث ولندن وحده قد أصبح عملية يومية فى غاية الصعوبة .

واصبحت الاضرار التى لحقت بملاحتنا التجارية فادحة ، فى مدة الاثنى عشر شهرا من يوليو ١٩٤٠ الى يوليو ١٩٤١ ، وهو التاريخ الذى كنا نستطيع ان نؤكد فيه انباء انتصارنا فى معركة الاطلنطى وكان أشد الاسابيع علينا منذ نشب القتال هو الاسـبوع الذى ينتهى بيوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٤٠ وفى خلاله منينا بغرق حمولة اكثر من اية حمولة خسـرناها فى ظروف مشابهة من عـام ١٩١٧ وتزايد الضغط علينـا باستمرار ، بينما الخسائر كانت تربو على أعداد البواخر الجديدة التى نسرع فى بنائها بصورة مذهلة ، اما موارد الولايات المتحدة الهائلة فقد كانت تقترب من ميدان العمل ببطء وعلى هوادة ، ولم يكن احتمالنا ان نرث فجاة عددا من السفن كتلك التى غنمناها بعد استسلام النرويج والدانمارك والبلاد المنخفضة فى ربيع سنة ١٩٤٠ ، فقد فقدنا سبعا وعشرين باخرة أغلبها كان فى قافلة محروسة ، ثم منينا بقافلة أخرى فى شهر اكتوبر بالاطلنطى ، غرقت منها اثنتان وعشرون من بواخرنا التى يبلغ مجموعها أربعا وثلاثين ، ومع مرور أيام شهرى نوفمبر وديسمبر بدات مداخل ومصبات الانهر كالميرس وكلايد تمثل خطرا أشد من اية عوامل اخرى فى الحرب ، وكنا نستطيع آنذاك ان ننزل على ايرلنده ديفاليرا وأن نعيد الينا بالقوة السيطرة على الموانىء الجنوبية . ولكنى اعلنت سابقا اننى لن اتخذ خطوة كهذه الا دفاعا عن النفس ، وعلى أية حال لم تكن مثل هذه الخطوة الجريئة العنيفة لتخفف شيئا من حدة الموقف وقسوته ، وكان الاجـراء الوحيد هو أن نضمن حرية الدخول والخروج من نهرى المرسى والكلايد واليهما ، وكانت القلة العارفة بحقيقة الموقف عندما تجتمع فى كل يوم ينظر كل منهم الى الآخر ، وفى استطاعة الانسان ان يدرك حالة الغواص تحت سطح البحر وهو يعتمد من دقيقة الى الاخرى على الانبوبة الهوائية الممتدة للخارج ، ومدى شعوره حين يرى مجموعة من كلاب البحر . تحاول أن تمزق له هذه الانبوبة ، بالاضافة الى انه لايجد فرصة للوصول الى السطح لأن الواقع ان ليس هناك سطح

بالنسبة الينا ، ولم يكن الغواص سوى ستة وأربعين مليونا من البشر في جزيرة غاصة بالسكان ، يستمرون في عمل كبير وشاق هو الحرب في شتى أنحاء العالم ، وقد استقر هذا الغواص بحكم الطبيعة والجاذبية في قاع البحر ، وماذا يمكن لكلاب البحر ان تصنعه بأنبوبة هوائه وكيف يستطيع اقصاءها عنه او تحطيمها ؟..

وثمة جانب آخر لحرب الغواصات ، فقد كانت الامبرالية في بداية الامور تركز اهتمامها قبل كل شيء في ايصال البواخر سليمة الى الميناء ويحدد نجاحها قلة عدد البواخر الغارقة ، ولكن هذه التجربة لم تعد الآن ملائمة ، فقد أصبحنا نعرف أن حياة هذه البلاد وجهودها الحربية يركزان بصورة ثنائية على حمولة الواردات التي يتم انزالها على الميناء في سلام ففي الاسبوع الذي انتهى بيوم ٨ يونيو أي في غمار معركة فرنسا وقصة انقاذها ، استطعنا ان نوصل للبلاد حمولة مليون وربع مليون طن فضلا عما نستورده من الزيت، وقد تدرجت الارقام في الهبوط من هذه الذروة حتى نهاية يوليو الى اقل من ثلاثة أرباع المليون طن كل اسبوع وفضلا عما اصابنا من تحسن في شهر اغسطس فقد كان المعدل الاسبوعي لا يزال في هبوطه ولم يتعد طيلة الشهور الثلاثة الأخيرة من العام ثمانمائة الف طن في الأسبوع ، واصابني هذا الهبوط المشئوم في الواردات بقلق شديد وارسلت الى لورد البحر الاول في منتصف شهر فبراير سنة ١٩٤١ رسالة بخط يدي اقول فيها « ان الارقام تشير الى ان وصول البواخر المحملة في شهر يناير كان اقل من نصف ماوصل الينا في مثل هذا الشهر من السنة الماضية »

ونظرا لوسائل التامين الكثيرة وتقدمها ، وتسيير السفن ، وتحويل الطرق البحرية ومحاولات تطهير البحر من الالغام المبثوثة ، وعدم ابحارنا في المتوسط ، وامتداد طرق مواصلاتنا في الزمن والمسافة ، والتخلف في الموانيء نتيجة للغارات الجوية وعمليات التعتيم ، كل ذلك ادى الى هبوط انتاج حركتنا الملاحية الى حد مزعج تفوق خطورته كل ما اصبنا به من اضرار ، وازدحمت موانينا يوما بعد يوم بالبواخر التي يتأخر تفريغ شحناتها ولم يأت شهر مارس حتى غدت البواخر المصابة تبلغ حمولتها حوالي مليونين وستمائة الف طن ، لا يستطيع اكثر من نصفها مباشرة العمل لما يلزمها من استصلاحات .

وفوق خطر الغواصات دهمنا خطر آخر تمثل في الطائرات التي تذهب الى أعماق المحيط تبحث عما تفترسه من البواخر، وكانت الفوكا وولف ٢٠٠ « المعروفة باسم كوندور هي أشد هذه الطائرات

خطورة وان كان عددها قليلا من بداية الأمر لحسن حظنا وفىمستطاع هذه الطائرات أن تقلع من بريست أو بوردو لتقوم بجولة على شواطىء الجزر البريطانية ثم تتزود ثانية بالوقود من النرويج لتؤوب فى اليوم التالى الى مقرها الاول ، وفى وسع هذه الطائرات فى الذهاب والعودة ان تبصر قوافلنا الكبيرة تحتها المكونة من أربعين أو خمسين باخرة ، ارغمنا على تسييرها فى قافلة واحدة بالنظر الى قلة ما نجده منوحدات الحماية ، وهى تقوم برحلاتها من الجزر البريطانية واليها داخلة وخارجه ، وفى مقدور هذه الطائرات أن تسقط على هذه القوافل لو البواخر المنفردة قذائف ماحقة وان ترسل فى ذات الوقت اشارات لاسلكية للغواصات المتحفزة لتوجهها الى قطع الطريق عليها .

ودب النشاط فى الطرادات الالمانية العنيفة، فالأميرال شير تعمل الآن فى جنوب الأطلنطى متوجهة الى المحيط الهندى ، وقد استطاعت خلال ثلاثة اشهر اغراق عشر بواخر تبلغ حمولتها ستين الف طن ثم تمكنت من الافلات والرجوع الى المانيا ، وكانت « هيبر » لاجئة فىميناء بريست ، وفى نهاية شهر يناير تلقت البارجتان ـ الطرادتان شارنهورست وغنيزناد ـ بعد أن تم قبل قليل اصلاحهما لحق بهما من تعطيل فى معركة النروج ، تلقتا أمرا بالمسير الى شمال الاطلنطى ، بينما تقوم « هيبر » بالاغارة على الطريق البحرى الممتد الى سيراليون واستطاعت الطرادتان خلال شهرين اغراق أو أسر اثنتين وعشرين باخرة تبلغ حمولتها مائة وخمسة عشر الف طن ، أما « هيبر » فقد اغارت على قافلة فى طريقها الى الوطن بالقرب من جزر الأزور ، ولم تكن لحقت بها وحدات للحماية بعد ، واستطاعت فى اغارتها الوحشية التى استمرت زهاء ساعة كاملة اغراق سبع بواخر من تسع عشرة باخرة تالفت منها القافلة دون أن تحاول قط انقاذ الناجين من البحر، ثم اتت سالمة بعد يومين الى بريست ، وقد اضطرتنا هذه الطرادات المفزعة الى ان نحشد كل ما لدينا منبوارج حربية ضخمة فى تأمين القوافل ، وقد مضى وقت ولم يكن فى قاعدة القائد العام لاسطولنا غير بارجة وحيدة .

ولم تكن بسمارك قد انضمت الى البواخر المستخدمة بعد ، ولا شك فى أن الأميرالية الالمانية كانت ترقب اتمامها بصبر نافد ، واكمال قرينتها تيربيتز ، ولم يكن هناك سبيل يمكن لهتلر أنيستخدم فيه بارجتيه الهائلتين بطريقة أكثر فائدة وجدوى من وجودهما على اهبة الأستعداد دائما فى الاطلنطى ، واشاعة الامتناع عن خروجهما المحتمل من وقت لآخر وكان مثل هذا العمل سيفرض علينا أن نركز

قواتنا بقدر المستطاع في سكابافلو أو ضواحيها، لنكون كفءا لاستعداده، بينما يظل هو حرا تماما في اختيار وقت العمل ، ولاضطرار البوارج لان تذهب الى قواعدها بين الحين والحين بسبب احتياجها الى بعض الترميمات والاصلاحات فقد كان يتعذر علينا دائما الاحتفاظ بمستوى من التفوق والكفاءة ، فأي خطر مفاجيء كان كافيا لتدمير هذه الكفاءة.

وظللت افكر ليل نهار في هـذه المشـكلة المرعبة ، وتجمع أملي في نصر مؤكد ، في قدرتنا على اثارة حرب طويلة الآن الى ان يأتي اليوم الذي نملك فيه التفوق الجوي ، وتقف دول كبيرة ـ كما هو المحتمل ـ الى جانبنا ، ولكن هـذا الخطر الذي كان يقف بالمرصاد لاسـباب حياتنـا كان يفعمني الما ، وفي بداية شـهر مارس نقل الاميرال باوند الى وزارة الحرب اخبارا عن ابتلاع البحر لمجموعة أخرى من البواخر، واستمعت الى الارقام ، ثم قلت لباوند بعد هـذا الاجتماع الذي تم في غرفتي بمجلس العموم : (علينا أن نضع هذه المشكلة في اعتبارنا وان نهتم قبل أي شيء آخر ، وسأعلن بداية حرب الاطلنطي) وأشبه هذا الاعلان اعلاني السابق عن معركة بريطانيا منذ تسعة أشهر ، ويعني ذلك الايعاز الى كافة الدوائر والوزارات المختصـة بتركيز اهتمامهـا وجهودها على حرب الغواصات .

وانشأت (لجنة معركة الاطلنطي) لرغبتي في متابعة هذه المشكلة واعطائها مزيدا من العناية والاهتمام ، ولأستطيع باستخدامها توجيه التعليمات الضرورية لازالة المصاعب والعقبات وفرض العمل على معظم الدوائر والفروع المختصة ، وبدأت هذه اللجنة في اجتماعات اسبوعية يشترك فيها كل الوزراء والمنفذين المعنيين من عسكريين ومدنيين . ويمتد الاجتماع الأسبوعي الى ساعتين ونصف تقريبا، نستعرض خلاله كل أمر ، ونبحث في كل موضوع ، بل نقتل المشكلة بحثا وتمحيصا ، لننتهي الى قرارات واضحة ، وهكذا وجدت هـذه اللجنة الجـديدة التي كوناها من الدوائر الواسعة لقيادتنا الحربية التي تضم الألوف من الرجال ذوي الخبرة والولاء ، والتفت حول هـذه اللجنة مئـات العيون الفاحصة القلقة .

وفي هذه الآونة اخذت الغواصات تستخدم طرقا جديدة أصبحت تعرف بأسلوب (جماعات الذئاب) ويعني هذا الاسلوب أن تشـترك مجموعة من الغواصات في عمل واحد ، وأن تنقض على الفريسة دفعة واحدة من جوانب مختلفة ، وكانت هذه الهجمات آنذاك تشن ليلا ، وعلى سطح البحر ، وفي غاية السرعة ، وكان في مقدرة المدمرات وحدها ان تلحق بهذه الغواصات بينما لم تكن أجهزة المكافحة ذات جدوى ،

وكان الحل يتمثل فى زيادة عدد الحارسات السريعة كالغواصات ، وفى تحسين الرادار بصورة جوهرية ، بحيث تقــدر شاشته على انذارنا باقتراب الغواصات قبل وصولها واخذ العلماء والبحــارة والطيــارون يبذلون كل ما فى استطاعتهم ، وبرغم ذلك كانت النتــائج تمشى على مهل ، وكنا فى احتياج الى ســلاح جوى ينسف الغواصات العائمة ، والى وقت ندرب خلاله قواتنا على ذلك ، فاذا ما توصلنا الى ســد هذين الاحتياجين فان الغواصات ســتمضى الى الاعمــاق كوضعها المعتاد ، ويصبح فى مقدورنا معالجة ذلك بوسائلنا القديمــة وخبراتنــا التى مهدنا عليها ، لكن هذا لم يتحقق الا بعد مرور عامين .

وفى خلال ذلك كان برايان المعروف وسواه من قادة الغواصات الالمانية يســتخدمون فى اندفاع اســلوب (جماعات الذئاب) الذى انتجه الاميرال دونتس قائد ســلاح الغواصات ، وقبطان الغواصات الذائع الصيت فى الحرب العالمية الاولى ، ولكن عــدالة القصاص لم تمهلهم فقد غرق برايان مع جميع رجاله على ظهر غواصته (يد ٤٧) فى ٨ مارس بواسطة المدمرة وولفرين ، وما مرت تسعة أيام حتىنزل الغرقبالغواصتين (يو٩٩ ويو١٠٠) فىقتال اشتد أواره عقبمهاجمتهما لاحدى القوافل ، وكان قائداهما من ألمع الضباط البحريين ، فأدى فقدان هؤلاء الثلاثة المتازين الىضعف هجوم الغواصات، وكانالقادة الذين تبعوهم الى العالم الثانى من طرازهم كفاءة وشجاعة ، ففىشهر مارس عرفت خمس غواصات فى المداخل الغــربية وبرغم أن هجوم الغواصات قد الحق بنا اضرارا بالغة ، تمثلت فى (٢٤٣) الف طن، غير (١١٣) الف طن تكبدناها على أيدى الطائرات ، فان الجولة منمعركة الاطلنطى قد انتهت بنتيجة متعادلة بيننا وبين العدو .

ولما رات الغواصات خسائرها الفادحة فىالمداخل الغربية، اتجهت الى الغرب أى الى المياه التى لا يمكن للمدمرات الكثيرة ان تصل اليها بالنظر الى حرماننا من موانىء ايرلندة الجنوبية ، والتى لا تقدر على حمايتها جويا بالنظر الى بعدها ، ولم يكن فى مقدور مدمراتنا انتحرس قوافلنا المقلعة من المملكة المتحدة فى طريقها الى هاليفاكس غير مسافة ربع الطريق فقط ، وفى بداية شهر ابريل اغارت ارتال منالغواصات بطريقة (جماعات الذئاب) علىقافلة بريطانية عند خطالطول ٢٨درجة، غربا ، قبل ان تلحق بها الوحدات المدافعة عنها ، وقد غــرقت عشر بواخر من اثنتين وعشرين مقابل غواصة واحــدة ، واضطررنا الى أن نبحث عن وسائل كافية لحمايتنا ، والا فان نهايتنا ستكون قريبة .

وتقع جزر نيوفوندلند وغرينلند وايسلنده بين كندا وبريطانيا

العظمى ، وهذه الجزر جميعها تقع بالقرب من جناح الدائرة الكبرى بين هاليفاكس وسكوتلندا ، وفى استطاعة قوات تكمن فى (نقطة الوثب) هذه أن تسيطر على الطريق كله بعد توزيعه الى قطاعات ، وكانت غرينلند لا يوجد بها اى مورد ، أما الجزيرتان الاخريان فالأفادة منهما مستطاعة ، وكان من الاقوال الشائعة « ان من يسيطر على ايسلنده وبيده مسدس يمكنه ان يسدده فى ثقة الى انجلترا وامريكا وكندا » وكانت هذه الفكرة هى التى دفعتنا الى احتلال الجزيرة بعد موافقة الاهالى عندما احتل الالمان الدانيمرك فى عام ١٩٤٠ واقمنا فيها قواعد فى ابريل عام ١٩٤١ لفرق حراستنا البحرية وطائراتنا وبهذه الطريقة امتد اتساع حراستنا السطحية الى خط الطول (٣٥) درجة غربا ؛ وبالرغم من ذلك فقد بقيت هناك ثغرة مروعة فىالغرب ، لم يكن فى مقدورنا آنذاك سدها ، وفى شهر مايو اغير على قافلة آتية من هاليفاكس عند خط الطول (٤١ غربا) وخسرنا تسع بواخر ، قبل أن تلحق النجدة بالقافلة .

وبدأ من المحتم علينا فرض الحماية من الطرف الى الطرف اى من كندا الى بريطانيا ولهذا طلبت الاميرالية فى ٢٣ مايو من حكومتى كندا ونيوفوندلاند أعداء ميناء سنت جون فى نيوفوندلاند كقاعدة أمامية لوحدات الحراسة المشتركة ، وكانت الاستجابة سريعة ، فلم تأت نهاية الشهر حتى تحققت الحراسة الدائمة على طول الطريق ، ومنذ ذلك الوقت تعهد الاسطول الملكى الكندى بأن يقوم بحماية القوافل فى القطاع الغربى منطريق المحيط، بامكانياته وحدها وكانفىاستطاعتنا أن نضمن من ايسلنده ومن بريطانيا العظمى حماية كافية على باقى الطريق ومع ذلك فقد ظلت القوات التى لدينا قليلة الى درجة مزعجة واستمرت خسائرنا فى التزايد ، وقد استطاعت الغواصات وحدها فى الاشهر الثلاثة المنتهية بآخر مايو اغراق ١٤٢ باخرة تبلغ حمولتها ٨١٨ر٠٠٠ طن منها ٩٩ باخرة بريطانية .

وفى غمار هذا التوتر الشديد ، قام الرئيس روزفلت ، بمقتضى السلطات التى خولها له الدستور الامريكى ، ولأنه القائد الاعلىللقوات المسلحة ، بمد يد المعونة العسكرية لنا — فقد أصدر امرا بعدم السماح للغواصات الالمانية والسفن الاخرى المهاجمة بأن تقترب من الساحل الامريكى ، وأن يضمن له وصول الذخائر التى كان يرسلها الى بريطانيا سالمة حتى منتصف الطريق على الاقل ، وتمخض عن الخطط التى كانت قد اعدت منذ زمن طويل مشروع يقتضى بأن تتضامن الدولتان الناطقتان بالانجليزية فى حماية المحيط الاطلنطى ، ولاقناعنا بوجوب اقامة قاعدة لنا فى ايسلنده ، فقد بادر الرئيس

روزفلت الى اتخاذ الخطوات اللازمة لاقامة قاعدة جوية امريكية فى جرينلند ، وكان من المسلم به أن الالمان انشأوا محطات لرصد الاحوال الجوية على الشاطىء الشرقى من الجزيرة فى مواجهة ايسلنده ، ولهذا اتى عمل الرئيس فى وقته المناسب واصدر الرئيس أوامره الاخرى التى تقضى بأن تتوجه السفن المصابة فى معارك البحر المتوسط أو غيره من البحار لاجراء عمليات اصلاحها فى الاحواض الامريكية ، مما يسر الكثير من العبء الملقى على أحواضنا .

وفى مطلع شهر ابريل وصلتنا أنباء رائعة ، فقد تلقيت برقية من الرئيس فى ١١ ابريل يخبرنى فيها أن أمريكا قد قررت توسيع دائرة امنها التى تجوب فيها دورياتها ، وهو الاجراء الذى اتخذته منذ ان نشبت الحرب ، الى خطر يمر بكل مناطق شمال الاطلنطى الواقعة الى الغرب من خط الطول ٢٦ درجة غربا ، وتحقيقا لهذه الغاية فهو يقترح ، أن تستخدم الطائرات والقطع البحرية العاملة من غرينلند وينوفوندلند ونوفاسكوشيا والولايات المتحدة وبرمودا وجزر الهند الغربية مع توقع امتداد ذلك الى البرازيل ، وحثنا على ان تصله تحركات قوافلنا فى طريقة غاية فى السرية (لنتمكن بمجموعات دورياتنا من التنقيب عن سفن الاعداء او طائراتهم التى تعمل الى الغرب من خط منطقة الأمن المذكورة) ومن جهة اخرى سيسرع الامريكيون فى الاعلام بالمناطق التى تحدد دورياتهم وجود السفن او الطائرات المعادية فيها ، وقد ارسلت هذه البرقية مباشرة الى الاميرالية وانا أشعر بارتياح بالغ .

واعلنت حكومة امريكا فى ١٨ أبريل خط الحدود الجديد الذى يفصل بين نصف الكرة الارضية الغربى ونصفها الشرقى وهو الذى أشار اليه الرئيس فى برقيته السابقة ، ومنذ ذلك التاريخ أصبح هذا الخط هو الحدود البحرية لامريكا ، وقد شملت الممتلكات البريطانية التى تقع فى القارة الامريكية او بالقرب منها ، وغرينلند وجزر الازور ثم شملت بعد قليل ايسلنده كذلك واكد هذا القرار ايضا أن السفن الحربية الامريكية ستقوم بأعمال الدورية فى مياه نصف الكرة الغربى، وسترسل الينا مباشرة عن اى تحركات معادية ، لكن أمريكا حرصت على موقف الحياد ولم يكن فى مقدورها آنذاك أن تضفى حمايتها على قوافلنا ، فظلت بريطانيا وحدها تضطلع بعبء هذه المشكلة طيلة الطريق .

وكانت سياسة الرئيس الجديدة بعيدة النتائج ، واستمر نضالنا ، وقد خف عبء كبير من أعبائنا ليقوم به الاسطولان الكندى

والامريكى ، وبدأت أمريكا رويدا رويدا تقترب من حلبة الصراع ، وقد قوى هذا التيار العالمى اختراق البارجة بسمارك الأطلنطى فى نهاية شهر مايو ، فعلى اثر ذلك اعلن الرئيس فى ٢٧ مايو ــ وهو التاريخ الذى غرقت فيه بسمارك ــ أن انتظارنا حتى يدهمنا الخطر نوع من الانتحار ، ولهذا فقد وسعنا اعمال دورياتنا شمالا وجنوبا فى مياه الاطلنطى وما كاد الرئيس ينهى خطابه حتى اعلن فى البلاد « حالة الطوارىء لأجل غير مسمى » .

وليس هناك أى برهان على أن الالمان قد هزتهم هذه الخطوات من قبل أمريكا فقد أراد الاميرالان ريدر ودونتس أن يصدر الفوهرر امرا بتوسيع المجال للغواصات الألمانية ، ويطلق لها حرية العمل فى اتجاه الساحل الامريكى وضد البواخر الامريكية اذا سارت فى قوافل أو بدون أضواء ولكن هتلر ظل عنيدا فى موقفه ، لانه كان لا يأمن عاقبة الحرب مع امريكا ، ويصمم على ان تتجنب القوات الالمانية اى استشارة من هذا النوع .

ونتيجة لاتساع نشاط العدو لحقت به خسائر فادحة ، ففى شهر يونيو ، كان للعدو فضلا عن العدد الموجود تحت التدريب حوالى خمس وثلاثين غواصة فى قلب البحر ، وكان ما بعده من غواصات جديدة يزيد بكثير عما لديه من بحارة مدربين ولا سيما القباطنة ذوى الخبرة والتجربة ، وهكذا بدأ عدد بحارة غواصاته الجديدة يقل تدريجيا وأصبحت غالبيتهم من الشبان قليلى الخبرة ولذلك فقد فاتتهم الدقة والمهارة الكافيتان ، وادى شمول المعركة للاطراف البعيدة من المحيط الى عدم استمرار التعاون المخيف بين الغواصات والسلاح الجوى ، ولم يكن من قديم اعداد الطائرات الالمانية الكافية أو تدرب طياريها على العمل فوق البحر ، ومع ذلك فقد استطاعت فى خلال مارس وابريل ومايو أن تغرق (١٧٩) باخرة حمولتها (٥٤٥) الف طن ، غرق معظمها فى المناطق الساحلية ، ومن بين هذه السفن عدد تصل حمولته الى اربعين الف طن غرق بسبب غارتين جويتين فى غاية العنف على أرصفة ليفربول فى بداية شهر مايو ، وقد حمدت الله لأن الالمان لم يستمروا فى شن هجماتهم على هذا الجانب الواهن ، وفى الوقت نفسه استمر خطر الالغام المغنطة مسلطا على سواحلنا غامضا وخداعا ، ينزل بنا أفدح الخسائر وان كانت قد بدأت تقل شيئا فشيئا ، وقد نهضنا بقواعدنا فى ايسلنده وكندا ودعمناها فورا ، ووضعنا مخططات قوافلنا على هدى من هذا الاعداد ، وضاعفنا الطاقة الوقودية لمدمراتنا القديمة كما وسعنا مجال تحركاتها ، وخاضت القيادة المشتركة التى كونت حديثا فى ليفربول بكل امكانياتها غمار

المعركة ، ومع تزايد المدمرات الحارسة بالاضافة الى خبرة بحارتها استطاع الأميرال نوبل تقسيمها الى وحدات دائمة ، لكل وحدة منها ، قائد معين ، وتقوت روح العمل الجماعي وتعود الرجال الاتحادوالتفاهم على العمل مع ادراك عميق لوسائل قائدهم ، وهكذا أصبحت وحدات المدمرات تخطو نحو القوة والمنعة بينما بدأت قوات الغواصات تنحدر الى هاوية الضعف والوهن .

ولم يأت شهر يونيو حتى كنا قد صعدنا الى درجة التفوق ، وكنا نبذل كل جهد لتطوير اسلوب قوافلنا ، وتدعيم الدفاع عنها ، وتحسين الاسلحة والاختراعات الحديثة، وكانتاحتياجاتنا الضرورية تتمثل فى حيازة عدد أكبر واسرع من سفن الحراسة بشرط قدرتها على تحمل لوازم الوقود لاطول زمن ممكن وانشاء أكبر عدد من الطائرات ذات المدى البعيد ، ورادار على جانب كبير من الكفاية والصلاحية ، ولم تكن الطائرات المقاتلة فى القواعد الساحلية تستوفى الشروط المطلوبة ، بل ظلت القوافل فى احتياج لطائرات تحملها البواخر لتنقض على أية غواصة تبدو على مدى اطلاق النار فىوضح النهار ، وتضطرها الى أن تنسحب الى اعماق المياه فيحال بينها وبين القتال ، او لتخبر عنها القطع البحرية الاخرى فتصل الى المكان فىوقت مناسب وقد استطاعت فى مدى قصير طائراتنا المقاتلة التى تطلقها اجهزة قاذفة اقيمت لهذا الغرض خاصة على ظهر البواخر التجارية العادية او البواخر التى تحولت الى بوارج وأمدها السلاح الملكى بالرجال ، استطاعت أن تواجه خطر طائرات « الفوكاولف » وكان الطيار المقاتل الذى ينطلق كصقر يطارد فريسة يعتمد فى بداية الأمر على احدى سفن الحراسة لانقاذ حياته ، وبهذا اصبحت «الفوكاولف» فريسة مطاردة بعد أن كانت الطائر المنقض ، وفرض غزو هتلر لروسيا على القيادة الالمانية توزيعا جديدا لقواتها ، وهكذا بعد أن ارتفعت خسائرنا فى شهر ابريل الى القمة حتى بلغت ثلاثمائة ألف طن اسبوعيا اخذت تهبط الى خمس هذا الرقم فى أشهر الصيف .

وقام الرئيس الآن بخطوة جديدة هامة ، فقد رأى انشاء قاعدة فى ايسلنده ، وأن ترابط بموافقتنا وحدات امريكية بها ، بدلا من القوات البريطانية . وفى ٧ يوليو وصلت الحامية الامريكية الىالجزيرة فاصبحت جزءا من الدفاع عن النصف الغربى ، واخذت قوافل امريكا تحت حماية بوارجها تصل بصفة مستمرة الى ريكجا فيك منذ هذا التاريخ ، وبغض النظر عن ان امريكا لم تكن قد دخلت الحرب الا انها قد اصبحت تحمى البواخر الاجنبية مع قوافلها .

وفى قمة هذا الصراع ، قمت باصدار أمر تعيين ، احسبه اهم ما أصدرت من تعيينات واحسنها حظا ، فى ادارتنا الحربية ، ففى سنة ١٩٣٠ ، وقد كنت خارج الحكم ، قبلت لاول مرة ولآخر مرة فى حياتى ان اكون عضوا لمجلس ادارة احدى الشركات ، وكانت مؤسسة فرعية لمنظمة اللورد انشاب الخاصة بخطوط الملاحة الشرقية والهندية ، وظللت مداوما ثمانى سنوات على حضور الاجتماع الشهرى الذى يعقده مجلس ادارة الشركة، وحريصا على تأدية واجباتى نحوها حرصا تاما ، وخلال الجلسات تعرفت شيئا فشيئا برجل من المع الشخصيات، كان يرأس حوالى ثلاثين او اربعين شركة ، كانت واحدة منها ولعلها اصغر الجميع الشركة التى كنت احد اعضاء مجلس ادارتها ، وقد عرفت على التو ان فردريك ليثرز هو الراس المدبر والقوة الموجهة لهذه المنظمة بكاملها ، وكان واسع المعرفة ، ويمتلك الثقة به امتلاكا، ومكنت إلاحظه عاما بعد عام من منصبى المتواضع فى الشركة التى يراسها ، وكثيرا ما حدثت نفسى : « اذا نشبت حرب اخرى فهذا هو الرجل الذى فى وسعه ان يقوم بالدور العظيم الذى أداه كبار رجال الاعمال الذين كانوا رهن توجيهى فى وزارة الذخائر خلال عامى ١٩١٧ ، ١٩١٨ .

وكان ليثرز قد أبدى استعداده لوزارة الملاحة لدى قيام الحرب فى سنة ١٩٣٩ م فى المساهمة بخدماتها ، ولم تقم بيننا صلة وثيقة حينما كنت فى الاميرالية لان المهام التى كان يقوم بعبئها فنية وليست توجيهية ، أما الآن وفى سنة ١٩٤٠ م عندما واجهت صعوبات معركة الاطلنطى ، وكنا فى أمس الحاجة الى تنسيق الاعمال بين ادارة شئون باخرتنا التجارية وبين تحركات تموينا بالسكك الحديدية والسيارات من موانينا المجهدة ، فقد لمع اسمه فى ذاكرتى ، وتنبهت اليه فى مايو ، وبعد مشاورة طويلة نظمت من جديد وزارتى الملاحة والنقل فى جهاز واحد متكامل ، وعهدت الى ليترز رئاسته ، ولأعطى له امكانيات السيطرة اللازمة عليه أوجدت منصب وزارة النقل البحرى ووليته عليها ، وكنت احس بحرج شديد امام مجلس العموم حين اقفز بأشخاص الى أعلى المناصب الوزارية دون أن يكونوا قد نموا داخل المجلس ومكثوا به بضع سنين وتستبد الرغبة بالأعضاء المحنكين من غير أعضاء الوزارة لأن يعملوا على مضايقة كل قادم جديد ، فيجد نفسه بدون أية مناسبة متضايقا من أعداد الخطب والقائها فى المجلس ، لذلك رجوت العرش أن يتفضل بمنح الوزير الجديد لقب « لورد »

وأصبح اللورد ليثرز منذ ذلك التاريخ حتى انتهاء الحرب قائما بالاشراف الكامل على وزارة النقل الحربى ، وصار اسمه يصعد رويدا

رويدا وقد استطاع أن يحرز ثقة رؤساء أركان الحرب وجميع أركان الحرب وجميع الوزارات فى الوطن ، ووثق صلاته بالأمريكيين اللامعين فى ذلك الميدان ، وكان على صلة طيبة وفى غاية النجاح بالمستر لويس دوغلاس رئيس مجلس الملاحة الأمريكى ، الذى غدا بعد ذلك سفير بلاده فى لندن ، وفى استطاعتى أن أقرر أن ليثرز كان مساعدا هاما لى على تصريف شئون الحرب ، وقل أن عجز هذا الرجل ذو الكفاءة الممتازة عن القيام بأعباء المهمات التى كنت ألقيها على عاتقه .

وحينما كانت تفشل الوسائل الوزارية أو الأركانية فى تصريفها لبعض الشئون كنقل فرقة اضافية أو تحويلها من البواخر البريطانية الى الأمريكية ، أو انجاز بعض المهمات العاجلة كنت ألتمس عونا شخصيا ، وعلى التو أجد هذه التعقيدات قد حلت وكأنما مستها يد ساحرة .

ورابطت البارجتان — الطرادتان الألمانيتان شارنهورست وغنيزناو فى بريست طيلة هذه الأشهر القاسية ، وكان انطلاقها الى الاطلنطى محتملا فى اية لحظة ، وبفضل السلاح الجوى الملكى شل نشاطهما فقد استمرت طائراتنا تشن الهجوم عليهما وهما فى الميناء ، منزلة بهما أفدح الأضرار ، مما تركهما عاطلتين عن العمل طيلة العام ، وقد توجه انتباه العدو الى اعارتهما لألمانيا ولكنهما عجزا عن تحقيق ذلك أيضا حتى عام ١٩٢٤ ، وسنعرف فى اللحظة المناسبة مقدار نجاح اسطولنا وقيادة سلاحنا الجوى الساحلى ، وكيف أصبحنا مسيطرين على الموقف فى الداخل وكيف باتت الغواصات تنهار فى نفس البحار التى عملت على تدميرنا فيها الى ان استطعنا ثانية بأسلحتنا تطهير مداخل الجزر البريطانية .

يوغوسلافيا واليونان

فرض علينا ان نصل الى قرار حاسم بشأن جيش النيل .. هل نرسله الى اليونان أم لا وكان اجتياز هـذا التساؤل فى غاية الاهمية ، لا لمعاونة اليونان ومؤازرتها فى محنتها وعـذابها فحسب ، بل ايضـا لتكوين خط دفاعى بلقانى يضم يوغوسـلافيا واليونان وتركيا لصـدم الهجوم الألمـانى المحتمل مع ما يتضـمنه ذلك من تأثير على روســيا السوفييتية ، لا يمكن أن نعرف مداه الآن ، وان كنا لا نستـــطيع أن ننكر خطورته ، هذا اذا كان الحـكام الروس قد تفهموا المخاطر التى تهـددهم ، ولم يكن ما نقـدر على ارساله هو الذى سيوجه المسألة البلقانية ، فغايتنا المعروفة هى اثارة العمل الجماعى وتنظيمه ، واذا استطعنا عن طريق التلويح بقوتنـا أن نستثير يوغوسـلافيا واليونان وتركيا على الاشتراك فى العمل ، فاننا سنقهر هتلر على الاختيار بين أمرين ، اما ان يترك أطماعه الحالية فى البلقان واما أن يخوض قتـالا عنيفا مع جيوشنا المشتركة حيث يجد قوة واحدة متآزرة فى الميدان ، ولم يصلنا انذاك أنه عقد العـزم على زحفه الجرىء على روسـيا ولو عرفنا ذلك فى حينه لكنا على يقين أكبر من فوز خططنا وكنا نعرف أنه يغامر بالسـقوط بين مقعدين ، وقد يقهـر على التحول عن مشروعه الضخم الى اتخاذ خطوات مبدئية فى البلقان ، وهذا هو الذى حـدث بالفعل ، ولم يكن فى مقدورنا أن نصل الى معرفة انذاك ، وقد يعتقـد البعض أن ما افترضناه كان صحيحا ، أو انه كان أصح مما كنا ندرك ، فقد سعينا الى ضم يوغوسلافيا واليونان وتركيا فى جبهة قوية ، أما واجبنا حتى ذلك الوقت فقـد كان يفرض علينا تعضـيد اليونانيين ، ولجميع هذه الأهـــداف فقد كان موقف فرقتنـــا الأربع فى الدلتا فى وضعه الملائم .

وفى مطلع مارس اخـذت القوات الألمـانية تنهال على بلغـاريا ، واستعد الجيش البلغارى بكل قواه ، ووقف على اهبة الاستعداد على الحدود اليونانية ، وكانت الجيوش الالمـانية بصـفة عامة تزحف نحو الجنوب ، يؤازرها البلغاريون بشـتى الطرق والوسائل ، واسـتأنف

المستر ايدن والجنرال ديل فى اليوم التـالى محادثاتهما فى أثينـا ، وأرسل الينا المستر ايدن على هدى ذلك ببرقية غاية الاهمية ، غيرت بعض الشىء من أفكارنا بلندن ، وبالرغم من ان الأميرال كننغهام كان مقتنعا بصحة آرائنا الا انه لم يدعنا فى شك من الأخطار البحرية التى تهددنا فى المتوسط ، والتى تحملها هـذه الآراء وسـجل رؤساء أركان الحرب العوامل الجديدة التى تنمو باطراد متعارضة مع خططنا فى البلقان وخصوصا مع نوايانا فى تسـير جيش الى اليونان ولخص الرؤساء رأيهم فى هذه العبارة : « ان الأخطار قد تزايدت على المشروع بصـورة واضـحة » لـكنهم لم يرتابوا على الاطلاق فى تأكيـد القادة العسكريين العاملين فى المنطقة بأن الأمور لا تدعو الى اليأس بأى حال من الأحوال وبعد ان أعملت التفكير منفردا فى تشيكرز ليلة الأحد تلك وقلبت وجهات النظر التى عرضت بوزارة الحرب فى الصباح الماضى ، أرسلت الخطاب التـالى الى المسـتر ايدن ، الذى كان قد رجع الى القاهرة من أثينا ، وكان هـذا الخطـاب يشير الى تغير ملحوظ من موقفى ، ولكننى أحمل كل المسئولية فى القرار الأخير ، اذ اننى كنت واثقا فى قدرتى على ايقاف كل شىء لو اقتنعت وايقاف العمل أسهل دائما على كل انسان من العمل ، وقد جاء فى خطابى :

« لقد حاولنا بكل الوسائل ايجاد اتحاد بلقانى ضد ألمانيا ، وعلينا أن نتذرع بالحذر فلا ندفع اليونان وحـدها دون رغبتها الحرة ، الى المقاومة الباسلة ، فى الوقت الذى ليس فى مقدورنا مؤازرتها الا بمجموعة ضئيلة من الجنـود تسـتطيع أن تصل الى ميدان المعركة فى الفرصة المواتية ، وقد تثـار مشاكل امبراطورية هامة عنـدما نزج بالجيوش النيوزيلندية والاوسترالية فى عمل وصفته انت بالخطورة البالغة . ولذا علينا أن نحرر اليونانيين من احساسهم بالتزام الرفض لأى انذار ألمانى ، أما اذا أصروا من ناحيتهم على الكفاح فعلينا ان نؤازرهم فى موقفهم بقدر المستطاع ولكن سرعة الزحف الالمانى ستقف بكل تأكيد دون اشتراك جيوش امبراطورية كبيرة فى القتال ، ولا تعتبر خسارة اليونان والبلقان بأى حال من الأحوال بالنسـبة لنا خسـارة جوهرية بشرط أن تظل تركيا بكل أمانة وصـدق على الحيـاد ، ونستطيع أن نستولى على رودس ، وأن نعد لاحتـلال صـقلية أو طرابلس وتشير علينا جهات عديدة بأن الاطاحة بنا من اليونان يضر بسمعتنا فى أسبانيا وفيشى ، أكثر من تركنا للبلقان ، الذى لا نقدر على الحيلولة بينه وبين السقوط فى يد العدو ولضآلة قواتنا .

وقد أرفقت بهذه البرقية التقرير الهام الذى وصلنى من رؤساء أركان الحرب

وعندما قرأ رسالتى سفيرنا لدى اليونان ، أصيب باليأس وخيبة الأمل ، وارسل الى وزير الخارجية برقية يقول فيها (كيف يتسنى لنا ان نترك ملك اليونان وحده بعد ما أبدى له القائد العام ورئيس أركان حرب الجيش تأكيدات واضحة عن الفرص المتاحة للنصر ، اننى لا أتصور موقفنا كهذا لاننا سنضع انفسنا موضع التشهير فى اليونان وفى كافة انحاء العالم ، وسيشاع أننا لا نعرف الوفاء بالوعد ، فليس هناك مجال لان نترك لليونانيين حرية رفض أو قبول الانذار الالمانى ذلك لأنهم قد بيتوا العزم على قتال المانيا وحدهم اذا لزم الامر .القضية الآن هى : أنمد لهم يد العون أم لا ؟

وعلى هدى ذلك قررت وزارة الحرب تأجيل خطتها الى ان يصلنا راى المستر ايدن ، وفى اليوم التالى وصلتنا برقية يعبر فيها عن رايه بقوله : « لا شك فى انهيار اليونان دون أن نحاول انقاذها بالتدخل العسكرى ، خصوصا بعد ان ادرك العالم كله ان انتصارات الصحراء قد وفرت لنا القوات المطلوبة ، سينذر بفاجعة محتمة ، فحينئذ ستهوى يوغوسلافيا أيضا ، ولن نثق فى امكانيات تركيا على على الصمود اذا استطاع الالمان والايطاليون أن يحتلوا اليونان دون أن نقاومهم بأى مجهود من جانبنا ، ولا أشك فى ان سمعتنا ستتأثر من طردنا من اليونان طردا معيبا ، لكن القتال فى اليونان وتكاليفه أخف بكثير على أى حال من ان نتخلى عنها لتقابل أقدارها بلا معين وبالنسبة الى الظروف الحاضرة ، فكلنا هنا نرى أن ما رأيناه سابقا يجب أن ينفذ ويجب أن نمد اليونان بكل عون .

وذهبت انا ورؤساء أركان الحرب ، الى وزارة الحرب التى كانت تحيط علما بكل شىء اثر وقوعه لتقرر بصدده الرأى الأخير ، وهناك عرضنا القضية للبحث ، وعلى الرغم من ادراكنا للحقيقة الماثلة التى تؤكد عجزنا عن ارسال طائرات اكثر عددا من التى قد ارسلناها أو من التى ما زالت فى طريق وصولها ، فاننا لم نجد سبيلا للتردد ولم تختلف آراؤنا وقد ادركت ان المسئولين هناك قد مروا بتجربة مفيدة ، لم يكن ثمة ريب على الاطلاق فى انهم يقعون تحت اى ضغط سياسى من لندن ، وقد اقتنع سمطس بوجهة النظر هذه وهو الدقيق الرأى ، الذى يتمتع باستقلال فكرى خاص ، ولم يكن فى طاقة اى انسان أن

يدعى او يفترض اننا تطفلنا على اليونان واجبرناها على العمل ضد ارادتها ، اذ لم تكن ثمة دولة اكثر منها اقتناعا بالسير فى الطريق الذى سلكته ، وكنا بقرارنا قد حصلنا على تعضيد كافة الرجال المسئولين الذين اصدروا حكمهم فى حرية كاملة ، وعلى هدى من ادراكهم التام للموقف عن مختلف جوانبه ، وكان زملائى الذين حنكتهم التجارب قد انتهوا بكامل حريتهم الى النتيجة ذاتها ، وكان المستر منزيس الذى تثقل المهام كاهله بالنسبة لهذا الموضوع فى غاية الشجاعة لقد كان من جذوة متقدة تنادى بالعمل وكان الاجتماع قصيرا والقرار حاسما والرد مختصرا وهذا هو : « راى رؤساء أركان الحرب ، انه بالنظر الى اصرار قادة المنطقة ورئيس أركان حرب الجيش البريطانى ، ورؤساء الوحدات المعدة للعملية ، على وجهة نظرهم فى أن يستمر تنفيذ القرارات السابقة ، فقد انتهى راى وزارة الحرب الى ان تتحمل انت مسئولية تنفيذ العملية ، وهى فى قرارها هذا تتحمل كافة التبعات ، وستتصل بحكومات استراليا ونيوزيلنده تنفيذا لهذا القرار .

وعلينا الآن أن نتحدث عن مصير يوغوسلافيا ، كان الدفاع عن منطقة سلانيك يعتمد اعتمادا كاملا على دخولها الحرب ، وكان فى غاية الاهمية أن نقف على حقيقة نياتها وقد اجتمع سفيرنا فى بلغراد المستر كامبل فى ٢ مارس بالمستر ايدن فى أثينا ، واوقفه على مدى الفزع الشديد الذى يستولى على يوغوسلافيا من المانيا ، وأن الاحوال الداخلية ليوغوسلافيا يسودها القلق بسبب النزاع السياسى ، لكن هناك فرصة لضمان تأييد اليوغوسلافيين اذا ما ادركوا سياستنا فى مساندة اليونان ، وارسل وزير الخارجية فى ٥ مارس مستر كامبل الى بلغراد ومعه رسالة مخطوطة الى ولى عرش يوغوسلافيا الامير بول ، وقد صور المستر ايدن مآل يوغوسلافيا اذا وقعت فى أيدى الالمان ، وابدى له تصميم تركيا واليونان على الدفاع اذا وقع أى هجوم عليهما ، فعلى يوغوسلافيا فى مثل هذا الموقف أن تنحاز الينا ، وطلب من السفير ان يبلغ الامير بول شفويا ان بريطانيا قد اعدت قوات كبيرة برية وبحرية لتمد بها اليونان بصورة عاجلة وانه اذا ما وصل الى أثينا أحد ضباط الأركان اليوغوسلافيين فسيشترك فى المباحثات الدائرة .

وانعقد الكثير من الأمل على ظروف الوصى ، فقد كان الامير انسانا محبوبا ، يحب الفنون ولكن سمعة الملكية فى البلاد كانت سيئة للغاية ، وكان فى هذه الآونة يحرص على موقف الحياد حرصا تاما ،

وكان يخاف من تفسير الالمان لاية حركة تتخذ من جانب يوغوسلافيا على انها استشارة لهم ، فيزحفون جنوبا فى اتجاه البلقان ، وقد ابدى اعتذاره عن قبول زيارة للمستر ايدن قد رغب فى القيام بها ، وكان الرعب مستوليا عليه ، ولم يكن فى وسع الوزراء والساسة المرموقين ان يبدو رأيهم بوضوح ، ولكن كان هناك رجل واحد فقط يدعى سيموفيتش يخرج على هذا الاجماع وهو جنرال فى السلاح الجوى ، يمثل العناصر الوطنية بين ضباط الجيش وقد أصبح مكتبه منذ ديسمبر مكانا سريا لمقاومة التسلل الالمانى الى البلقان ، ومناهضة موقف الجمود الذى طبع تصرفات حكومة يوغوسلافيا .

وقام الامير بول بزيارة سرية لبيرختيسفارن فى ٤ مارس ، وانصياعا للتهديد الشفوى الشديد تعهد بأن تنحو يوغوسلافيا منحى بلغاريا ، وعندما عاد كانت فى انتظاره وجهات نظر متعارضة فى مجلس التاج ، وفى المحادثات الفردية التى قام بها مع القادة ـ سياسيين وعسكريين ـ وكان الجدل حادا ، ولكن الانذار الالمانى كان حقيقة صارخة ، وعندما استدعى الجنرال سيموفيتش الى القصر الابيض حيث يقيم الأمير بول على التلال المطلة على بلغراد ، عارض الاستسلام بشدة ، واكد أن مثل هذا القرار سترفضه بلاد العرب وأن الاسرة المالكة ستواجه الاخطار ، ولكن الامير كان قد بذل تعهده السالف باسم بلاده .

وعقد مجلس الوزراء ليلة ٢٠ مارس جلسة وانتهى فيها الى قرار الاشتراك فى المعاهدة الثلاثية فاستقال ثلاثة وزراء احتجاجا ، ومن محطة جانبية للسكة الحديدية استقل رئيس الوزراء ووزير خارجيته القطار الى فيينا ، وابرما الميثاق فى اليوم التالى مع هتلر ـ واذيع النبأ مباشرة من راديو بلجراد ، وسرعان ما أعقبته شائعات فى جميع مقاهى العاصمة اليوغوسلافية ومنتدياتها عن الويلات المتوقعة.

وكانت المجموعة الصغيرة من الضباط الموالية لسيموفيتش قد فكرت منذ اشهر فى القيام بعمل ايجابى اذا ما استسلمت الحكومة للالمان ، وعندما شاعت فى ٢٦ انباء رجوع الوزيرين من فيينا الى بلجراد راى هؤلاء ان يبداوا العمل ، ولسنا نعرف عددا كبيرا من الثورات كان فى مثل نعومة ثورتهم ، حيث لم ترق قطرة من الدماء فقد قاموا باعتقال عدد من كبار الضباط ، وساق رجال الشرطة رئيس الوزراء الى مكتب سيموفيتش حيث وقع مرغما على استقالة ، واخبر الامير بول بأن سيموفيتش قبض على ناصية السلطة نيابة عن الملك واصدر أمرا بحل مجلس الوصاية ، واقتيد على التو الى مكتب سيموفيتش الامير

نفســه ، حيث فرض عليه وعلى زميله ان يوقعا على وثيقة تنازلهما عن الوصاية ، وامهل الامير بضع ســاعات ليحزم متاعه ، وليغــادر البلاد مع اسرته الى اليونان فى الليلة نفسها .

وقد وضعت هذه الخطة وتم تنفيذها بواسطة مجموعة صغيرة من الضباط الوطنيين الصربيين الذين تحسسوا بوعى مشاعر الجماهير الحقيقية ، فأثار عملهم موجة طاغية من التأييد الشــعبى ، وانطلقت الجماهير الصربية فى شوارع بلغراد تهتف « الحرب ولا المعــاهدة ، والموت والعبــودية » وتناثرت حلقــات الرقص فى الميــادين العــامة وانتشرت الاعلام الانجليزية والفرنسية فى كل مكان ، ورددت الجموع الصربية اليائســة المناضلة النشيد الوطنى فى اندفاع عارم وشهد الملك فى ٢٨ مارس صلاة شكر فى كاتدرائية بلجراد ، وكانت الظروف وحدها هى التى خلصته من مجلس الوصــاية ، وحضر الصــلاة جمهور ضخم مندفع ، ووجهت علنا الاهانات لوزير المانيا المفوض ، وبصق الشعب على سيارته واثارت المفاجأة العســـكرية موجة فياضــة بالحمــاس والوطنية واستيقظ الشعب الذى كان قد حرم من حرية العمل ، تحت سلطة حكومة مســتبدة ، وحكام فاســدين ، والذى راى الكثير من الشباك تنصب من حوله ، استيقظ ليعلن تحديه للطاغية وهو يحلم بالفتح فى عزة بطشه وسلطانه .

وكأنما اصيب هتلر بلدغة ثعبان ، فاهتاج ذلك الاهتياج المدمر الذى يعوق التفكير السليم لبعض الوقت والذى كان يودى به أحيانا الى اخطر مغامراته واكثرها جراة ، واستدعى فى فورة اهتياجه رجال القيادة العليا الالمانية ، فاسرع جورنج وكايتل ويودل ، ولحق بهم على الفور ريبنتروب ، وقال ان يوغوســلافيا قد أصبحت عاملا مريبا فى الخطة المدبرة ضــد اليــونان ، وفى خطة « بربروسا » القادمة ضــد روسيا كذلك ، واستطرد قائلا ان اعلان يوغوسلافيا عن حقيقة نواياها ليس سيئا على كل حال قبل الشروع فى عملية « بربروسا » ثم أضاف : يجب تدمير يوغوسلافيا ووحدتها القومية والعســكرية ، ويجب أن تنزل بها ضربة قاضية ، وأمضى القادة العسكريون طيلة الليلة يعدون خطط العملية ويحضرون أوامرها ، وقد أيد كايتل وجهة نظرنا فى أن الخطر الاكبر الذى تتعرض له المانيا يتمثل فى هجوم من المؤخرة على الجيش الايطالى ، واستطرد قائلا : « وكان قرار هتلر بالهجوم على يوغوسلافيا يعنى نقض كافة الخطط والترتيبات العسكرية التى أعددناها حتى ذلك الوقت وفرض علينا أن نضع ثانية ترتيبــات الهجــوم على اليونان ، وأن ننقل وحدات اخرى من الشمال عبر المجر ، أجل لقد فرض علينا الارتجال فى كل شىء .

وكان تأثر المجر متوقعا بصفة عاجلة ، وبالرغم من ان الغزو الالمانى المباشر ليوغوسلافيا سيمر عبر رومانيا ، الا ان كافة سبل المواصلات تخترق الاراضى المجرية ، وكرد فعل لما حدث فى بلجراد بعثت المانيا بوزير المجر فى برلين الى بودابست بالطائرة ، ومعه رسالة فورية الى الاميرال هورتى الوصى على عرش المجر هذا نصها :

« ستمحى يوغوسلافيا من الوجود ، لمناهضتها علنا لسياسة التفاهم مع المحور ، ويجب أن تعبر معظم القوات الالمانية المسلحةاراضى المجر أولا ، لكن الغزو الرئيسى لن يتم عبر الجبهة المجرية ، وعلى القوات المجرية أن تتدخل فى هذه الجبهة ، ومقابل هذه المعاونة سترد للمجر كل الاراضى التى كانت لها سابقا والتى ارغمت فيما مضى على التنازل عنها الى يوغوسلافيا ، ان المشكلة عاجلة تماما والمانيا تنتظر الرد السريع الايجابى »

وكانت المجر قد أبرمت مع يوغوسلافيا معاهدة صداقة فى ديسمبر ١٩٤٠ ، لكن الرفض الصريح لمطالب المانيا سيؤدى الى احتلال المانيا للمجر فى غمار الزحف العسكرى الذى أصبح متوقعا فى كل حين ، ولا سبيل الى اغفال الاغراء الالمانى برد مناطق الحدود الجنوبية التى انتزعتها يوغوسلافيا من المجر بعد الحرب العالمية الاولى ، وكان الكونت تيليكى رئيس وزراء المجر يحافظ باستمرار على حرية بلاده فى التصرف ، ولم يكن مقتنعا بأية حال بانتصار المانيا فى الحرب وعندما وقع المعاهدة الثلاثية ، وكان غير متأكد من استقلال ايطاليا كشريكة فى المحور

وكان معنى انذار هتلر له أن يتخلى عن الوفاء ليوغوسلافيا بما تفرضه معاهدة الصداقة لكن القيادة المجرية العليا تحت قيادة الجنرال ويرث وهو المانى الاصل ، قد تسلمت زمام المبادرة منه ، ووضعت مع القيادة الالمانية العليا خطة مشتركة بدون أن تدرى حكومة المجر .

وقد أسرع تيليكى فاتهم الجنرال ويرث بالخيانة ، ووصلت برقية من وزير المجر المفوض فى لندن الى رئيس الوزراء فى ٢ ابريل سنة ١٩٤١ ، يخبره فيها أن وزارة الخارجية البريطانية تعتبر — كما أبلغته رسميا — أن مساهمة المجر فى اية عملية ضد يوغوسلافيا اعلان من بريطانيا للحرب ضدها .

وهكذا رات المجر نفسها فى موقف اختيار بين مقاومة لا جدوى منها لاختراق الجيوش الالمانية لاراضيها ، وبين الوقوف علنا ضد الحلفاء وخيانة يوغوسلافيا ، ولم يجد الكونت تيليكى سوى طريق واحد لانقاذ شرفه الشخصى ، فما تجاوزت الساعة التاسعة من مساء ذلك اليوم بقليل حتى كان قد ترك وزارة الخارجية وذهب الى غرفته

الخاصة بقصر ساندور ، وبعد محادثة تليفونية يغلب على الظن انها اخبرته باجتياز القــوات الالمانية لحــدود بلاده ، أطلق الرصاص على نفسه منتحرا .

وبذلك قدم حياته قربانا للتكفير عن نفسه وعن شعبه من جريمة الغزو الالمانى ليوغوسلافيا ولا شك فى أن هذا العمل قد برأ ساحته امام التاريخ ولكنه لم يوقف الغزو الالمانى ، ولا ما تسبب عن هــذا الغزو من نتائج .

وبدأت فى خلال ذلك عملية زحفنا فى اتجاه اليونان ، وقد سار الزحف تبعا لترتيب قيامه من اللواء البريطانى المدرع الاول ، والفرقة النيوزيلندية ، والفرقة الاسترالية السادسة وقد جهزت هذه القوات بالعتاد الكامل على حساب غيرها من الفرق فى الشرق الاوسط وكان المفروض أن يذهب فى اثرها اللواء البولنــدى ، والفرقة الاســترالية السابعة ، وأعدت الخطة على أن تأخذ قواتنا خط الياخمون الذى يبدأ من مصب النهر الذى يسمى الخط باسمه مارا بفيريا واد هيسا حتى الحدود اليوغوسلافية ، وكان على جيوشــنا أن تنحاز الى الجيش اليونانى المقيم فى هذه المنطقة ، والذى كان يبلغ حوالى ســبع فرق ، على أن يتولى القيادة العامة الجنرال ويلسون

وكانت القوات اليونانية اقل عددا مما تعهد به الجنرال باباغوس بادىء الامر ، فقد كان القســم الاكبر منهــا يبلغ خمس عشرة فرقة فى البانيا ، أما الباقى ففى مقدونيا ، وقد رفض باباغوس أن يسحبها وقد أصبحت قوة غير عسكرية بعد أربعة أيام من الغزو الالمانى ، وتكونت قواتنا الجوية من حوالى ثمانين ، طائرة محــاربة ، امام قوة جــوية المانية يبلغ عددها عشرة أضعاف ذلك العــدد ، وكانت نقطة الضعف فى خط الياخمون تتمثل فى جناحه الايسر الذى يتمكن الالمان بزحف سريع عبر المناطق الجنوبية اليوغوســلافية من محاصرته ، ولم يكن هناك اتصال بالقيادة اليوغوسلافية العليا حيث لم نكن نحن واليونانيون قد وقفنا على مدى استعدادها ونوع خطتها للدفاع وعلى اية حال فقد تمثلت أمامنا فى الارض الوعرة التى يجب ان يجتازها العدو ، وطبيعتها التى تستطيع ان تعطى الفرصة لليوغوسلافيين لتعويق الزحف فترة من الزمن ، ولكن هذا الظن تبدد سريعا ولم يجد الجنرال باباغوس ان عملية الانسحاب من البانيا تستطيع أن تواجه حركة التطويق هذه فهى ستؤثر أولا فى الروح المعنوية للجيش ، كما ان وسائل النقل السريعة غير متاحة للجيش اليونانى كما أن وعورة الطريق تجعل هذا الانسحاب متعــذرا جــدا ولا شك فى أن تأخير قرار بهذا الشأن قد ضيع الفرصة المتاحة ، وفى

غضون هذه الملابسات وصل الى الجبهة الأمامية لواؤنا المدرع فى ٢٧ مارس ، وتبعته بعد أيام قليلة الفرقة النيوزيلندية .

ولا شك فى أن أخبار ثورة بلغراد ، قد بثت فى نفوسنا الارتياح والأمل فهى على أقل تقدير مكسب وحيد ملموس لما بذلنا من جهود متوالية فى سبيل قيام جبهة للحلفاء فى البلقـان . ولمنع أن تسـقط الدول واحدة بعد اخـرى فى يد هتلر بسـهولة ويسر ورؤى أن يظل ايدن فى أثينا للتصرف فى أمر تركيا . وا نيتوجه الى بلجراد الجنرال ديل ، وكان فى استطاعة كل انسان ان ييأس من وضع يوغوسلافيا الا اذا تكتلت سائر الدول المعنية فى جبهة واحدة بمنتهى السرعة، وكانت الفرصة متاحة بالنسبة ليوغوسلافيا على الأقل لتسـديد ضربة الى مؤخرة الجيوش الايطالية المضطربة فى البانيـا ، واذا سـدد الجيش اليوغوسلافى ضربة فورية حاسمة استطاع ان يحقق عملا جوهريا من وجهة النظر العسكرية فمع أن بلادهم معرضة للغزو من الشمال الا أن هذه الفرصة ستمكنهم من احراز كمية هائلة منالذخائر والعتاد ، تقدر على تموينهم فى حرب العصـابات بالجبال ، وقد أصبحت أملهم الوحيد ، ولا شك فى أن تحقيق مثل هذه الضربة سيكون أمرا عظيما للغاية ، ويسدى صداه فى أرجاء الجانب البلقانى بأكمله وهذا ما كنا ندركه تماما فى لندن .

لكن اخطاء السنين لا يمكن معالجتها فى ساعات ، فعندما هدات شعلة الحماس العام التى اتقدت فى صدر كل انسان ببلجراد بدا كل منهم يدرك أن بلاده على حافة الهاوية ، وان ليس فى مقدوره أن يقوم بأى عمل لانقاذها ، وكان فى اسـتطاعة القيـادة العامة على الأقل أن تحشد قواتها لكن لم يكن لديها أية خطة استراتيجية ، ولم ير ديل الا الركود وسـوء النظام وربما تكون الحكومة اليوغوسـلافية نتيجة لخوفها من الوضع الداخلى قد عزمت على تجنب اى عمل يثير المانيا ، وها هى الجيوش الألمانية تتدفق عليها كجبال من الثلج ، وكانبمقدور اى انسان حين يتأمل فى موقف الوزراء اليوغوسلافيين وآرائهم أنيظن أنهم عقدوا العزم منذ أمد بعيد تجاه الحرب مع المانيا أو الصلح معها والواقع انهم لم يبدأوا التفكير فى هذا الصدد الا فى غضـون الاثنتين والسبعين ساعة . التى سبقت اجتياح الالمان لبلادهم .

ولاحت طائرات ألمانيا فى سماء بلجراد صباح ٦ ابريل ، وامطرت الطائرات العاصمة اليوغوسـلافية بوابل من القنـابل ، ثلاثة أيام متوالية بصـورة منظمة نموذجية وكانت تحلق على ارتفاع قريب من أسطح العمائر بدون أن تهاب أية مقاومة ، فشاع الدمار فى كل انحاء

المدينة بصورة تخلو من احساس بالرحمة او الانسانية ، وقد عرفت هذه الغارات باسم « عمليات العقوبة » وعندما خيم الهدوء ثانية على سماء بلجراد فى ٨ ابريل تكشف عن حوالى سبعة عشر الف انسان من ابناء العاصمة وقد صاروا جثثا هامدة على جوانب الطريق أو تحت الانقاض وانطلقت الوحوش الضارية الى فك حصارها من حديقة الحيوانات بعد هذه الغيوم الثقيلة السوداء المليئة بالدخان والشرر ، وسار دب ذاهل لا يدرك شيئا مما يحدث حوله وسط هذا الجحيم فى خطوات ثقيلة ومرعبة نحو نهر الدانوب ، ولكنه لم يكن آخر دب لا يفهم .

وفى الوقت نفسه وبلجراد تعانى أهوال الغارات الوحشية، كانت القوات الألمانية تجتاح من كل الجوانب حدود يوغوسلافيا ، ولم تتحرك القيادة اليوغوسلافية العليا لتسديد ضربتها الوحيدة القاتلة الى مؤخرة الايطاليين ، واعتبرت أن الواجب يلزمها بعدم التخلى عن كرواتيا وبلاد السلوفين ولذلك فقد حاولوا الدفاع عن جميع مناطق الحدود ، ولم يمض وقت طويل حتى وجدت الفرق اليوغوسلافية الأربع العاملة فى الشمال نفسها ، محاصرة بالوحدات الالمانية المدرعة تؤازرها الوحدات الهنغارية التى عبرت نهر الدانوب، والوحدات الالمانية والايطالية الزاحفة نحو زغرب .

واضطرت الجيوش اليوغوسلافية الى الانسحاب الى الجنوب فى ارتباك وفوضى ، ووصل الألمان الى بلجراد فى ١٣ أبريل ، وفى خلال ذلك كان الجيش الألمانى الثانى عشر المرابط فى بلغاريا قد اجتاح بلاد الصرب ومقدونيا واقتحم « موناستر » و «يانينا» فى اليوم العاشر من ابريل ، فقطع بذلك كل اتصال بين يوغوسلافيا واليونان ودمر جيش يوغوسلافيا فى الجنوب .

وما مرت سبعة أيام حتى أعلنت يوغوسلافيا استسلامها، ونسف هذا الانهيار آمال الاغريق وكان هذا مثالا جديدا لخطة هتلر « عدو واحد فى كل مرة » وقد بذلنا ما فوق الطاقة ، لايجاد نوع منظم من العمل ، ولكننا عجزنا ، وليس الخطأ فى ذلك خطأنا ، وبدت لنواظرنا صورة قاتمة مروعة ، فقد تعاونت خمس فرق المانية ــ ثلاث منها مدرعات ــ على غزو اثينا من الجنوب وبدا لنا أن مقاومة يوغوسلافيا فى الجنوب كانت تلقى تدميرا كاملا وان جناحنا الايسر على نهر الياخمون سيدهمه الخطر عما قريب وفعلا بدأ الهجوم على حرس جناحنا فى ١٠ أبريل ، ولكنه توقف اثر مقاومة عنيفة ظلت يومين فى طقس قاس للغاية . وغربا كانت فرقة واحدة من الفرسان اليونانيين متصلة

بالقوات المرابطة فى البانيا ، فراى الجنرال ويلسون التراجع بجناحه الأيسر نتيجة لما يلقاه من ضغط شديد .

وتم هذا فى ١٣ ابريل ، ولكن القوات اليونانية اخذت حينذاك فى التمزق ، ومنذ ذلك الوقت اضحت القوات البريطانية فى الميدان وحدها ، وبالنظر للخطر الذى يحدق بالجناح الايسر رأى الجنرال ويلسون التراجع به الى ترموبولى ، واستشار باباغوس فوافق على رأيه ، وعرض بدوره أن تنسحب فى هذه المرحلة الوحدات البريطانية عن اليونان ، وكانت الأيام القليلة التى أعقبت ذلك أياما فاصلة وبعث ويفل فى ١٦ ابريل برقية يقول فيها ان باباغوس اعترف للجنرال ويلسون بأن القوات اليونانية تواجه ظروفا قاسية ، وتعانى مصاعب جمة فى التموين والادارة نظرا للغارات الجوية ، وكانت أوامر ويفل الى ويلسن تشير باستمرار القتال بجانب اليونانيين ما داموا قادرين على القتال ولكنه ترك له حرية تقدير الجلاء عندما تحتم الظروف ، واعطيت التعليمات لكافة البواخر الذاهبة الى اليونان بالعودة اذ كان الموقف فى غناء عن امدادات جديدة أما البواخر التى بسبيل تنزيل حمولتها فيجب أن تتم مهمتها .

وقد قلت ردا على خطورة هذه الأنباء غير المنتظرة انه لا يهمنا الاستمرار فى اليونان ضد رغبة قائدها العام، اذ تكون بذلك قدعرضنا البلاد للدمار والخراب

ولذلك اصدرت أوامرى بالانسحاب فورا اذا ما رأت حكومة اليونان ذلك وأضفت الى ذلك قولى : « أما كريت .. فمن المحتم الابقاء عليها فى يدنا بكل وسيلة » .

واستقل الجنرال ويلسون فى ١٧ أبريل زورقه البخارى من طيبة الى القصر الملكى فى تاتوى حيث اجتمع بالملك والجنرال باباغوس وسفيرنا ، وقرروا التراجع الى ترموبولى كعمل حازم ممكن ، وكان الجنرال ويلسون على يقين من مقدرته على الصمود بهذا الخط الى وقت ما ، وتركز الحديث على أسلوب الانسحاب ونظامه ، واستقر الراى على الا تجلو الحكومة اليونانية الا بعد اسبوع على الاقل .

وقد اوردت سابقا اسم المسيو كوريسيس رئيس وزراء اليونان، وقد وقع الاختيار على هذا الرجل ليسد الثغرة التى خلفها ميتاكساس بوفاته ، وكانت مؤهلاته التى رشحته لهذا المنصب.. سيرة شخصية نظيفة ، ومعتقدات واضحة ثابتة ، واتضح لى أن ليس فى مقدوره أن يشاهد تدمير بلاده ، كما لم يعد فى وسعه النهوض بأعبائه ، فحذا حذو الكونت تيليكى ، رئيس وزراء المجر وقرر أن يضحى بحياته

ثمنا لكل ما حدث فانتحر فى ١٨ ابريل ، ولا شــك أن ذكراه ستبقى محفوفة بكل تقدير .

وكان الانسحاب الى ترموبولى مهمة قاسـية ، ولكن تغطيـة المؤخرة البارعة ، صدت رغبات الجيش الالمانى المتحفزة ، منزلة به اضرارا جســيمة ، ولم يأت يوم ٢٠ ابريل ، حتى كانت جيوشـنا قد سيطرت تماما على مواقعهـا الجـديدة ، وكانت الجبهة قوية أما جنودنا فكانوا متعبين جدا ، واستمر الجيش الألمانى فى زحفه ببطء ، ولم تحدث أى محاولة شديدة وجادة لاختيار الموقع ، وفى اليوم نفسه اعلنت القوات اليونانية التى كانت لا تزال علىحدود البانيا استسلامها وفى ١١ ابريل ابلغ جلالة ملك اليونان الجنرال ويفل ، أن الزمن وحده هو الذى لم يساعد اية قوة يونانيـة على مؤازرة الجنـاح البريطانى الأيسر قبل ان يملك العدو فرصته للهجوم ، وقد قال ويفل ان واجبه فى مثل هذا الموقف يهيب به أن يعمل على انسحاب سريع للجيش ، حتى ينقذ منه ما يمكن انقاذه وقد لاقى هذا الرأى قبولا تاما من الملك فيبدو أنه كان يفكر فيه وعبر عما يشعر به من أسف لانه كان السبب فى أن تلاقى الجيوش البريطانية هذا الوضع المحرج وابدى استعداده لتقديم كل ما فى وسعه من مساعدة ، لكن هذا كله كان هباء ، وفى ٢٤ ابريل استسلمت اليونان استسلاما تاما للزحف الألمانى الجبار .

واصبحنا الآن امام عملية انسحاب تشـبه تلك العمليـات التى فرضت علينا عام ١٩٤٠ ، واتضح لنا أن اجلاء ما يزيد عن خمسـين ألف رجل بصورة منتظمة من اليونان ، فى مثل هذه الأوضاع القاسية ، أمر مستحيل ، ففى دنكرك كنـا متفوقين جويا أما اليونان فالالمـان يقبضون بيد من حديد على ناصية الجو ، وفى وسـعهم الاسـتمرار فى الاغارة على الموانى وعلى القوات المنسحبة ، وكان من الواضح أن الجلاء لا يمكن أن يحدث الا أثناء الليل ، وأن المفروض على الجنود الا يبصرهم العدو نهارا قريبين من الساحل ، انها قصة النرويج تعود من جديد ، مع تزايد الصعوبات التى تلقاها عشرة أضعاف على الأقل .

وقذف الاميرال كنجهام بكل الوحدات البحرية الخفيفة لتحمل العبء وتتألف هذه الوحدات من ستة طرادات وتسع عشرة مدمرة ، وبدأت عمليـات الجـلاء ليلة ٢٤ من الموانىء اليـونانية الصـغيرة ، وسـواحلها الرملية فى الجنوب واسـتخدمت فيها فضلا عن القطع البحرية ، سفن النقل ، وسفن الهجوم ومجموعة من القطع الصغيرة .

وتواصل العمل طيلة خمس ليال متوالية ، وسيطر العدو فى ٢٦ على الجسر الهـام على قنـاة كورنث ، بهجـوم جوى عن طريق جنود

المظلات ، وانهالت القوات الألمانية على شبه جزيرة البلوبونيس ، يمطرون جنودنا المجهدين وابلا من النيران الحامية ، بينما هم يجاهدون لكى يصلوا الى الشطآن الجنوبية ، ونزلت بنا فى نوبليون احدى الكوارث ، فقد مكثت الناقلة « سلامات » فى الميناء وقتا اكثر مما ينبغى فى محاولة مستميتة ـ ولكنها غير مجدية ـ لتنقذ اكبر عدد من القوات ، وما كادت تقلع من الشاطىء بعد الفجر حتى انقضت عليها طائرتان فأغرقتاها ، وسعت مدمرتان لانقاذ القوات التى كانت تقلها ويبلغ عددهم سبعمائة جندى ولكن الغارات الجوية اغرقت المدمرتين ايضا ، ولم ينج رجال من القطع الثلاث سوى خمسين رجلا تقريبا .

وقام طرادان وست مدمرات فى ٢٨ ، ٢٩ بنقل ثمانية آلاف جندى وحوالى ألف واربعمائة لاجىء يوغوسلافى من السواحل القريبة من كالا ماتا ، وما كادت تصل احدى المدمرات الى المكان لتبدأ فى عملية الاجلاء حتى كان العدو قد احتل البلدة وشوهدت نيران الحرائق مشتعلة ، فعدلت المدمرة عن المهمة ، وفضلا عن أن قواتنا شنت هجوما على القوات المحتلة وأرغمتها على الانسحاب من البلدة ، فلم يقدر النجاة لاكثر من أربعمائة وخمسين رجلا من الشواطىء الشرقية، عن طريق أربع مدمرات استعانت به الزوارق ، وكانت هذه الاحداث نهاية لعمليات الانسحاب الأساسية ، واستطاعت قطعنا البحرية انقاذ جماعات صغيرة متناثرة فى عديد من الجزر أو فى زوارق صغيرة بالبحر فى غضون اليومين التاليين ، كما استطاع حوالى الف واربعمائة ضابط وجندى بفضل اليونانيين ورغم الاخطار الهائلة أن يمهدوا السبيل لهم نحو مصر فرادى فى خلال الاشهر التالية .

وهكذا خسرنا حوالى أحد عشر الف جندى ، ولكنا استطعنا انقاذ (٥٠ر٦٦٢) رجلا ، من بينهم رجال السلاح الجوى الملكى ، وعدة الوف من قبرص وفلسطين واليونان ويوغوسلافيا ، وهذا العدد يبلغ حوالى ٨٠٪ من القوة الاساسية التى أرسلت الى اليونان . وكان هذا ـ بكل تأكيد ـ بفضل بحارة اسطولنا التجارى وأساطيل أصدقائنا وما امتاز به أولئك البحارة من عزيمة قوية وخبرة وافرة ، وتصميم على أداء المهمة تحديا لكل ما قام به العدو من محاولات مستميتة عنيفة ، وقد خسرنا نتيجة للهجوم الجوى ٢٦ باخرة منذ ٢١ ابريل حتى نهاية الانسحاب . وقد بذل السلاح الجوى الملكى ووحدة من سلاح الاسطول الجوى من كريت كل ما فى طاقتها ، ولكن العدو كان يتفوق دائما عليهما بأعداد ضخمة من الطائرات ومع ذلك فقد قام سلاحنا الجوى بمهمات رائعة منذ نوفمبر الماضى الى آخر معركة اليونان فقد

اسقط بكل تأكيد (٢٣١) طائرة معادية ، وأمطر العدو بما يقدر بخمسمائة طن من القنابل . اما خسائر سلاحنا فكانت فادحة أيضا ، فقد أسقطت (٢٠٩) طائرات منها (٧٢) فى المعارك الجوية ، التى شهدت أمثلة نادرة من البطولة .

وكان الاسطول اليونانى الصغير قد فر الى الاسكندرية وكان عبارة عن طراد وست مدمرات حديثة ، واربع غواصات ، وصلت كلها سالمة فى ٢٥ ابريل وانضمت الى قواتنا تحت اشراف قادتنا وقد ابدى هذا الاسطول الصغير مهارة ملحوظة فى كل المعارك التى خاض غمارها بجانبنا منذ ذلك التاريخ فى البحر الابيض المتوسط .

واذا كانت كتابتى عن هذه الكارثة توحى بأن جيوشنا البريطانية والامبراطورية لم تعضدها المساعدات العسكرية اليونانية ، فان علينا أن ننسى أن هذه الأسابيع الثلاثة من الحرب من شهر ابريل ضد الحشود الهائلة ، تعتبر لدى اليونانيين قمة النضال الذى امتد خمسة اشهر ضد ايطاليا ، والذى قضى على كل منابع القوة والحياة فى البلاد ، فقد هوجم اليونانيون فى اكتوبر من عام ١٩٤٠ دون سابق انذار بقوات تبلغ ضعف ما لديهم على الاقل ، فصمدوا أمامها أولا ، ثم شنوا هجوما أرغم العدو على الانسحاب مسافة أربعين ميلا داخل البانيا ، كما استمر اليونانيون طيلة الشتاء القاسى ينازلون فى الجبال عدوا قد تفوق عليهم فى العدد والعتاد . ولم تكن فى حوزتهم وسائل النقل فى الشمال الغربى أو سبله اللازمة للقيام بمناورة سريعة يصدون بها الهجوم الالمانى العنيف فى آخر لحظة والذى يطوق مؤخرة الجيش اليونانى ويحاصر جناحه ، ولقد استنفد جيش اليونان كل طاقته فى الدفاع الباسل عن حياض وطنه .

ولم يكن ثمة سبيل ، لالقاء التهم ، فما لقيناه من اخوة ومساعدة من الجيش اليونانى قد استمرا فى صدق واخلاص الى النهاية ، وكان سكان اثينا وغيرها من مناطق الانسحاب الاخرى ، مهتمين بسلامة من عرفوا أنهم ما جاءوا الا لحمايتهم ، اكثر من اهتمامهم بسلامتهم الشخصية ، وسيظل الشرف العسكرى اليونانى نقى السيرة .

ووجهت اذاعة الى الشعب حاولت فيها أن لا أعبر عن مشاعر العالم الناطق بالانجليزية فحسب ، بل ان أعرض الظروف التى صنعت أقدارنا أيضا وجاء فيما اذعته :

« وبينما ننظر قلقين متألمين الى احداث أوربا وافريقيا والى ما قد يحدث فى آسيا علينا ان نسيطر على اعصابنا والا يستبد بنا الفزع أو الاحساس بوهن العزيمة ، وعندما نسلط نظرة فاحصة على المتاعب

التى مازالت تنتظرنا ، فاننا نتفرغ بالايمان من جديد اذا ما لاحظنا العقبات التى استطعنا اجتيازها الى اليوم ، وكل ما يحدث اليوم لا يمكن ان تقاس اخطاره بالاخطار التى واجهناها فى العام الماضى ولا شىء مما قد يحدث فى الشرق يمكن ان يقاس بما يعد اليوم فى الغرب .

وانى لاذكر ابياتا من الشعر ، احس بانها تتوافق مع ظروفنا الراهنة ، ويملؤنى الاعتقاد بأن كل أرض تنطق بالانجليزية ستصدق عليها هذا الحكم وكذلك كل بلد تحقق فيه راية الحرية .

« وبينما — عبثا — تتكسر الامواج الواهنة

بالمسة من الحصول على شبر من الشاطىء الهادىء

بعيدا .. هناك .. عبر الخلجان والمداخل

تأتى الموجة الغامرة ... فى هدوء

***

وعبر النوافذ الشرقية .. وحدها .. لا يأتى الضوء

عندما يشرق نور الصبح .. وتنسل الأشعة من النوافذ التى تصعد الشمس أمامها الى أجواء الفضاء ..

بطيئة وعلى مهل ...

بل هناك .. الى الغرب .. لا تزال الشمس مشرقة ...

جناح الصحراء

روميل - طبرق

اصبحت كل مهمتنا تكوين جبهة بلقانية مع الابقاء على جناح الصحراء فى شمال افريقيا ، وكان فى مقدورنا ان نكون هذه الجبهة فى طبرق ،ولكن ويفل اختار ان يستمر فى زحفه السريع غربا وان يستولى على بنغازى ، مما مهد لنا الاستيلاء على برقة كاملة ، وكانت الزاوية البحرية فى « العقليلة » هى المدخل لهذه المنطقة ، وتقرر فى القاهرة ولندن أن تستمر هذه الجبهة بكل الوسائل ، وأفرادها بالأولوية دون أية مغامرة أخرى ، وقد اقتنع ويفل نظرا الى تحطيم الجيوش الايطالية تحطيما كاملا فى برقة ، وبالنسبة للمسافات البعيدة التى يفرض على العدو اجتيازها قبل ان يستطيع الاتيان بقوات جديدة بأن فى استطاعته الى فترة طويلة الابقاء على هذا الجناح الفعال بوحدات معقولة والاستعاضة عن الوحدات المجربة بأخرى اقل منها خبرة ، ولم يكن يخطر ببال أحد ان يضحى بهذا المرتكز الذى يعتمد عليه كل شىء فى الصحراء أو تعرضه للخطر فى سبيل اليونان أو من أجل أى شىء آخر فى البلقان .

ولكن صعد الآن على المسرح وجه جديد ، هو مقاتل ألمانى سيفرض نفسه كثيرا على أساطير قومه وبطولاتهم الحربية .

ولد ايروين رومل فى هايد نهايم فى دورتمبرج فى نوفمبر سنة ١٨٩١ وفى الحرب العالمية الاولى اشترك فى معارك الارغون ورومانيا وايطاليا ، وجرح مرتين واستحق أرفع الاوسمة من الصليب الحديدى ومنح وسام الاستحقاق ، وتولى فى بداية الحرب العالمية الثانية قيادة مقر الفوهرر فى الحملة على بولندا ثم تولى قيادة الفرقة السابعة المدرعة (البانزر) من الفيلق الخامس عشر ، وقد سميت هذه الفرقة باسم « الاشباح » وكانت خلال جبهة الموز بمثابة رأس الرمح للاختراق الالمانى ، ونجا من الاسر بما يشبه المعجزة عندما شن البريطانيون هجوما مضادا على أراس فى ٢١ مايو سنة ١٩٤٠ ، وكانت فرقته ثانية رأس الرمح الذى اخترق السوم متقدما نحو السين فى اتجاه روان مطوقا الجناح الفرنسى الايسر ، وموقعا عددا كبيرا من الفرنسيين والبريطانيين حول سان فالبرى فى أسره ، واحتلت فرقته

شربورج ، بعد أن تم انسحابنا ، واستسلمت له المدينة ، وما بها من القوات الفرنسية التى كان يبلغ تعدادها ثلاثين الفا

وكانت هذه المهام الجسيمة هى الدافع الى اختياره ، فى بداية عام ١٩٤١ ، قائدا للقوات الالمانية المرسلة الى ليبيا ، وكانت أمانى الايطاليين فى ذلك الحين تنحصر فى الابقاء على مقاطعة طرابلس وتولى روميل قيادة الفرق الالمانية النشيطة تحت الاشراف العام للقيادة الايطالية ، وحاول اثر وصوله تدبير هجوم قوى وعندما طلب منه القائد الايطالى فى بداية شهر ابريل أن يتعهد له بعدم تحرك القوات الالمانية الافريقية بدون أوامره قال له روميل محتجا : « بصفتى قائد ألمانيا يجب على اصدار التعليمات حسب ما يملى على الموقف » .

ولقد أبدى روميل فى الحملة الافريقية ضروربا من البراعة فى قيادة التنظيمات وتوجيهها وخصوصا فى ارجاع التجمع على الفور بعد أى عملية ، والاستمرار فى اكتساب النصر والغلبة ، ولقد كان مغامر عسكريا نادرا ، يسيطر بكل براعة على شئون التموين ويستخف بالدفاع ، وكانت القيادة العليا الالمانية قد القت له الزمام فى بداية الأمر فأدهشها بانتصاراته ، وجنحت الى تقييد تصرفاته ، وقد أنزلت بنا حيويته اضرارا فادحة مؤلمة ، ولكنه جدير بالتحية التى أرسلتها فى مجلس العموم فى يناير ١٩٤٥ ، مع ما جلبته الى من لوم الجماهير فقلت آنذاك ان أمامنا خصما جريئا بارعا ، بل انى لاجد من الجرأة فى نفسى ما استطيع به ان اقول : اننا نواجه جنرالا عظيما ، خليقا بكل تقدير لأنه على الرغم من كونه جنديا ألمانيا مخلصا ، بدأ يمقت هتلر ويكره كل أعماله ، واشترك فى مؤامرة عام ١٩٤٤ لانقاذ ألمانيا من قبضة الدكتاتور المجنون ، وقد دفع حياته ثمنا لهذا العمل .

* * *

كان مضيق العقيلة مرتكز الموقف كله ، فاذا استطاع العدو اجتياح جبهتنا والوصول الى اجدابية، فان بنغازى وكل مايقع الى غرب طبرق ، تغدو فى خطر ، وكان على العدو أن يختار بين أن يمضى الطريق الساحلى الممهد الى بنغازى وما وراءها وبين الطرق الصحراوية التى تصل مباشرة الى المخيلى وطبرق ، والتى تتخلل منطقة صحراوية يبلغ طولها مائتى ميل وعرضها مائة وقد اخترنا نحن هذا الطريق فى شهر فبراير الماضى فحاصرنا وأسرنا بضعة آلاف من الايطاليين المنسحبين عبر بنغازى ولم نكن نفاجأ قط اذا اقتحم روميل الطريق نفسه وواجهنا بلعبتنا السابقة ، ولكن مادمنا مسيطرين على العقيلة فانه لا يستطيع استغفالنا بهذه الصورة .

وقد اعتمدت كل خطوة على ادراك طبيعة الحرب البرية والصحراوية معا فان الحرب فى الصحراء تستلزم تفوقا فى السلاح المدرع ، وفى نوع الجنود لا كميتهم وتستلزم جوا معينا . ولو ضمنا هذه الامور لاستطعنا ان ننتصر فى معركة الانهيار والتماسك فى الصحراء حتى ولو أصبحنا ببوابة العقيلة ، ولكن أى وضع من هذه الاوضاع لم يتهيأ لنا برغم كل الاعدادات التى اتخذناها ، كانت قوات العدو الجوية متفوقة علينا ، وكان سلاحنا المدرع فى حالة غير صالحة لاسباب سأذكرها فيما بعد ، كما كانت أحوال جنودنا التدريبية ومعداتهم الى الفرب من طبرق تثير الاسى .

وبدأ روميل فى هجومه على العقيلة يوم ٣١ مارس ، وتراجعت وحدتنا المدرعة التى لم تكن فى الحقيقة تتألف الا من لواء واحد مع مساعديه تراجعت فى بطء خلال اليومين التاليين ، وضح منذ البداية تفوق العدو الجوى ، ولم نكن نلقى بالا – للطائرات الايطالية، فثمة مائة طيارة المانية مقاتلة ، ومائة من القاذفات المنقضة وفى مواجهة قسوة هذا الهجوم انتشر نظام جيوشنا ونزلت بنا افدح الخسائر وانهار فى يوم واحد ، وفى ضربة واحدة ، جناح الصحراء الذى كان اساس جميع خططنا

وارسلت التعليمات بالجلاء عن بنغازى ، ولم تأت ليلة ٦ ابريل، حتى كان الاخلاء يتم بسرعة بالغة ، وكانت طبرق قد دعمت بقوات اضافية واصررنا على الاحتفاظ بها ، ولكن الفرقة الثانية المدرعة وكتيبتان هنديتان مدرعتان فوجئت بحصار من قوات العدو فاستطاع عدد من الرجال اختراق طريق للنجاة بانفسهم من هذا المأزق واسروا حوالى مائة جندى المانى ، ولكن الاغلبية قد استسلمت مرغمة ، وعلى التو اندفع العدو الى البردية والسلوم بواسطة عدد كبير من السيارات المدرعة الثقيلة والمشاة المحملين على السيارات ، بينما شنت قوات اخرى هجومها على خطوط طبرق الدفاعية ، واستطاعت قواتها الصمود امام هجومين منزلة بدباباته العدو اضرارا بالغة ، وهكذا استتب الامر فى تلك الآونة بكل من طبرق والحدود المصرية .

* * *

كانت الهزيمة التى منى بها جناح الصحراء على حين وجود جيوشنا فى معركة اليونان فاجعة من نوع فريد ، واستبدت بى الحيرة الكاملة فى العوامل التى ادت الى هذه الكارثة ، ولذا فقد أسرعت فى مساءلة الجنرال ويفل فى بداية فترة التوقف ، وطلبت اليه أن يوضح لى بصورة كافية كل ماحدث ، وكان مما لاينسى أن الجنرال نسب

الى نفسه كل تقصير ، ورأى أنه سبب الكارثة التى استنفدت كل مالديه من سلاح مدرع .

وبينما كنت فى رتيشلى أقضى عطلة الاسبوع فى يوم الأحد ٢٠ ابريل وصلتنى رسالة كتبها الجنرال ويفل الى رئيس أركان حرب الامبراطورية يوضح فيها خطورة الموقف ، وقد توسع فى الحديث عما يوجد لديه من دبابات .

ورسم لى لوحة قاتمة ، واستطرد قائلا : « ويظهر من هذا بوضوح أن هناك فرقتين فقط من الدبابات السريعة فى مصر فى أواخر شهر مايو ، بينما لم تكن هناك أية قوة متوافرة لسد الفراغ حين وقوعه ، وبالرغم من أن لدينا بمصر قوات مدربة ومتفوقة تكفى لعدة كتائب ، وان مدنا بالدبابات الثقيلة والسريعة أمر جوهرى وخصوصا أن الدبابات الثقيلة تنقصها السرعة وتحتاج الى مجال العمل الفسيح الذى تحتمه العمليات الصحراوية ، أرجوك يارئيس الاركان أن تبذل شخصيا كل مافى وسعك » .

وقد فزعت من قراءة هاتين الرسالتين ورأيت أن أتغافل عن كل تردد يبدو على الاميرالية من ارسال القوات عبر البحر الابيض المتوسط ، وأن أرسل الى الاسكندرية راسا قافلة تتضمن مايحتاج اليه الجنرال ويفل من الدبابات . وكنا قد جهزنا قافلة بامدادات مدرعة ضخمة ، وكادت أن تقلع الى مصر عن طريق راس الرجاء الصالح ، فقررت أن تتجه البواخر السريعة الحاملة للدبابات فى القافلة من جبل طارق نحو مصر متخذة أقصر طريق حيث توفر أربعين يوما ، وحضر الجنرال ايسماى ليرانى عند الظهيرة وكان يقيم بالقرب من المنزل الذى أقيم فيه ، فدفعت اليه برسالة خاصة ليبلغها بدوره الى رؤساء الاركان ، ورغبت اليه فى ان يذهب بها عاجلا الى لندن ، وأن يؤكد لرؤساء الاركان أننى اعطى أهمية بالغة لتنفيذ هذه الفكرة عاجلا .

وكان رؤساء الاركان فى الوقت الذى وصل فيه ايسماى الى لندن يعقدون اجتماعات ، فأخذوا يناقشون رسالتى ساعة متأخرة من الليل . وكانت احساساتهم الاولى لا تؤيد ما جاء بها ، كما كان املهم ضعيفا فى أن تستطيع السفن المحملة بالدبابات أن تمخر عباب المتوسط ، متجنبة كل خطر بينما تواجه بعد اجتيازها مالطة ودخولها فى المضايق هجمات من طائرات العدو المنقضة ، بينما لا تستطيع طائراتنا المقاتلة فرض حماية عليها من قواعدها الساحلية ، واشار بعضهم الى حاجتنا للدبابات فى داخل البلاد والى أن اى خسارة فى الدبابات خارج البلاد

تستلزم ــ لتعويضها ــ ارسال دبابات اخرى من سلاحنا الداخلى ؟.

وعندما اجتمعت فى اليوم التالى مع لجنة الدفاع احسست بالارتياح لوقوف الاميرال باوند الى جانب رايى ، وموافقته على عبور القافلة فى البحر المتوسط وتعهد ماريشال الجو بورتال رئيس اركان السلاح الجوى بأن يبذل كل ما فى وسعه لارسال وحدة من طائرات « البوفاتير » ، لتضفى من جزيرة مالطة حمايتها على القافلةورغبت حينئذ الى اللجنة أن تبحث فى ارسال مائة دبابة سريعة اخرى مع القافلة ، فاعترض الجنرال ديل على ذلك بحجة افتقارنا الىالدبابات فى الدفاع الداخلى ، ولكنى تذكرت أنه ابدى موافقته سابقا وقبل عشرة شهور على ارسال نصف ماتحت يدنا من دبابات الى الشرق الاوسط عن طريق راس الرجاء الصالح وكان هذا فى يوليو سنة ١٩٤٠ ، لذلك لم أسلم بحجته الراهنة ، ولعل القارىء يذكر انخطر الغزو لم يكن بالنسبة لنا فى أبريل سنة ١٩٤١ خطرا مهددا بالنظر الى ما أعددناه من ترتيبات المقاومة ، وهانحن اليوم نرى أن رايى كان صائبا وقد استقر الرأى أخيرا على تنفيذ هذه الخطة التى دعوناها باسم « النمر » .

***

وبينما حدث كل هذا كانت طبرق لا تزال تملأ خواطرنا ، فقد فقدنا كل طائرات « الهاريكين » فى اليونان ، وفى طبرق حطم عددمنها أو أسقط ، وأكد ماريشال الجو لونغمور أن كل محاولة للابقاء على سرب من الطائرات المقاتلة فى طبرق ستضيف خسارة جديدة دون أن تخدم غاية ، وهكذا سيمضى العدو فى سيطرته الكاملة على سماء طبرق الى أن نقدر ثانية على تجهيز قوة جوية محاربة ، ومع ذلك فقد صدت قواتنا هناك هجوما جديدا للعدو وكبدته خسائرلايستهان بها ، وأسرت من رجاله مائة وخمسين .

وقد أرسل الينا الجنرال ويفل عاجلا اخبارا مروعة أخرى عما ينتظره رومل من أمدادات جديدة ، واخبرنا بأن نزول الفرقة الالمانية المدرعة الخامسة عشرة الى الساحل سيتم فى ٢١ ابريل ، وكانت هناك علامات على استخدام بنغازى فى هذه العمليات بشكل منظم ، وعلى الرغم من أن حشد المؤن يستلزم خمسة عشر يوما على الاقل الا أن ويفل توقع أن تبدأ الفرقة الالمانية الجديدة المدرعة ، والفرقة الخامسة الآلية الخفيفة ، والفرقتــان الايطاليتان اريتى وترنتو هجوما فى منتصف يونيو ، وقد ازعجنا ونحن فى الوطن أن نعجز عن

استخدام بنغازى قاعدة ، مفيدة ، بينما يستطيع الالمان بعدسيطرتهم عليها استخدامها على هذا النحو .

وفى الاسبوعين التاليين اخذ اهتمامى وقلقى يجتمع فى سير عملية « النمر » ولم أهون أبدا من مدى الاخطار التى اخذ على عاتقه لورد البحر الاول مواجهتها ، وادرك أن الاميرالية تنظر للعملية بقلق وخوف ، ومرت القافلة المكونة من خمس بواخر تسير بسرعة خمس عشرة عقدة بمضيق جبل طارق فى ٦ مايو تحت حراسة من قوة الاميرال سرموفيل التى تتكون من ربناون والملايو وارك رويل وشيفلد واحتوت القافلة كذلك على المجموعات التى بعث بها لتدعيم اسطول متوسط وتتكون من الملكة الياصبات ـ وناياد وفيجى ،وصدت الغارات التى شنت على القافلة فى ٨ مايو دون أن تصاب احدىالقطع بأى سوء ، لكن الالغام فى تلك الليلة قد انفجرت فى باخرتين لدى اقتراب القافلة من مضيق صقلية فنشبت الحرائق فىأحداهما وغرقت بعد الانفجار حدث على سطحها وقدرت الثانية على الاستمرار فى الرحلة مع القافلة ، وعندما وصلت القافلة مدخل المضيق من جانب قناة سكيركى غادرها الاميرال سومر فيل بقواته وعاد الى جبلطارق وجاء الاميرال كنجهام الذى تهيأت له الفرصة فى ٩ مايو لتسيير قافلة الى مالطة فالتقى بقافلة « النمر » بأسطوله على بعد خمسين ميلا جنوب الجزيرة ، وشقت كل هذه القوات طريقها . نحو الاسكندرية حتى رست بها فى امان دون اى ضرر او خسارة

وبينما كان قدر العملية كلها مجهول المصير ، ذهبت بافكارىالى جزيرة كريت التى كنا على يقين من وقوعها تحت وطاة هجوم جوى بين لحظة واخرى ، وفكرت فى ان الالمان اذا قدروا على احتلالمطارات الجزيرة واستعمالها ، فستكون لديهم الفرصة دائما لتعضيدمركزهم وتدعيم أوضاعهم ، وان فى مقدور اثنتى عشرة دبابة أن تفرض عليهم حرمانا أبديا من هذه الفرصة ، ولهذا طلبت من رؤساء أركان الحرب أن يدرسوا احتمال اقلاع عدد من بواخر القافلة « النمر » الى كريت لتمدها بعدد قليل من هذه الدبابات قبل ان تصل الى الاسكندرية .

وعلى الرغم من موافقة زملائى الخبراء على الاهمية القصوى لارسال هذه الدبابات الا انهم راوا أن الاسلم عدم استهداف بقية ما تحمله الباخرة لخطر مؤكد نتيجة لهذا التغيير ، واستنادا لهذا طلبت فى ٩ مايو تجنبا لما يحدث من اخطار انه لو ابحرت احدى السفن كطلان لامونت مثلا الى خليج سودا فى كريت ، أن تبحر هى

او سواها بعد أن تنزل حمولتها في الاسكندرية وتحمل اثنتى عشرة دبابة لتنزلها هناك ، واصدرت التعاليم بمقتضى هذا مباشرة ، وارسل الينا ويفل فى ١٠ مايو انه قد تمت الاجراءات لنبعث الى كريت بست دبابات ثقيلة وخمس عشرة دبابة خفيفة .

ويحتمل وصولها خلال الايام القليلة القادمة اذا واتت الظروف، وكانت الامور تسير سيرا حسنا لكن الزمن كان معنا فى سباق .

كريت

فى مختلف شئوننا فى البحر الابيض المتوسط بدت بوضـــوح الاهمية الاستراتيجية لكريت فالبوارج البريطانية التى تتخذ من خليج سودا قاعدة لها أو التى تتزود منه بالوقود تستطيع أن تفرض حماية - ليس من السهل تجاهل اهميتها - على جزيرة مالطـــة ، فاذا استطعنا حماية قاعدتنا فى كريت ومقاومة كل الغارات الجوية ، فان تفوقنا البحرى يصد بصورة كافية كل هجوم عن طريق البحر ، ولكن على بعد مائة ميل فقط من الجزيرة كانت توجد قلعة رودس الايطالية بما جهزت به من مطارات شتى ومنشآت حربية هامة ، بينما لم يكن يوجد فى كريت سوى الصمت والجمود وكنت قد ارسلت التعليمات المتوالية بضرورة تحصين خليج ســـودا ، واشرت فى احـداها الى ضرورة أن يصير هذا الخليج « سكابا فلو » جديدة ، والآن وقد مرت على الجزيرة وهى تحت سيطرتنا اكثر من ستة اشهر ، وليس فى وسعنا تدعيم الميناء بمجموعة حديثة من بطاريات المدفعية المضـادة للطائرات الا اذا انتقصنا من حاجتنا الماسة فى جوانب أخرى ، كمـا أن قيادة الشرق الاوسط كانت لاتعرف السبيل لسد احتياجاتها الى العمال اللازمين لتوسيع المطارات واصلاحها ، ولم تكن هناك ضرورة ملحة لوجود قوات كبيرة فى كريت أو حشد وحدة جـوية كبيرة فى مطاراتها مادامت بلاد اليونان فى يد الحلفاء ، ولكن كان المفروض أن تعد كريت كقاعدة تستقبل الامدادات حين توفرها ، وعنـد اقتضاء الظروف لارسالها ، ولاشك فى أن تبعة القصور فى تفهم المشكلة ، وفى ضعف التنفيذ للاوامر الصادرة تتوزع بين القاهرة وهو يتهول معا ، ولم تتضح لى جسامة الاعباء التى يحملها كاهل الجنرال ويفل وجهازه، ومدى القصور فى تكوين هذا الجهاز الا حين حلت بنا الكوارث فى برقة وكريت والصحراء ، لقد جهد ويفل وسع طاقته ، لكن الجهاز التنفيذى الذى كان تحت يده لم يكن كفؤا لتحمل الاعباء الكثيرة الهائلة المفروض اضطلاعه بها نتيجة لاربع أو خمس معارك تنشب فى وقت واحد .

***

وكان جهاز مخابراتنا فى ذروة دقته ومهارته فى تلك الآونة ، ففى غمار الاضطراب الشديد الذى اجتاح اثينا غداة الاحتلال الالمانى

لها ، بدأ ضباط الاركان الالمان يتخففون مما اشتهر عنهم من حيطة وحذر ، وكتمان شديد للاسرار الحربية ، فدب النشاط فى وسائل استخباراتنا ، وتذرعوا بالجراة والحيوية ، مما أتاح لنا فى الاسبوع الاخير من شهر ابريل أن نتلقى معلومات هامة عن الضربة القادمة لألمانيا ولم يكن فى مقدور الالمان التستر على تحركات الفيلق الجوى الحادى عشر ولا نشاط رجاله ، أو اخفاء سرعة تجميع القطع البحرية الصغيرة فى الموانىء اليونانية عن العيون اليقظة والاذان المرهفة ، وقد تحملت بما لم يسبق له مثيل ــ متاعب شخصية فى دراسة كافة التقارير وتقدير شتى البراهين ، للتأكد من درجة الوعى اللازمةلدي ا لقادة بالاهمية الخاصة للهجوم المنتظر ، وللتأكد من انهم قاموا بنقل هذا الوعى الى قادة العمليات الفعلية فى الميدان .

وكنت قد رغبت الى رئيس أركان الحرب ، أن يتولى الجنرال فيربرغ قيادة ــ جزيرة كريت ، فأبلغ الرئيس بدوره رغبتى الى الجنرال ويفل الذى وافق على الفور ، وكان فريبرغ صديقى من سنين عديدة ، وكان حائزا على وسام صليب فكتوريا ووسام الخدمة الممتازة ، ووسامين آخرين ، مما يؤكد تفوقه فى اداء واجبه العسكرى، وكان كمثيله الاوحد ــ كارتون دى ويارث ــ يستحق لقب «الضفدعة» الذى أطلقته عليه ، فكلا الرجلين بطل جابه النيران بصلابة وكاد أن يطير أشلاء دون أن يتأثر فى جسده أو فى معنوياته بما يتعرض له من أهوال ، ولم يكن أحق منه فى بداية الحرب بتولى قيادة الفرقة النيوزيلندية فتولى قيادتها ، وكان يدور بذهنى فىسبتمبر سنة ١٩٤٠ أن يعهد اليه بقيادة أكثر فاعلية ، وهاهى الفرصة المواتيةالتى تتقدم اليه فيها هذه القيادة المهمة ليتولى زمامها .

ولم يكن أى من فيربرغ وويفل واهما أو خياليا ، فالوضع الجغرافى لجزيرة كريت يجعل من الدفاع عنها معضلة ، فهناك طريق احد يسير فى محاذاة الشاطىء الشمالى للجزيرة وتوجد على امتداده كل النقاط الصالحة للهبوط والغزو فى الجزيرة وكان من المحتم أن تصبح فى كل نقطة الوسائل الكافية لتأمينها ، ولم يكن فىوسعنا توفير قوة احتياطية ، حرة التحرك تتمكن من الانتقال الفورى الى أىنقطة يقع عليها تهديد بعد أن يكون العدو قد قطع الطريق المشار اليه ودعم موقفه فيها ، وهناك طرق غير صالحة للسيارات تمتد من جنوب الجزيرة الى شمالها وعندما اقترب الخطر من الجزيرة اخذت العقول الموجهة تبذل ماق وسعها لحشد الامدادات والتموين والاسلحة وخاصة المدافع فى الجزيرة ، ولكن الوقت كان قدمضى ، ففىالاسبوع

التالى عن شهر مايو كان السلاح الجوى الالمانى من قواعده فى اليونان وجزر بحر ايجه قد قام بتطويق عنيد وكبدنا اضرارا جسيمة فى وسائل النقل وخاصة على الساحل الشمالى ، وهو مكان الموانىء الوحيدة فى الجزيرة فلم نستطع انزال اكثر من ثلاثة آلاف طن من سبعة وعشرين الفا من الامدادات الهامة أرسلناها فى الاسابيع الثلاثة الاولى من شهر مايو الى البر ، وقد عادت بقية الحمولة ، وكنا قد أوجدنا فى الجزيرة حوالى خمسين مدفعا مضادا للطائرات ، وأربعة وعشرين كشافا ، وكان لدينا هناك كذلك خمس وعشرون دبابه خفيفة بعضها كان فى حاجة الى اصلاحات وتناثرت حامياتنا فى شتى المناطق التى يتوقع هبوط العدو بها وكان مجموع هذه القوات يبلغ حوالى ثمانية وعشرين الفا .

ولكن السبب الرئيسى الذى مهد لهجوم الالمان هو ضعفنا الجوى ، فكانت طائرات سلاحنا الجوى فى بداية مايو لاتعدو ستا وثلاثين طائرة ، يصلح النصف منها فحسب لدخول معركة وقد وزع هذا العدد القليل على ربيتمومااليمى وهيراقليون وكانت شيئا لا يعبأ به بالنظر الى الافواج الهائلة التى انهالت على سماء الجزيرة وقد ادرك جميع من يهمهم الامر ضعف سلاحنا الجوى ، وفى ١٩ مايو اعطيت التعليمات بانسحاب لما تبقى من طائرات الى مصر ، وكانت وزارة الحرب ورؤساء الاركان والقادة العاملون يدركون أن عليهم أن يختاروا بين أمرين : اما الاشتباك وسط هذه العوامل المروعة ، أو الجلاء عن الجزيرة كما كان ذلك متاحا فى مطلع شهر مايو ، ولكن اتحدت وجهات نظرنا على ضرورة الاشتباك ، وعندما ندرك الآن بالنظر الى ماتوفر لنا اخيرا من دلائل ، اننا بغض النظر عن كل صعوباتنا كدنا ننتصر فى القتال وأن ما أحرزناه بفشلنا كان مكسبا بعيد المدى ونحس بالارتياح لاننا قررنا أن نغامر وسط هذه الاخطار ، وان ندفع الثمن مهما كان غاليا .

* * *

بدأ القتال فى صباح ٢٠ مايو ، ولم نشهد حتى هذا التاريخ هجوما اكثر منه اندفاعا وعنفا ، فقد كان لاسباب كثيرة طرازا وحده ، لم ير العالم مثله ، لقد كان أول هجوم فى سجل الحروب ينقل بالجو على نطاق واسع ، وكان الفيلق الالمانى يمثل عنفوان حركة الشبيبة الهتلرية ، كما كان تجسيدا عنيفا للثار من اندحار عام ١٩١٨ ، وكان جنود المظلات النازيون بولائهم الشديد وبسالتهم النادرة تعبيرا عن عنفوان الرجولة الالمانية ، وعاطفتها المندفعة للتضحية على مذبح مجد

المانيا ووهم السيطرة على العالم ، وقد شاء القدر لهم ان يصطدموا بكبرياء جنود اتى اكثرهم من طرف العالم الاخر عبر المحيطات والبحار متطوعا للدفاع عن الوطن الاب وعن كل مايؤمن به من قيم الحـق والحرية .

وبذل الالمان اقصى ما فى وسعهم من قوة ، فقد اعتبر جورنج هذا الهجوم اعظم ماسيقوم به ، وكان من المحتمل ان يفرض هـذا الهجوم على انجلترا ذاتها سنة ١٩٤٠ لو دمر سلاحنا الجوى آنذاك ، ولكن هذا الامل ضاع هباء ، وكان ربما يقع على مالطة ، ولكننا أسرعنا بتفادى هذه الضربة ، وقد لبث الفيلق الالمانى الجوى ينتظر مايزيد عن سبعة أشهر ليسدد هذه الضربة ، وليكشف عن مدى قوته ونوع معـدنه ، وها هو جورنج يجد فى وسعه أخيرا ان يصدر الامر الذى تحرقوا شوقا اليه ، وعندما شب القتال لم تكن لدينا المعلومات الكافية عن جنود المظلات لدى العدو ، وكان من المحتمل أن يكون الفيلق الجوى الحادى عشر وحدة من مجموع وحدات ست من هذا الطراز ، وقـد مـرت بضعة شهور على المعركة قبل أن نعرف يقينا ان هذا الفيلق كان وحده كل مالدى الالمان من هذا الطراز ، لقـد كان فى الواقع رأس الرمح للسلاح الالمانى ، وهذه هى حكاية نجاحه وحكاية تدميره .

تم اسكات مدافعنا المضادة للطائرات فى ماليمى دفعة واحدة ، وقبل انتهاء الضرب الجوى أخذت الطائرات التى تسير بلا محركات تنزل غرب المطار ، وكانت الطائرات تمطر قواتنا حيث توجد وابلا من قذائفها ، واستحال القيام بهجوم مضاد فى وضح النهار ونزلت هذه الطائرات أو ناقلات الجنود على السواحل وعلى السهل الضيق وعلى أرض المطار الذى حطمته القذائف ، واستطاع خمسـة آلاف جندى المانى النزول الى الارض فى اول يوم حول ماليمى وكانيا وفيما بينهما ، وقد كبدتهم نيران النيوزيلنديين الذين التحموا معهـم فى معركة بالسلاح الابيض أضرارا جسيمة ، وعندما أتى المساء كان المطار لايزال تحت أيدينا ، ولكن من كان لايزال باقيا من الفوج انسحب عنه الى النقط المساعدة أثناء الليل واستهدف القصف الجوى العنيف ريتيمو وهيراقليون فى ذلك الصباح ، واعقب ذلك هبوط جنـود المظلات عند الظهيرة ، وشبت معركة حامية ، وعندما جن الليل كان كل من المطارين تحت سيطرتنا الكاملة ، وهكذا كانت نتيجة الاشتباك فى فى اليوم الاول مرضية الى حد ما باستثناء القتال فى ماليمى ، ولكن عدد الجنود الذين نزلوا فى كل نقطة من النقاط كان ضخما ، وقد كان عنف الهجوم اكثر مما دار فى خواطرنا كما أن العدو لم يكن يتوقع هذا الدفاع المستميت .

وفى اليوم الثانى واصل العدو غاراته التعسية ، عندما أطلت الطائرات من حاملات الجنود ، وبالرغم من أن مطار ماليمى ظل تحت وابل من نيران مدافعنا القريبة منه ، الا أن حاملات الجنود استمرت فى النزول به ، وغريبا منه رغم وعورة الارض ، وبدا أن القيادة الالمانية كانت تستهين بالخسائر فقد دمرت حوالى مائة طائرة على الاقل خلال نزولها فى تلك المنطقة ، ومع ذلك واصل العدو عنفوان هجومه ، وشنت هجوما مضادا فى تلك الليلة ، زحفت فيه نحو اسوار المطار ، ولكن عندما بزغ النهار عادت الطائرات الالمانية من جديد فاستحال على قواتنا الابقاء على مكاسبها .

واصبحت ماليمى فى اليوم الثالث بالنسبة للعدو مطارا حسنا للعمليات واستمرت ناقلات الجنود تنهال بما يبلغ عشرين طائرة فى كل ساعة

وكان فى مقدور هذه الطائرات ان تكرر عملياتها ، وقد بلغ عدد الطائرات التى هبطت فى تلك الايام والايام التالية حوالى ستمائة طائرة، ونتيجة للضغط المتفاقم بدأ اللواء النيوزيلندى يتراجع الى مابعد عشرة أميال من ماليمى ، ولم يتغير الموقف فى كانيا وسودا ، أما فى ريتيموا ، فقد بقيت لنا السيطرة على الموقف فى هيراقليون بدأ العدو فى عملية انزال شرقى المطار ، واخذ فى تثبيت اقدامه على مساحة تتسع شيئا فشيئا .

وفى الليلة التالية رات قواتنا المجهدة نارا تشتعل فى صفحة السماء من ناحية الشمال وشاهدوا بريق انفجارات ، فأيقنوا أن اسطولنا بدأ يدخل المعركة واخذت اول قافلة المانية بحرية تبذل محاولة مستميتة ، فتعقبتها البوارج البريطانية طيلة ساعتين ونصف الساعة مغرقة اثنى عشر زورقا على الاقل وثلاث بواخر مفعمة بالجنود الالمان ، ويبلغ عدد الغرقى من رجال العدو حوالى أربعة آلاف فى تلك الليلة ، وفى خلال ذلك كان الرير اميرال كنغ قد امضى الليلة يمخر عباب البحر أمام هيراقليون على طراداته الاربع ومدمراته الثلاث ، وعندما أطل صباح الثانى والعشرين بدأ يذهب نحو الشمال ، فأغرق احد الزوارق المزدحمة بالجنود ، ووصل الى جزيرة ميلوس فى الساعة العاشرة ، وبعد دقائق قليلة رؤيت مدمرة معادية ترافقها بعض الزوارق الصغيرة فى شمال الجزيرة ، فناوشتها الوحدات البريطانية وشب بينهما القتال ، ولاحت مدمرة اخرى وهى تنفث سحبا من الدخان ، وتحت هذا الستار يغيب عدد آخر من القوارب ، وهكذا اعترضت وحداتنا البحرية طريق قافلة اخرى مبهمة للعدو محملة بالجنود ، وقد أخبرت طائرات الاستطلاع هذا الى الاميرال كابنجهام ،

ولكن مرت اكثر من ساعة قبل أن يتأكد الاميرال كنغ من هذه الاخبار، وكانت قطعه البحرية تغير عليها الطائرات العادية منذ الصباح وعلى الرغم من سلامتها التامة فان ذخيرة المدافع المضـــادة للطائرات قد قاربت الانتهاء ، ولم يدرك الاميرال اى مكسب كان على بعد خطوات منه ، ولكنه احس بان استمراره فى المضى شمالا ، يهدد قواته بالتوقف تماما عن الحركة ، ولذا فقد اعطى تعليماته بالتراجع غربا ، وعنــدما وصلت التعليمات الى القائد العام اصدر أوامره الحاسمة .

« احرص على موقعك ، واتصل بنا باستمرار ..

يجب الا ينزل الجيش الالمانى فى كريت ، من المهم جدا الا ينزل جنود الاعداء من البحر فى الجزيرة .

وقد مضت الفرصة الآن لتدمير القافلة التى رجعت أدراجهــا وتناثرت فى اتجاهات شتى بين مختلف الجزر ، وهكذا فر خمســـة آلاف جندى المانى من نفس المصير الذى لقيه زملاؤهم ، ولعــل ما وضح الآن من غرابة هذا التصرف للقيادة الالمانية ، واصدارها الامر لهذه القافلة بالسير محملة بالجنود ، ودون أن تفرض عليها ايةحماية فى مياه لا تسيطر بحريا عليها ولا جويا ، يعتبر مثالا لما كان يمــكن أن يحدث ، وعلى مدى اوسع فى بحر الشمال وقناة المانش فى سبتمبر من سنة ١٩٤٠ انه يشير الى نقصان خبرة الالمان ومدى فهمهم القــاصر لاثر القوة البحرية فى مقاومة القوات الهاجمة ويشير كذلك الى الثمن الباهظ الذى قد تدفعه حياة البشر عقابا على هذا النوع الغريب من الجهل .

وكان الاميرال كننجهام قد عقد عزمه ، على تحطيم الغزاة بطريق البحر مهما اتخذ من وسائل ، ولذلك فقد القى بكل جنوده فى لهيب المعركة ، ولم يعتره اى تردد فى هدفه فقذف بعدد من بوارجه الغالية فى الميدان بل اقحم كل اسطول الشرق الاوسط عن آخره ، وقــد اجمعت الاميرالية اجماعا تاما على قراره ، ولم تكن القيادة الالمانية تقامر وحدها بكل شيء لديها فى هذه المعركة ، ولذلك اكدت الاحداث التى وقعت فى الثمانى والاربعين ساعة بين الحرب البحرية للعدو انمحاولة انزال قواته من البحر مستحيلة ، فلم يكرر المحاولة نفســها مرة اخرى حتى تحدد مصير جزيرة كريت .

وفى يومى الثانى والعشرين والثــالث والعشرين من مايو دفع اسطولنا ثمنا غاليا فقد منى طرادان منه وثلاث مدمرات بالغــرق كما توقفت البارجة وورسبايت عن التحركات لمدة غير قصيرة ،ومنيت البارجة الاخرى فاليانت وغيرها من القطع البحرية بخسائر فادحة ،

وبالرغم من كل ذلك حمينا الجزيرة بحريا ، ووفق الاسطول فى أداء واجبه ، ولم يستطع المانى واحد ان يطأ بقدمه الجزيرة من طريق البحر الى ان انتهت المعركة .

وكان يوم ٢٦ مايو يوما فاصلا ، فطيلة الايام الستة الماضية كانت قواتنا هدفا لقسوة ضارية ، ولم يكن فى وسعها أن تصمد أكثر، فاتخذ فى تلك الليلة قرار الانسحاب من كريت . وفرض علينا أن نقوم من جديد بتلك العمليات الشاقة المزعجة ، وأن نتوقع أفدح الخسائر ، وان يقوم الاسطول المنهك القوى بعملية ترحيل لحوالى اثنين وعشرين الف جندى اغلبهم من الساحل المنكشف فى «صفاقية» وكان من المحتم ان تستتر القوات بالصخور الى ان تدعى لركوب البواخر ، وكان هناك على الاقل خمسة عشر الف جندى يتخذون من شقوق الارض واخاديدها مخابىء لهم بالقرب من صفاقية ، بينما استمرت المؤخرة فى مناوشات مستمرة مع الاعداء .

وحدثت فاجعة للحملة التى جهزها الاميرال رولينجز فى نفس الوقت لانقاذ رجال الحامية الى الطرادات المنتظرة بالخارج ، وتمت المهمة فى الساعة الثانية والنصف صباحا ، وابحر اربعة آلاف جندى على السفن الحربية التى اخذت سبيل العودة وكانت القيادة قد دبرت تامينا جويا لها ولكن الطائرات المقاتلة لم تستطع الوصول ، ولا العثور على السفن لتغير المواقيت وفى السادسة صباحا بدات الغارة العنيفة تمطرهم بوابل من القذائف ، وتواصل ذلك حتى الثالثة مساء عندما بدت القافلة على بعد مائة ميل من الاسكندرية،واصيبت المدمرة « هيروورد » اصابة شديدة فى الساعة السادسة والدقيقة الخامسة والعشرين ، ولم تقدر على الاستمرار فى رحلتها وفر الاميرال وكان محقا فى ذلك ان يدع المدمرة المصابة لتواجه اقدارها ورؤيت للمرة الاخيرة بالقرب من شواطىء كريت ، وقد نجا أكثر من كانت تقلهم من الجنود ، ولكن الالمان قد اسروهم ، وفيما بعد حدث أسوأ من ذلك ، فقد اصيب الطرادان ديدو ، وأوريون ، والمدمرة ديكوى فى خلال الساعات الاربع التالية وخفت سرعة القافلة الى احدى وعشرين عقدة ، ولكن سائر قطعها استمرت فى السير نحو الجنوب ، وعلى سطح الطراد أوريون كانت الاحوال مثيرة للرعب فعلا ، فقد كان هناك الف ومائة جندى فضلا عن رجالها ، وقد قتل حوالى ٢٦٠ جنديا ، واصيب ٢٨٠ جنديا آخر بجراح نتيجة لاختراق قنبلة ظهر الطراد ، وقد سقط قبطان الطراد « باك » قتيلا وشبت فيه الحرائق ولاحت فى الافق لدى الظهيرة طائرتان من نوع الفولمار من سلاحنا الجوى فأثارت فى النفوس مشاعر التفاؤل ، ورغم ماقام به سلاحنا

الجوى من جهود فلم تستطع طائراته أن تعثر على الوحدات المعادية ، مع انها اشتبكت فى أكثر من قتال واصابت طائرتين من طائرات العدو على الاقل ، وعندما انتهت القوات الى ميناء الاسكندرية فى الساعة الثامنة مساء ٢٩ ، رؤى أن مجموع الذين قتلوا أو جرحوا أو اسروا يبلغ خمس قوات الحامية التى كتبت لها النجاة من هيراقليون .

* * *

وبعد هذه المحن كان على الجنرال ويفل ورفاقه انيفكروا الى اى مدى سيحاولون انقاذ جنودهم من جزيرة كريت، فقد كان الجيش فى خطر داهم ، وليس فى وسع السلاح الجوى أن يفعل شيئا ، وكل الاعباء تثقل كاهل الاسطول المنهوك القوى الذى أصابته القذائف وكان من راى الاميرال لينجهام أن ترك الجيش ليواجه قسوة هذا الاختبار أمر يتجاوز حدود تقاليده البحرية وصرح الاميرال بانانشاء سفينة واحدة يستغرق ثلاث سنوات من الاسطول ولكن تدعيم تقاليد جديدة يتطلب ثلثمائة عام ، ولذلك فلن تنقطع مهمة نقل الجنود .

وعندما أتى صباح ٢٩ كان خمسة آلاف جندى قد انقذوا ، ولكن مازال عدد كبير يدفع ثمن بقائه ، ويتستر فى مداخل صفاقية ، ويتعرض لنيران العدو اذا ماغادر مخابئه بعض الوقت وكان اتخاذ

رار الانقاذ بما فيه من مغامرة أخرى بخسائر بحرية غير معروفة المدى قرارا يحمل مبرراته ليس بالنظر الى بواعثه فحسب ، بل باعتبار النتيجة ايضا .

وابحر الاميرال فى يوم ٢٨ الى صفاقية واستطاع ستة آلاف جندى فى الليلة التالية ان يصلوا الى سفن النقل دون ماتدخل من الاعداء ، وعلى الرغم من استهداف القوات البحرية للهجوم ثلاث مرات يوم ٣٠ من نفس الشهر الا انها وصلت الى الاسكندرية سالمة ، وهم مدينون لحسن حظهم لطائرات السلاح الجوى الملكى ، التى استطاعت رغم عددها الضئيل ، أن تصد الطائرات المعادية فى أكثر من غارة قبل أن تتمكن من اهدافها ، وفى صباح يوم ٣٠ ابحر القبطان اوليس ثانية الى صفاقية وبصحبته مدمرات اربع ، اضطرت اثنتان منها الى العودة ، واستطاعت الاخريان اجلاء الف وخمسمائة جندى بنجاح ، وبرغم الاضرار التى أصيبتا بها فى طريق العودة الا انهما وصلتا الى الاسكندرية بسلام . وكانت القطع البحرية قد نقلت ملك اليونان بعد أن صادف كثيرا من الصعاب وفى رفقته وزيرنا المفوض فى اثينا ، وفى تلك الليلة ايضا ، تم انقاذ الجنرال فريبرج عن طريق الجو تنفيذا لاوامر القائد العام .

وارسلت التعليمات بالقيام بمحاولة اخيرة فى ٣٠ مايو لاجلاء من ظل هناك من القوات ، وكان عـدد الموجودين فى صـفاقية لايزيد فى احتمالنا عن ثلاثة آلاف جندى ولكن الانباء التالية اكدت ان هـذا العدد يبلغ الضعف ، وفى صباح يوم ٣١ أبحر الاميرال ليتنج ثانيـة ولم يكن هناك رجاء فى اجلاء الجميع ولكن تعليمات الاميرال كننجهام اقتضت بأن تحمل البواخر اقصى مايمكن ، وقيل للاميرالية فى الوقت نفسه بأن هذه آخر ليلة فى عمليات الانقاذ ، وتم الركوب فى أمان وفى الساعة الثالثة من صباح أول يونيو أبحرت البواخر وعلى ظهـرها حوالى اربعة آلاف جندى وصلوا الاسكندرية بسلام .

وبقى فى كريت اكثر من خمسة الاف جنـدى من الوحدات البريطانية والامبراطورية واذن الجنرال ويفل لهم بالاستسلام ، ولكن كثيرين منهم تناثروا فى انحاء الجزيرة الجبلية التى يبلغ طولها مائة وستين ميلا ، وقد أعانهم اهل القرى والريفيون بحاجاتهم من المؤن وضمدوا جراحهم ، هم والجنود اليونانيين ، ولكن وقعوا تحت طائلة عقاب وحشى عندما عرف الالمان حقيقتهم ، وامتدت هـذه العقوبات الوحشية للفلاحين الطيبين الابرياء ، فصدرت اوامر اعدامهم بالجملة فى مجموعات يبلغ عدد كل منها عشرين او ثلاثين انسانا .

وكان هذا هو السبب الذى دفعنى لاقدم اقتراحا بعـد ثلاث سنوات اى فى سنة ١٩٤٤ الى مجلس الحرب الاعلى يقضى بمحاكمـة مرتكبى هذه الجرائم الوحشية فى جزيرة كريت وان يحاكم المتهمون فى قلب الجزيرة ، فاخذ باقتراحى وسددت كثير من الديون الضخمة .

* * *

انسحب الى مصر فى سلام ستة عشر الفا وخمسمائة جندى ، اكثرهم من قوات بريطانيا وامبراطوريتها ، واستطاع حوالى الف جندى آخر ان يمهدوا لهم طريق الفرار بمعاونة الفدائيين الباسلة ، ووصلت خسائرنا الى ثلاثة عشر الفا بين قتيل وجريح واسير، فضلا عن الفين من رجال القطع البحرية ، وقد احصيت بعد الحرب بالقرب من ماليمى وخليج سـودا حوالى اربعة آلاف قبر المانى ، والف قبر اخرى بالقرب من ريتيمو وهيراقليون فاذا ما اضيف الى هذا الاعداد الضخمة المجهولة التى ابتلعتها الامواج ، بدت لنا خسائر الالمان فى صورة باهظة ، فلن يبلغ عددها اقل من خمسة عشر الفا بين قتيل وجريح ، كما دمرت حوالى مائة وسبعون طائرة من طائرات النقل ، وايا ما كان الامر ، فان النصر الذى احرزوه لا يمكن أن يقارن بالمجازر الذى نزلت بهم .

فمعركة كريت ليست سوى مثال للنتائج الفاصلة التي يتمخض عنها قتال عنيف بعيداً عن قدرات المناورة للفوز بمواقع استراتيجية ، ولم نكن ندرى شيئاً عن عدد فرق جنود المظلات الالمانية ولكن الفرقة السابعة المحمولة بالجو كانت الفرقة الوحيدة التي في حوزة جورنج ، وقد دمرت هذه الفرقة في كريت ، فقد قضى على أكثر من خمسة آلاف جندي من أكثر محاربيه شجاعة وقد تهدم الكيان الكلي لهذه الوحدة بصورة يعز ترميمها ، فلم تظهر ثانية بشكل حيوي فعال ، وتستطيع القوات النيوزيلندية والبريطانية والامبراطورية واليونانية أن تقول انها احتملت عبئاً لا ينكر في عملية جلبت لنا الكثير من راحة الاعصاب في ظروف مروعة .

فقد زال الخطر الرهيب لسلاح جنود المظلات الالماني فلم يعد الى الظهور بصورة حيوية في معارك الشرق الاوسط ، نتيجة للاضرار البالغة التي حاقت به في محاربيه الممتازين ، وقد نال جورنج في كريت انتصاراً أشبه بالهزيمة ، لان الجهود التي بذلها هناك كانت كافية لسيطرته على قبرص والعراق وسوريا وربما فارس أيضاً فمثل القوات ضرورية للاستيلاء على مناطق واسعة الابعاد ، حيث لا تواجه بمقاومة جادة او عنيفة ، ولعله اصيب بكثير من خطل الرأى الى الدرجة التي اطاح فيها بمثل تلك الفرص السانحة بينما ضحى بقوات لا تعوض في قتال يائس لعب فيه السلاح الابيض الدور الاكبر مع مقاتلى الامبراطورية البريطانية .

وقد حصلنا على « تقرير المعركة » الذى اعده الفيلق الجوى الالمانى الحادى عشر الذى كانت الفرقة السابعة المحمولة بالجو بعضاً منه ، وعندما نوجه نقدنا القاسى الى انفسنا والى خططنا ، فقد يكون من المفيد ان نضيف الى ذلك وجهة نظر الفريق المضاد « لقد كتب الالمان ما يلى : كانت قوات البر البريطانية في كريت ثلاثة أضعاف مادار في احتمالنا ، وقد أعدوا في غاية المهارة والدقة عمليات الدفاع في الجزيرة ، وجهزوا المنطقة بكل الطرق المستطاعة .. واتقنت عمليات التعمية بمهارة فائقة ، ونتيجة لافتقارنا الى المعلومات الصائبة عن مدى قوة العدو ونوع موقفه ، عرضنا هجوم الفيلق الجوى الحادى عشر للخطر ، وكبدناه اضراراً جسيمة ظهرت نتائجها ..

واهتز الموقف في البحر المتوسط نظرياً على الاقل بالاضرار الجسيمة التي حاقت بنا في جزيرة كريت وحين الانسحاب منها ، وكانت معركة ماتابان في ٢٨ مارس قد اضطرت الاسطول الايطالى أن يلتزم مواقعه حيناً . اما الآن فقد منى اسطولنا بخسائر جديدة باهظة ، وبانتهاء القتال في كريت لم يجد الامبرال كننجهام تحت

تصرفه سوى بارجتين وثلاث طرادات وسبع عشرة مدمرة ، وهناك تسع طرادات أخرى ومدمرات رهن الاصلاح فى مصر ، أما البارجتان وورسبايت و « برهام » ، وحاملة الطائرات الوحيدة « فورميدال »، وسواها من القطع البحرية ، فكان عليها أن تبحر من الاسكندرية حيث تستصلح فى مناطق أخرى ، وقد خسرنا ثلاث طرادات وست مدمرات وعلينا أن نرسل فورا بالامدادات التى تعيد التكافؤ للموقف البحرى، ولكن كوارث أخرى كانت معنا على ميعاد وهذا ماسيتضح بعد حين ، وهيأت ظروفنا الشائكة احسن الفرص للعدو ليتحدى سيطرتنا على البحر المتوسط والشرق الاوسط ، ويتمادى فى الشك بهذه السيطرة ، بكل مايعنيه هذا الشك وذلك التحدى من اخطار علينا ، ولم نكن نستطيع ان ننكر عدم فوزه اذا خاض غمار التجربة .

نهاية جهد الجنرال ويفل

بينما كان وطيس المعركة فى كريت والصحراء الغربية يشتد الى ابعد مداه والبحث عن البارجة « بسمارك » باقتناصها ومواراتها فى امواج الاطلنطى كانت مصاعب لم تسفك فيها كثير من الدماء ، ولم تبلغ فى اخطارها حدا كبيرا قد بدات تعترض طريقنا فى سوريا والعراق ، وكانت معاهدتنا مع العراق سنة ١٩٣٠ ، تسمح لبريطانيا فى أوقات السلم ــ فضلا عن اشياء أخرى ــ بانشاء قاعدتين جويتين اولاهما قرب البصرة والاخرى فى الحبانية ، وتعطى لقواتنا المسلحة ومعداتها حق المرور فى سائر الاوقات وتضمنت المعاهدة أيضا ان لجيوشنا فى حالة الحرب ان تجد كل تسهيلات مستطاعة من خطوط حديدية وانهار وموانىء ومطارات لتيسير التنقلات ، وعندما اعلنت الحرب ، قطع العراق علاقة الدبلوماسية مع المانيا ، وان كان لم يشهر عليها الحرب ، وصارت المفوضية الايطالية فى بغداد هى مقر الدعاية للمحور ، واثارة مشاعر العداء لبريطانيا وكان يسهم فى تلك المهمة مفتى القدس الذى فر من فلسطين قبيل ، اعلان الحرب وذهب الى بغداد كلاجىء سياسى وتعرضت سمعة بريطانيا بعد هزيمة فرنسا للتدهور ، وانتابنا القلق للاوضاع هناك ، ولكننا لم يدر بخلدنا ان نقوم باى اجراء عسكرى وكان علينا ان نستمر فى اتخاذ افضل مانستطيع من وسائل .

وفى مارس عام ١٩٤١ حدث التغير السيىء ، فقد اصبح رشيد عالى الذى كان منساقا للالمان رئيسا للوزراء ، وفر من العراق الامير عبد الاله الوصى المتضامن مع بريطانيا ، وتحتم علينا ان نستوثق من بقاء البصرة ، الميناء الرئيسى للعراق على الخليج العربى ، مؤمنا لحسابنا ، ولذا فقد ارسل الجنرال اوكنلك القائد العام فى الهند مجموعة لواء ، استقلت الشاطىء فى ١٨ ابريل دون مقاومة ، وبدأ رشيد عالى الكيلانى العمل مستندا الى مساعدة الطائرات الالمانية وجنود المظلات فى تحركاته

وكان اتجاهه فى بادىء الامر نحو الحبانية ، قاعدتنا الجوية للتدريب فى صحراء العراق ، وبها حوالى ٢٢٠٠ جندى وتسعة آلاف عامل مدنى ، واصبحت مدرسة الطيران هناك ذات اهمية خاصة ، فبدأ مارشال الجو الذى كان يتولى قيادة القاعدة فى اتخاذ اجراءات مؤقته صغيرة ، وكان كل مافى القاعدة من طائرات كان طائرات تدريب أو طائرات

اصابها العطب ، فطلب من مصر بعضا من طائرات « الجلاد يتيور » فتوافد الى القاعدة على الفور حوالى اثنتين وثمانين طائرة شكلت فى أربع مجموعات ، ووصلت دفعة أخرىبريطانية منالهند فى٢٩ ابريل وكان محيط كل هذا القطاع حوالى سبعة اميال ليس به من وسائل الدفاع سوى خط واحد ضعيف من الاسلاك ، وفى ٣٠ ابريل لاحت القوات العراقية القادمة من بغداد على ربوة لاتبعد عن المعسكر اكثر من ميل واحد ، وتطل عليه وعلى المطار فى نفس الوقت ثم انضمت اليها قوات اخرى للتعزيز حتى بلغ العدد حوالى تســـعة آلاف جندى وخمسين مدفعا ، ومر اليومان التاليان فى مباحثــات من الجــانبين بلا جدوى ، وفى فجر ٢ مايو بدأ الاشتباك .

وواجهنا فى سوريا خطرا مماثلا مع ضيق مواردنا وقلتها وكانت سوريا احدى ممتلكات فرنسا فيما وراء البحار ، ورأى الفرنسيون فيها أن الهدنة التى وقعتها حكومتهم فى فيشى تسرى عليهم شروطها ، وكانت السلطات فى فيشى من جانبها تحاول جاهدة ان تحول بين جنود فرنسا فى الشرق وبين الانضواء تحت لواء الحلفاء فى فلسطين ، وفى شهر اغسطس عام ١٩٤٠ وصلت لجنة الهدنة الايطالية الى البلاد ، وافرج عن المعتقلين الموالين للالمان الذين تحفظ عليهم منــذ نشــوب الحرب ، فاتيحت الفرصة ليبذلوا كل الجهود ، ولم تأت نهاية العام حتى وصل عدد آخر من الالمان واستطاعوا بالاموال الكثيرة التى بذلوها ان يوقظوا المشاعر المعادية لبريطانيا والصهيونية بين العرب فى نفس الوقت الذى استولى رشيد عالى فيه عنوة على الســلطة . فأثارت سوريا قلقنا ايضا . كانت الطائرات الالمانية قد بدأت فى شن غاراتها على السويس من قاعدتها فى جزر الدوديكانيز ، وكان فى مقدورها أن تعمل اذا رغبت ضد سوريا ، وخصوصا بقوات منقولة عن طريقالجو، ولو استطاع الالمان التمكن من سوريا لاضحت مصر وقناة السويس ومعامل تكرير الزيت فى عبادان واقعة تحت خطر التهديد المباشر من الهجوم الجوى المتواصل ، وســتكون طرق مواصلاتنــا البرية بين فلسطين والعراق معرضة للخطر ايضــا ، وربما تثير هــذه التغيرات قلاقل فى مصر ، كما ان هذا سيعتبر ضربة قاصمة علىسمعتنا فىتركيا وسائر دول الشرق الاوسط .

وما كان رشيد عالى يطلب العون العسكرى من هتلر حتى بدأ الاميرال فى اجراء مباحثات مع الالمان حول انفاق مبدئى عن ســوريا واتفقوا على توصيل ثلاثة ارباع المواد الالمانية الموجودة لدى بعثةالهدنة الايطالية فى سوريا والعراق ، وان تسهل للطائرات الالمانية ســبل النزول فى مطاراتها ، وصــــدرت التعليمات للجنرال وانزل المفوض

السامى الفرنسى والقائد العام بتنفيذ هذه الاوامر ، وما اقترب مايو من نهايته حتى استقبلت مطارات سوريا مائة طائرة المانية وعشرين ايطالية .

ومنذ ان بزغ هذا التهديد الجديد ، بدأ على الجنرال ويفل تردد واضح فى القدرة على استيعاب مهام جديدة ، وابدى أن كل مافى وسعه ليعده ضد سوريا لايعدو مجموعة لواء واحد ، وقال انه سيبذل كل مافى وسعه ، وسيطلق الشائعات عن وجود قوة كبيرة على اهمية الاستعداد فى فلسطين ، فربما تفكر حكومة العراق فى موقفها ، ولكن مايقدر على توجيهه بالفعل لا يحقق النتيجة المرجوة وربما يكون بعد فوات الاوان ، وأى ضعف ينتاب قواتنا فى فلسطين يوقفها على حافة الخطر ، خصوصا والحث على الثورة يجوب انحاءها ، وابرق قائلا : « لقد حذرتكم دائما ان من المستحيل ارسال اية مساعدة للعراق فى الظروف الحالية عن طريق فلسطين ، وكثيرا مانصحت بالابتعاد عن أى التزام هناك ، فقواتى منتشرة الى ابعد مدى فى كل مكان ، وليس فى استطاعتى ان اقامر بأى فريق منها فى عمليات يملؤنى اليقين بعدم جدواها »

أما الجنرال اوكنلك ، فقد عرض علينا مدى المساعدات التى فى مقدوره أن يمد بها العراق ، اذا حصلت على الحماية الكافية فى وسائل النقل الضرورية ، والتى أوضح أنها تصل الى خمسة الوية من المشاة عدا قوات أخرى مساعدة ، مما أثار اعجابنا بحماسته واندفاعه ، اما الجنرال ويفل فلم يكن ينصاع للتعليمات دون أن يرفق بذلك احتجاجه وتبرمه ، وفى ٥ مايو ارسل لنا برقية قال فيها :

« أرى من واجبى أن احذركم بلا تردد فى ان امتداد القتال فى العراق يعرض الدفاع عن فلسطين ومصر للخطر ، وقد يترتب عليه من النتائج السياسية مالم يدر فى الحسبان ، وقد يحدث نتيجة له ما بذلت عامين فى محاولة تجنبه ، وهو اندلاع فتن خطيرة داخل قواعدنا ، ولهذا فانى أستحثكم ثانية بكل قوة واصرار على أن الواجب يحتم عليكم التباحث مع العراق من أجل الوصول الى ترضيات مقبولة فى اقصر مدى مستطاع »

ولم اكن مقتنعا بذلك ، وعندما عرفت ان رؤساء أركان الحرب يوافقوننى عرضت القضية على لجنة الدفاع عندما انعقدت ظهر اليوم التالى ، وانتهى الاجتماع الى قرارات نهائية مؤكدة ، فأرسلنا الى الجنرال ويفل تبعا لذلك التعليمات الآتية : « لا نقبل انهاء الموقف عن طريق المباحثات الا بخضوع العراقيين وتعهدهم بالتخلى عن أية مشاريع قادمة للمحور فى العراق ، اما الوضع هناك فانه يؤكد الولاء التام للمحور من جانب رشيد عالى ، وانه كان ينتظر الوقت الذى يمد فيه

المحور له يد العون ، قبل ان يكشف عن حقيقة اتجاهاته ، وقد اضطره وصولنا للموصل الى الافصاح عن نواياه ، قبل أن يقدر الالمان على مساعدته ، وهناك فرصة لا شك فيها للسيطرة على الموقف ثانية بالعمل الفوري الحاسم .

« وقد تعهد رؤساء أركان الحرب بتحملهم لكل مسئولية تنتج من ارسال القوات المعينة فى برقيتك على الفور ، وتطلب لجنة الدفاع الابراق الى نائب ماريشال الجو سمارت بأن المساعدة المطلوبة فى طريقها اليه : وأن الواجب يحتم عليه فى خلال ذلك الدفاع عن الحبانية الى اقصى ما يمكن ، ومن المحتم أن نرسل الى العراق غاية ما فى الوسع من المدد الجوى لتعضيد العمليات هناك بشرط أن تستمر حماية الأمن فى مصر »

وفى خلال ذلك بدأت طائراتنا فى الحبانية وقاذفاتنا العاملة من طراز ويلنجتون من قاعدة الشعيبة تشن هجومها على القوات العراقية المتجمعة على ربوتها ، وقد اجابت هذه القوات بمدافعها المضادة ، وأسهمت الطائرات العراقية بقذائفها ونيران مدافعها الرشاشة ، وقد قتل وجرح حوالى أربعين جنديا من قواتنا فى اليوم الأول كما تحطمت حوالى اثنتين وعشرين من طائراتنا ، وعلى الرغم من الخطورة التى تهدد الطيران من منطقة تقترب منها نيران مدفعية العدو ، الا أن طيارينا خاضوا التجربة ببسالة ، ولم يهاجمنا المشاة العراقيون ، وصمتت مدافعهم بعد قليل ، فلم تستمر فى قصفها لغاراتنا الجوية ، أو لطائراتنا حينما تحلق فوق قواتهم ، فكانت حالتهم العصبية فرصة لنا انتهزناها فى اليوم الثانى ليقوم بهجوم جوى جزء من سلاحنا الجوى على قواعد السلاح الجوى العراقى ، وشنت الدوريات هجوماً فى ليلتى الثالث والرابع على الجبهة العراقية ، وفى اليوم الخامس وبعد أربعة أيام من هجمات سلاحنا الجوى الملكى ، كنا قد أنزلنا الكثير بالعراقيين فاضطروا فى تلك الليلة الى الجلاء عن مواقعهم وتبعتهم قواتنا فى حملة ناجحة كانت نتائجها ان اسرنا اربعمائة عراقى ، واستولينا على اثنى عشر مدفعا وستين مدفعا رشاشا وعشر سيارات مصفحة ، ووجدت طائراتنا قوات فى طريقها للتعضيد فأمطرتها وابلا من نيرانها ، وفى ٧ مايو فك الحصار ، وفى ١٨ من نفس الشهر وصلت طلائع المدد الحربى المرسل من فلسطين .

وعندئذ أصبح العراقيون غير منفردين ، ففى ١٣ مايو هبطت بالموصل طليعة الطائرات الالمانية وغدت المهمة الأولى لسلاحنا الجوى هى الهجوم عليها ، وقطع طرق تموينها من سوريا فى الخطوط

الحديدية وبعــد بضــعة أيام كنا قد دمرناها ووصلت مجموعة من الطائرات المقاتلة الايطالية فيما بعد ، ولكن تحركاتها قد شلت تماما ، ووصل الضابط الالمانى الذى يحمل عبء توزيع العمليات فى العراق بين قوات المحور وقوات العراق وهو ابن الماريشال بلومبــرج ، وصل الى بغداد ، مصابا فى رأسه ، بطلق نارى من حلفائه ، ولم يستطع من جاء بعده ــ وقد انتهى الى مطار بغداد سالما ــ القيــام بأى عمل ، فتبــدد كل أمل للمحور ، فى أن يكون عاملا له أثره فى العراق .

وفى ٣٠ مايو زحفت مقدماتنا حتى مشارف بغداد ، وعلى الرغم من وهن قواتنا ، ومن وجود فرقة عراقية كاملة ببغداد ، الا أن أعصاب رشيد عالى وزملائه ، لم تستطع الصــمود امام زحف جيوشــنا ، فالتمسوا الفرار الى ايران ، وبصحبتهم وزيرا المانيا وايطاليا فى بغداد ومفتى فلسطين ، وفى اليوم التالى عقــدت الهــدنة واعيد الوصى الى منصبه وشكلت حكومة عراقية جديدة ، وسيطرت قواتنا على جميع المناطق الهامة فى العراق .

وهكذا حاق الفشل بالخطة الألمــانية التى هدفت الى أحــداث انقلاب فى العراق والاستيلاء على هذه الجبهة العريضة بثمن زهيد فى اللحظة الأخيرة ، وكان لديهم فى ذلك الوقت بكل تأكيد قوات تنتقل عن طريق الجو ، وتمهد لهم وسائل الاستيلاء على ســوريا والعراق وايران بكل ما تملكه من آبار البترول الغنية ، وكان فى استطاعة يد هتلر الممتدة ان تصل بعيدا الى الهند ، وان تمر على اليابان ولــكنه على اية حال قد رغب ــ كما عرفنا ــ أن يوجه سلاحه الجوى بكل قواه فى طريق آخر ، ولا شك أنه لم ينتهز هذه الفرصة طمعا فى هدية اعلى بتكاليف اقل فى أنحاء الشرق الأوسط طولا وعرضا .

واضطررنا لكبح آمال الالمان فى ســوريا أن نوالى الضــغط على ويفل ، وقد رغب فى الا نحمله تبعات حملة فى سوريا ، الا اذا أصبحت الحاجة ماسة الى ذلك ، وقد اجابه رؤساء أركان الحرب بأن لا مندوحة له عن حشد أكبر عدد ممكن لغزو سوريا على الا تتأثر سلامة قواته المرابطة فى صحراء الغربية ، وفى ٢١ مايو فى الوقت الذى بدأ الالمــان فيه يشــنون هجومهم على كريت كان ويفل يبلغ تعليمــاته للجنرال ويتلاند ولسون بالاستعداد للزحف .

وبدات الاغارة فى ٨ يونيو بتعضــيد من احرار الفرنســيين ، وقوبلت بالمقاومة بادىء الأمر ، ولم يكن من الواضح مدى ما ستحارب اليه ليشى ، وعلى الرغم من عدم وجود عنصر المفاجأة فى زحفنا ، الا أنه

البعض قد ظن اننا سنلقى مقاومة رمزية ليس الا ، ولكن عندما أدرك الفرنسيون ضعف موقفنا قويت عزائمهم على القتال وربما لا نجد سببا آخر لعنف مقاومتهم سوى الاحتفاظ بسلامة شرفهم العسكرى ، وبدا لويفل بعد قتال دام أسبوعا ان عليه أن يرسل مؤازرة اخرى ، فاستطاع ان يعد فوجا آخر ومن بين قواته الوحدة التى استولت على بغداد فيما سبق ، واستولى الاستراليون على دمشق بعدثلاثة أيام دار فيها قتال مرير وكان ذلك فى ٢١ يونيو ، وقد عضدت زحفهم على المدينة عملية باسلة استوجبت الثمن غاليا هبطت فيها وحدة من الفدائيين الحادية عشرة خلف خطوط العدو من البحر ، واحس الجنرال رانتز بأنه بذل ما فى وسعه واستنفد طاقته ، وكان لا يزال حوالى اربعة وعشرين ألف جندى يقاتلون معه ، ولكن أمله فى الاستمرار كان قد انهار فلم يبق من قواته الجوية الا حوالى الخمس ، وفى الثامنة والنصف من صباح ١٢ يوليو وصلت رسل من فيشى ترغب فى الهدنة، وقد استجبنا اليهم بالطبع ، وابرمنا اتفاقا ، انضمت سوريا على أثره الى سيطرة الحلفاء ، وكانت خسائرنا حوالى٤٦٠٠ بين قتيل وجريح، بينما كانت خسائر الاعداء ٦٥٠٠ ، ولم يبق هناك غير اجراء واحد مثير ، فقد قامت السلطات الفرنسية بترحيل الأسرى الى فيشى ، ومعنى هذا انهم سينتقلون بكل تأكيد الى معسكرات المانيا ، وعندما عرفنا هذا الأجراء الغريب الذى عجز الفرنسيون عن تفسيره قمنا باعتقال الجنرال رانتز وكبار ضباطه كرهائن ، مما أدى الى احسن النتائج اذ عاد جنودنا فى سلام .

وتحسنت أوضاعنا الاستراتيجية فى الشرق الأوسط نتيجة للعمليات الموفقة فى سوريا والعراق فسد الطريق امام اية رغبة للعدو فى التوغل شرق البحر المتوسط ، وامتد شمالا خط دفاعنا عن قناة السويس مسافة مائتين وخمسين ميلا . وزال القلق عن حدود تركيا الجنوبية ، وأصبح فى يقينها الآن ان باستطاعة دولة صديقة ان تمد يد العون العاجل فى اى وقت يلوح لها الخطر ، وقد دمرت معركة كريت مع ما دفعنا فيها من ثمن باهظ القوة الضاربة للعدو ، وسحقنا اخيرا الثورة العراقية ، وبقوات صغيرة تستدعى الشفقة أعدنا سيطرتنا على منطقةشاسعة وحدد استيلاؤنا علىسوريا وهجومنا عليها الذىارغمتنا عليه الضرورة الملحة رغبات العدو فى الانطلاق بإتجاه خليج البصرة والهند بصورة حاسمة ولو استجبنا لدواعى التريث والعقل ولم تحول وزارة الحرب كل مشروع الى عملية ظافرة ، ولو لم نفرض وجهةنظرنا على كافة القادة العسكريين فى المنطقة ، لكنا فى موقف الراضين عن الاضرار الجسيمة التى تكبدناها فى كريت ، ولم نحقق الارباح العظيمة

التى جنيناها من حربنا المجيدة هناك ولو تخاذل الجنرال ويفل تحت وطأة السهام الجسيمة التى القتها الحوادث على عاتقه ، وصمدت امامنا وجهة نظره ، فان ما أسفرت عنه الحرب وان مستقبل تركيا كان سيحدث فيها تغيرات رئيسية ، فاذا كانت هنـــاك حسنات لتخلى الانسان عن كل ما ليس فى وسعه ، وعن اقلاعه عن كل عمل لا يقتنع به شخصيا ، فلكل قاعدة ــ فى الحرب وفى الحياة ــ شواذها .

ويجب الا ننسى ان ثورة العــراق ، والانطلاق الى ســوريا لم يكونا غير أحداث صغيرة من الاخطار المفاجئة فى الشرق الأوسط التى عاش فى غضــونها الجنرال ويفل ، واحاطت بكل كيــانه ، وعلى نفس النمط والمثال كان ميدان الشرق الأوسط باكمله ليس سوى امر ثانوى بجانب مشاكلنا العالمية التى كنا نبصرها فى لندن ، حيث يقفز فيها الى مقدمة اهتمامنا خطر الغزو ، وحرب الغواصات ، والتهديد اليابانى ، وقد انتصرنا على سائر هذه الاختبــارات القاسـية بدون ان ننسى ما منينا به من خسـائر فادحة بفضل قوة وزارة الحرب والتفاهم بين اعضائها ، وصلات الاحترام المتبادل ، واستعراض وجهات النظر بين القادة العسكريين والسياسيين ، وبفضل جهازنا الحربى الذى كان يعمل فى هدوء ورتابة ، وليس أمامى الآن ما اعرضه فى مجال البحث سوى القتال فى الصحراء العربية ، وكان موضـوعها يستأثر بعظيم اهتمام منى ومن رؤساء الأركان ومع اننا لم ننل فيها اى انتصـار الا اننا فرضنا على روميل التوقف لمدة خمسة شهور اخرى .

* * *

وكانت مخابراتنا فى ذلك الوقت قد نفذت الى مقر قيـادة روميل وتولى عميلنا ارسال أدق الاخبار عما يواجهه روميل من مصاعب شتى فى موقفه المتجمــد الغريب وكنا ندرك تمــاما الثغرة الوحيدة التى كان يأمل القائد الألمانى فى الابقاء عليها ، كما كنا نقف على الأوامر الصارمة والتحذيرات الشديدة التى كانت تصله من القيـادة الألمـانية العليا ، منذرة اياه بالا تهرب المكاسب التى حازها حتى هذه الآونة فى خضم اعتماده اكثر مما ينبغى على يمن الطالع .

وكنا نمد ويفل بكافة المعلومات ، وقد رغب بدافع شخصى بحت ، وفى غمــار القتــال الدائر فى كريت ان يجرب مخالبه فى روميل قبل ان تلحق به الفــرقة الألمــانية المدرعة التى تنشر الرعب ، وهى الفــرقة الخامسة عشرة ، عابرة طريق طرابلس الطويل وقبل ان يتاح له فتـح ابواب بنغازى ، لتكون الطريق القصير لوسائل تموينه ، وأراد ان يشن هجوما حتى قبل ان تباشر الدبابات التى ارسلناها فى عملية « النمر »

أداء مهمتها ، وارادت قوة صغيرة يتولى قيـــادتها الجنرال غوت ان يتولى هى شن هذا الهجوم ولكنه اندحر تماما وفاتت الفرصة التى كانت متاحة لهزيمة رومل قبل أن تلحق به التعزيزات اللازمة

وعلى الرغم من اسراعنا فى اتخاذ الاعدادات ، الا أن التاخير فى تفريغ واستصلاح وتجهيز دبابات عملية النمر للقتـال ، كان فى غاية القسوة واتضح بعد القيـام بتفريغ الشحنة أن بعض الدبابات التى كانت بطيئة من الناحية الميكانيكية لا تصلح ، وعاجلا ما سهلت الامور ، فقد جمع رومل القسـم الاكبـر من فرقته المدرعة الخامسة عشرة ، وحشد قواته على الحدود بين كابوتزو وسيدى عمر ، ودار فى احتماله قيامنا بهجوم عنيف للسيطرة على طبرق ، ولذلك فقد قرر الاستيلاء ثانية على حلفايا والابقاء عليها ليصبح هذا الهجوم صعبا للغاية وكانت الدفعة الثـالثة من حرس جولد سـستريم وكتيبة مدفعية الميـدان ، ووحدتان من الدبابات تقوم بحماية هذا الممر المعروف فى ٢٦ مايو بدأ العدو تقدمه ، واستولى على مركز فى الشمال، يشرف على سائر النقط التى يرابط فيها الفوج ، وفى صباح اليوم التـالى ، وبعـد أن دوت طلقات المدافع ، قام فوجان المانيان تؤازرهما على الاقل ستون دبابة بهجوم مجتاح ، جعل قواتنـا على حافة الخطر ، وكانت الوحدات الاضافية بعيـدة بحيث لا تملك المشاركة فى القتـال ، ولم نجد امامنا سبيلا سوى القيام بانقاذ قواتنا فى هدوء ودون جلبة ، وقد قمنا بذلك فعلا ولكن الثمن كان باهظا ، فلم تبق من دباباتنا الا اثنتان صالحتان للعمل ، ووصل رومل الى ما يريد وبدأ يدعم موقفه فى حلفايا . وقد كانت سيطرته على هذا الموقع ــ كما كان يتطلع ــ سبيلا بتعويق قدرتنا على العمل بعد ثلاثة اسابيع .

* * *

وظللنا نعد فى هجوم حيوى حاسم سـميناه « فاس المعركة » ولـكن كان امامنا جانب مظلم ففى يوم ٣١ مايو ارسـل الينـا ويفل يخبرنا بالمصـاعب الفنية الجمة التى تعتـرض طريقه فى اعادة تجهيز الفرقة السـابعة المدرعة ، وذكر ان اول موعـد يسعه ان يبـدأ فيه الهجوم هو ١٥ يونيو ، واكد انه يدرك تبعات التاجيل ، وقد تصـل الى العدو امداد جوية أخرى ، وقد يشن هجوما عارما على طبرق ، الا أن المعركة القادمة فيما يرى ستكون قتالا بين الدبابات ولهذا فعليه ان يمنـح فرقته المدرعة كل ما يسـتطيع ، واكد لنا ان فرصة التاجيل والتهريث تزيد من احتمالات النصر .

وفى هذه الاثناء كنت نافد الصبر يتجاذبنى الرجاء والخوف من

جراء هجومنا فى الصحراء متعجلا لوقوعه ، متقينا انه قد يحول الى لغتنا سير المعركة الافريقية كلها ، واستطاع الالمان استغلال ميناء بنغازى فى سرعة ، مع اننا لم نوفق الى ذلك فى بداية العام ، وعن طريق هذا الميناء وصلت اليهم كثير من المؤن والذخائر ، وقد عرفنا ـ فيما بعد ـ أن الالمان استطاعوا رصد جزء كبير من سلاحهم المدرع فى خطوطهم الامامية وحشدوا حوالى مائتى دبابة فى مقابل دباباتنا البالغة نحوا من مائة وثمانين .

وفى صباح ١٥ يونيو بدأت عملية « فاس المعركة » وفى بداية الأمر سارت الأمور كما نحب غير انه فى ١٧ يونيو اى فى اليوم الثالث من المعركة اخذ كل شىء ينقلب على عقبه ، وادركنا اننا منينا بالفشل فى غارتنا ، فبدأت عمليات التقهقر المنظم ، تحت حماية من سلاح الطيران ، ولم يبد العدو اى محاولة لتعقبنا ، وربما يكون ذلك بسبب الأضرار التى انزلتها بسلاحه المدرع قاذفات قنابلنا ، وربما تكون هنالك اسباب اخرى فقد علمنا فيما بعد أن أوامر رومل كانت تحرص على الدفاع وتوفير القوى لهجوم فى الخريف ، ومعنى ذلك أن القيام بمطاردتنا يتنافى مع خططه ، فضلا عما يتكبده من أضرار فادحة .

ومع أن هذا القتال كان محدودا اذا قورن بالمعركة الواسعة المدى فى البحر الابيض المتوسط فى شتى اشتباكها ، فان ما أصبنا به من فشل كان ضربة مؤلمة ، لان نجاحنا فى الصحراء يعنى تدمير جيش رومل المغامر ، والاستيلاء على طبرق وانقاذ حاميتها ، وسرعان ما انسحب العدو الى مابعد بنغازى بنفس الطريقة التى زحف بها ، وقد كلفنا هذا الهدف كثيرا فنحن لم ننس الاخطار التى صاحبت عملية « النمر » ، ومقامرتنا باشياء كثيرة ، ولم أكن بعد قد عرفت شيئا عما وقع فى يوم ١٧ ، ولكن الاخبار كانت ستصلنى حتما بعد قليل ، لذلك فقد ذهبت الى شارتويل ، الموصدة ومنذ مدة ، انشد هناك نوعا من العزلة ، واحيا وحيدا ، فجاءتنى هنالك الانباء ، فمضيت اتجول فى الوادى حزينا وحيدا ... عدة ساعات .

***

ولاشك فى أن القارىء الذى تابعنى ، قد تهيأت نفسه لتقبل القرار الذى انتهيت اليه فى الثلث الاخير من شهر يونيو سنة ١٩٤١ ، فقد قر شعورنا فى لندن بان ويفل اصبح شخصية شائكة ، ومن الصائب ان يقال اننا ركبنا الجواد حتى استنفد قواه ، ولاشك أن اجتماع خمسة او ستة ميادين للقتال فى تقارب مثير بما تزخر به من

نصر او هزيمة ، تتغلب فيه الاخيرة دائما ، ثم وقوع ذلك كله على كاهل القائد العام فرد ، يؤلفان عبئا لم يسبق ان صادفه الا عدد قليل من القادة ، ولم اقنع بما قدمه ويفل تبريرا لفشله والذى عزاه الى قتالنا فى كريت ، والى عدم امداده بعدد اخر من الدبابات ، وكان رؤساء اركان الحرب قد تخطوا آراءه فعلا فى عملية العراق البسيطة الناجحة ، والتى ادت الى السيطرة النهائية على الحبانية ، والى ان نحصل على نجاح محلى هام ، ثم جاءت خطة « فاس المعركة » التى نفذها ويفل نظرا للاخطار الشديدة التى احاطت بعملية « النمر » ولم اكن راضيا عما استقبلت به قيادة الاوسط دبابات « النمر » من اجراءات مع ما اعترضها من مصاعب تغلبت عليها لحسن الحظ ولكننى كنت معجبا من ناحية اخرى بروح المغامرة التى ابداها فى هذه المعركة الصغيرة وعدم التفاته لما يهدد شخصه من اخطار حين طيرانه ذهابا وايابا ، فوق هذ المساحات الشاسعة ، التى تشب فى انحائها والمضطربة مثل هذه المعارك الراهنة ولكننى كنت واثقا من عدم التوفيق ، فى وضع خطته العلمية ، خصوصا حين فشلت فى تحقيق اندفاع من ناحية طبرق ، فى الوقت الذى حدث فيه الهجوم ليكون تمهيدا لذلك ليس اكثر ، وحركة مصاحبة فى ذات الوقت .

وفضلا عن ذلك كانت هناك الضربة التى سددها رومل لجناحها فى الصحراء فقضت على كل الخطط التى كنا على اهبة تنفيذها باليونان ، ودمرت كيانها بما تنطوى عليه من جوانب قائمة وانتصارات باهرة ، كانت تلوح لنا على اطراف المسرح البلقانى الكبير ، وتذكرت قولى السابق ؟ « ان رومل قد نزع اكاليل الغار عن راس ويفل ومرغ بها فى الرمال » وقد لايكون ذلك مستساغا ، ولكنه على اية حال نتيجة لحزن ملم ، ولكن الحكم الصائب على كل ماحدث من الممكن ان يستمد دعائمه مما تشير اليه الوثائق المدونة فى اوانه ، ومما يكشف عنه المستقبل من ادلة اخرى ، والذى حدث اننى انتهيت الى راى حاسم بعد معركة « فاس المعركة » وهو ضرورة تغيير جوهرى فى القيادة .

وكان الجنرال اوكنلك القائد العام فى الهند ، مازال يثير اعجابى بما فعله فى نارفيك فى خلال الحملة النرويجية ، فقد لمست فيه الميل الشديد للسلامة والتحسس بالنتائج ، وهما امران مفقودان فى الحرب ، مع القناعة بكل مايتوقع منه تحقيق الحد الادنى من الرغبات ، لكننى على اية حال كان يثير اعجابى مواهبه الشخصية ، وذهنه المتالق واخلاقه الرفيعة ، وعندما كان قائدا للمنطقة الجنوبية بعد نارفيك فى انجلترا ، وصلتنى كثير من الرسائل من جهات رسمية وغير رسمية

تصف مابثه من حيوية ونشاط فى قيادته الجديدة ، وقد استحسن الجميع توليه للقيادة العامة فى الهند وقد وقفنا قبل هنيهة على مقدار حماسته لتسيير القوات الهندية للبصرة ، وضرورة القضاء على ثورة العراق وكنت اعتقد ان اوكنلك دم جديد سيثير الحيوية ويتحمل التبعات بشجاعة اذا تولى قيادة الشرق الاوسط كما ان ويفل سيصادف فى توليه قيادة الهند العظيمة فرصة لاستعادة انفاسه ، قبل أن تهجم الاخطار المتوقعة فى كل حين ، ووجدت موافقة تامة لآرائى هذه فى الوزارة ، وبين رؤساء الاركان فى لندن ولعل القارىء لا ينسى انني لا احرص قط على ان اتولى اى سلطات استبدادية وان آرائى كانت تتمشى دائما مع وجهات نظر الخبراء والسياسيين ، واصدرت أوامرى الجديدة فى ٢١ يونيو ، فتلقاها ويفل فى هدوء ،وكان يهم برحلة الى الحبشة سرعان ماوضحت أمامه مخاطرها ، وقد كتب من أرخ حياته قائلا أن الجنرال عندما وصلته برقيتي قال : « انرئيس الوزراء على حق فالموقف هنا يحتاج الى يد جديدة وعين اخرى »

* * *

وكان القلق ينتابنى منذ اشهر لما وجدت عليه قيادة القاهرة من نقصان الكفاءة الواضح ، وادركت جيدا مدى الاعباء الثقيلة التى تتراكم على كاهل القائد العام المنهك ، وكان ويفل نفسه وغيره من القادة العاملين قد عبروا عن احتياجهم فى ١٨ مايو الى بعض المعاونين ، وقد اكد ذلك ايضا رفيقاه القائد العام الجوى والقائد البحرى ، وكانت زيارة المستر ايدن تثير الارتياح فى نفوس جميع القادة لاحساسهم بوجود شخصية ذات سلطة سياسية عليا معهم ، وعند عودته الى الوطن شعروا بفراغ كبير .

وكنت لم اسمع عن ولدى راندولف كثيرا فى الايام الاخيرة وقد كان واحدا من الفدائيين الذين تفرق شملهم الآن الى حد ما فى الصحراء ، وفى ٧ يونيو وصلتنى برقية منه عن طريق وزارةالخارجية ارسلها من القاهرة بعد اطلاع سفيرنا عليها السير مايلز لامبسون ، ويقول فيها :

« أرى — لننتصر فى القتال — ضرورة وجود شخصية مدنيةذات كفاءة فىالميدان، توضح المعالم السياسية والاستراتيجية يوما بعديوم، فلم لاتبعث باحد أعضاء وزارة الحرب هنا يراس كل الجهود الحربية ، وكل احتياجه لا يتعدى — فضلا عن مجموعة صغيرة من الموظفين — الى رجلين قديرين ينسق احدهما شئون التموين ، ويقوم الآخر

بالرقابة والدعاية . ونرى هنا كثير من المفكرين ان الحاجة ملحةلتغيير جوهرى ، وليس الى تبديل الافراد فحسب ، فالفرصة سانحة تماما لاجراء تعديل فى الكيان كله ، ارجو أن تغفر اقلاقى لك ، فقد اضطررت اليه ليقينى بأن الوضع هنا اصبح لا يحتمل وان العمل العاجل ضرورى لاى نصر متوقع »

ولاريب فى أن هذه الرسالة دعمت نواياى نحو العمل النهائى الحاسم ، وقد أرسلت اليه بعد اسبوعين : « لقد توافقت آراؤك القيمة والمرتبة فى رسالتك الى مع ماكان يخالج نفسى من أفكار منذ مدة غير قليلة » ، وعلى هدى من ذلك اتخذت طريقى .

وكان الكبتن أوليفر ليتلتون قد اشترك فى الوزارة وزيرا للتجارة منذ اكتوبر سنة ١٩٤٠ وكنت أعرفه منذ صباه ، ففى غضون الحرب العالمية الأولى اشترك فى وحدة قاذفى القنابل ، واصيب مرات عديدة ببعض الجراح ، واستحق عددا من الاوسمة ، وبعد ان ترك الخدمة العسكرية خاض عمار الاعمال الحرة ، واصبحت عضو مجلس الادارة المنتدب لشركة معدنية كبرى ، ولما كنت واثقا من مواهبه الخاصة فقد عملت على اشراكه فى البرلمان واسهامه فى الوزارة ، وقداستأهل تقديرا من جميع زملائه فى حكومتنا القومية ، وكنت قد تحديت وجهة نظره فى توزيع الملابس بالبطاقات ، ولكن لما وافق مجلس الوزراءومجلس العموم على ذلك رضيت به ، ولاشك فى ان ذلك جاء فى اوانه ، لقد كان رجلا كفؤا للعمل بمهارة فى كافةالميادين ، مما جعلنى اثق فى صلاحيته للمنصب المقترح الجديد ، كعضو فىوزارة الحرب مقره الشرقالاوسط ولاشك فى أن هذا العمل سيخفف كثيرا من العبء الواقع على القادة العسكريين ، وايد كل زملائى من جميع الاحزاب هذا الرأى ، وعلى ذلك عين على أن تكون مهمته الأولى «المساهمة فى حمل التبعاتالمنوطة بالقادة العسكريين واصدار التعليمات العاجلة على هدى من تفهم سياسة حكومة جلالته فى شتى الشئون المتعلقة بمختلف الوزارات والدوائر التى كانت تصل قبل ذلك الى لندن للفصل فيها »

ولاشك فى أن هذه التنظيمات الجديدة ، بما تتضمنه من نتائج ادارية ، جاءت ملائمة كل الملاءمة للتغيرات التى حدثت فى قيادةالشرق الاوسط .

نيميسيس

الهة الثأر السوفييتية

تقول الاساطير أن نيميسيس الهة غاضبة ، لتنزل النقمة بكل خط يتجاوز الحدود ، وتحد من غلواء كل مغرور ، وتثار من كل من يقترف جريمة نادرة الوقوع »

وعلينا هنا أن نوضح تماما ماتردت فيه الحكومة السوفييتية من اخطاء فاضحة ، وغرور مافون قدرت على أثره الموقف هى وجهازها الشيوعى الضخم ، وأن نكشف ماكان يسودها من جهل أبعدها عن ادراك حقيقة موقفها .

وكانت هذه الحكومة قد ابدت عدم اهتمامها بمصير الدول الغربية على الرغم من ان هذا لا يعنى سوى تحطيم الجبهة الثانية التى قامت بعد ذلك بقليل للمطالبة الملحة بها ، وظهر أن هذه الحكومة لم يدر فى خاطرها أن هتلر قد عقد العزم منذ شهور ستة على تدميرها، واذا كانت مخابراتها قد اوصلت اليها أنباء انتشار القوات الالمانية على مدى واسع فى اتجاه الشرق ، وقد اخذ يتضاعف يوما بعد يوم ، فانها تكون قد تغافلت عن اتخاذ اجراءات حاسمة لمواجهته ، فهاهى المانيا تحت رضائها تجتاح البلقان باكمله ، وحكومة السوفييت تنكر الديمقراطيات الغربية وتستهين بها ، ولكن كان فى استطاعتها أن تؤازر بريطانيا فى تكتيل دول البلقان الاربع ، تركيا ، ورومانيا ، وبلغاريا ويوغوسلافيا فى حلف واحد لمقاومة هتلر بالنسبة لأن هذه الدول تعتبر ذات أهمية خاصة لامنها وسلامة حدودها ، ومع ذلك فقد رضيت بان تنهار وأن تجتاحها الفوضى والاضطراب ، وأن تختفى واحدة بعد واحدة عدا تركيا — من الوجود ، وقد تكون الحرب فى مجملها مجموعة من الاخطاء ولكنى أشك فيما اذا كانت هناك جريمة أخرى تعادل فى شناعتها ماارتكبه ستالين وقادته البلشفيك من جرم عندما تغاضوا عن كافة امكانيات دول البلقان ولبثوا فى حالة خمول وتراخ أو جهل وحاجة المزيد من الادراك ، ينتظرون الخطر الجامح الذى كان مسلطا على رقبة روسيا ، وكنا آنذاك نعدهم فئة من الانانيين فى تقديراتهم ، ولكنهم اكدوا لنا فى تلك الفترة انهم سذج مغفلون كذلك وكان علينا أن نرى فى

ميدان المعركة كل ما اشتهر عن « روسيا الام » من شجاعة وقدرة على الحشد والاحتمال ، ولكن بالنظر الى الاستراتيجية والسياسة وتفهم الامور فقد بدأ ستالين ورفاقه فى هذه الفترة كأغبى الناس فى تاريخ الحرب العالمية الثانية .

وكانت عملية « بربروسا » الذى اصدر بها هتلر تعليماته فى١٨ اكتوبر سنة ١٩٤٠ ، تتضمن الخطة لحشد القوى بصورة عامة كما وضحت التبعات الاولى لجيوش التى حشدها ضد روسيا ، وكان كل عدد الوحدات الالمانية الموجودة فى المانيا عند اصدار هذه التعليمات يزيد عن اربع وثلاثين فرقة ، وزيادة هذا العدد الى اكثر من أضعافه الثلاثة عمل هائل يدل على التخطيط والاعداد ، استنفد الاشهر الاولى من سنة ١٩٤١ ، واحتاجت المغامرة البلقانية ، التى رضى هتلر ان يخوض غمارها أن يوجه فى شهر يناير وفبراير حوالى خمس فرق ، من الشرق الى الجنوب ثلاث فرق منها مدرعات ، ولم يأت شهر مايو حتى كانت القوات الالمانية فى الشرق قد وصل تعداد فرقها الى سبع وثمانين ، بينما كان هناك خمس وعشرون فرقة تواجه الموقف فى البلقان ، واذا مانظرنا جيدا الى ماينطوى عليه غزو روسيا من أخطار ، وما يلزمه من قوات ، فقد كان من خطل الراى تحويل الحشود لهذا العمل الخطير ، وسنعرف بعد قليل كيف أرغمت أحداث البلقان ، ومقاومتنا الصامدة هناك ، ولاسيما ثورة يوغوسلافيا ، أرغم كل ذلك هتلر على ان يؤجل مغامرته الكبيرة خمسة اسابيع اخرى ، ولم يكن احد يعرف مدى اهمية هذا التأخير وآثاره ، الا حين حل الشتاء ، وما صحبه من تغيير فى اقدار الزحف الالمانى على روسيا ، ومن الطبيعى أن يرى الانسان أن الفضل لهذا التأجيل فى نجاة موسكو ، وقد تم خلال شهر مايو وبداية يونيو سحب اغلب الفرق الالمانية المدربة تدريبا جيدا من البلقان الى الجبهة الشرقية ، وكان الالمان فى ابان هجومهم يملكون مائة وعشرين فرقة من بينها سبع عشرة فرقة مدرعة واثنتا عشرة فرقة آلية ، وتبعت ست فرق رومانية أخرى مجموعة القوات الجنوبية ، وكان هناك ست وعشرون فرقة أخرى تجمعت أو هى على وشك التجمع كقوات احتياطية ولم يكد يطلع يوليو حتى كان لدى القيادة الالمانية فرصة استخدام مائة وخمسين فرقة على أقل تقدير ، تسندها قوة السلاح الجوى الالمانية الضاربة ، وتقدر بحوالى الفين وسبعمائة طائرة .

وكان يخالجنى الشك حتى شهر مارس فى تصميم هتلر على قتال روسيا ، ولم يدر بخاطرى أن ذلك سيحدث قريبا جدا ، وكانت مخابراتنا قد امدتنا بمعلومات مفصلة عن تحركات الجيوش الالمانية الكبيرة فى اتجاه دول البلقان ، وهو ماشهدته الشهور الثلاثة الاولى من

عام ١٩٤١ ، وكان في مقدور جواسيسنا الانتقال بحرية في تلك البلاد نصف المحايدة ، وان يواصلوا اطلاعهم الدقيق على تحركات الجيوش الالمانية الهائلة في السكك الحديدية او في الطرق المعبدة الى الجنوب الشرقي ، لكن هذه التحركات كافة لم تكن تقطع الشك بأن بأي محاولة من غزو روسيا ، وكان من السهل تفسيرها برغبة المانية في المحافظة التامة على مصالحها برومانيا ، وبلغاريا ، وما تضمره نحو اليونان ، واوضاعها مع يوغوسلافيا والمجر ، اما التقريرات عن التحركات الواسعة التي تقع عبر المانيا تجاه الجبهة الروسية اساسية وهي التي تمتد من رومانيا حتى البلطيق ، فكانت اقل واصعب تفهما مما سبق ، وكان في تفكيري ان فتح المانيا لجبهة رئيسية اخرى مع روسيا في هذه الاونة ، وقبل ان تستقر الاوضاع في البلقان امر يثير الدهشة حقا لانه بعيد في غرابته .

ولم يحدث مايشير الى انتقاص القوى التي تواجهنا بها المانيا عبر المانش ، فمايزال الهجوم الجوى الالماني على بلادنا في عنفوانه،وكان مجرد غفلة روسيا السوفييتية ثم قبولها اخيرا لهذا التدفق الالماني على رومانيا وبلغاريا ، والبراهين التي بين ايدينا على مدى العون الضخم الذي تمد به روسيا المانيا ، والاشتراك الواضح في مصلحة الدولتين حين تسحق الامبراطورية البريطانية ويجتاح الشرق ، كل هذا يوحي لنا بأن هتلر وستالين يفكران في صفقة مشتركة على حسابنا ولن يقف احدهما موقف العداء من الاخر ، وهانحن الان قد ادركنا أن هذه الصفقة كانت من بين آمال ستالين الواسعة التي طالما طافت بأحلامه .

وكان يتفق معي في هذه المشاعر والتقديرات افراد لجنة المخابرات ، وقد حملوا الى في ٧ ابريل ان اخبارا تجوب الان انحاء اوربا عن خطة المانيا في اجتياح روسيا ، ولكنهم راوا ان هذا الاحتمال مستبعد في الظروف الراهنة على الاقل ، لانه بالرغم من تدفق جيوش المانية ضخمة على الشرق ، واحتمال قتال المانيا لروسيا في وقت آخر، فان الوقت الحاضر غير ملائم لتخوض المانيا مع روسيا غمار معركة رئيسية ، وقد راوا ان الاحتمال المعقول ان يظل هدف المانيا الجوهري في عام ١٩٤١ هو انزال هزيمة ببريطانيا ، وفي ٢٣ مايو راى اعضاء هذه اللجنة المشتركة ممن يمثلون القوات المسلحة الثلاثة ، ان شائعات الهجوم الالماني على روسيا قد ضعفت قليلا ، وان الشائع الان هو اعتزام البلدين توقيع معاهدة جديدة بينهما في اقرب فرصة .

وكان رؤساء اركان حربنا اكثر معرفة من معاونيهم ، واشد تنبئا

فقد ارسلوا تحذيرا الى قيادة الشرق الاوسط العامة فى ٣١ مايو ، جاء فيه : « لدينا البراهين الدالة على ان الالمان يجمعون قـــوات هائلة وسلاحا جويا كبيرا ضد روسيا ، ومن المحتمل أن يطلبوا منها مهددين لها طلبات تضر بصالحنا ، فاذا أبى الروس شنوا عليهم الهجوم »

وفى ٥ يونيو رات لجنة المخابرات المشتركة ان الاعدادات العسكرية الالمانية فى شرق أوربا واسعة النطاق ، وان شيئا حاسما سيحدث اكبر اهمية من اى اتفاق اقتصادى وربما تهدف المانيا الى أن تزيل من حدودها الشرقية اي خطر محتمل ان يكون مصدره القوات السوفييتية الهائلة العدد ، ولكن اللجنة حائرة تماما فى تعيين الهدف الحقيقى وهل هو الحرب أم المعاهدة ؟ »

ولم اقتنع بهـــذا الاسلوب من التقــــارير العامة ، وملت الى أن اطلع بنفسى على مصادر هذه التكهنات ، فرغبت الى الرائد (الميجور) ويزموند مورتون ، بأن يجهز لى قصاصات مختارة من التقــارير منذ بداية الصيف لسنة ١٩٤٠ ، وأن يستمر فى هذا العمل يوميا ، ممـــا استطعت به استنباط وجهة نظر خاصة عن القضية قبل وقوع أحداثها بزمن كاف .

وعندما اطلعت على تقرير المخابرات ، أرسله أحد عيوننا الموثوقة جدا ، فى يوم من الايام الاخيرة من شهر مارس سنة ١٩٤١ ، شعرت بكثير من الارتياح لدى قرائه ، وكان عن تحركات المدرعات الالمانية ، والتحركات المضادة لها على الخطوط الحديدية والواصلة بين بوخارست وكراكاو ، وقد أوضح هذا التقرير أنه عقب توقيع الوزراء اليوغوسلافيين على الميثاق الثلاثى ، فان ثلاث فرق مدرعة (بانزر) من بين خمس فرق كانت قد عبرت رومانيا جنوبا فى اتجاه الحدود اليونانية واليوغوسلافية قد اتجهت الى الشمال نحو كراكاو ثم عادت على التو ادراجها بعد ثورة بلجراد ، ورجعت الفرق الثلاث الى رومانيا وليس من سبيل الى أن تسير هذه الاعداد الضخمة من القطارات التى تصل الى ستين قطـارا لم تنقلب على عقبها فورا ، دون أن يقع على ذلك عملاؤنا اليقظـون فى المنطقة .

واضاءت لى هذه المعلومات الطريق لتفهم الموقف ، فتوجه هذا العدد الضخم من المدرعات الى كراكاو وتحوله عن المسرح البلقـــانى فى أشد الاوقات احتياجا له ، يعنى بصورة واضحة أن هتلر قد بيت عزمه على الهجوم على روسيا فى شهر مايو ، وهذا ماوثقت فيه غاية الثقة . أما عودة هذه المدرعات فلا تعنى سوى أن تأجيلا حدث لموعد

الهجوم على روسيا من مايو الى يونيو ، واتجه تفكيرى الى تلمس سبيل لاستشارة ستالين وانذاره بهذا الخطر المحدق ، محاولا ان يكون بينى وبينه من الصلات مابينى وبين الرئيس روزفلت ، وأرسلت اليه رسالة مختصرة يحوطها الغموض ، آملا ان يثير هذا الغموض وكونها اول رسالة ارسلها اليه بعد الرسالة الرسمية التى ابرقت اليه بها فى ٢٥ يونيو سنة ١٩٤٠ ، أوصى فيها بقبول تعيين السير ستافوردكريبس سفيرا لنا فى روسيا ، أن يثير هذا وذاك انتباهه للموقف وهذا هو نص رسالتى :

ـ « من رئيس الوزراء الى السير ستافورد كريبس ، ٣ ابريل ١٩٤١ »

ـ « مع هذا رسالة خاصة الى المستر ستالين ، بشرط ابلاغها اليه شخصيا .

ـ « لدى براهين وثيقة من مصدر لايتطرق اليه الشك بأن الالمان عندما يتيقنون من وقوع يوغوسلافيا فى قبضتهم ـ أى بعد ٢٠ مارس ـ بداوا يتحولون بثلاث فرق مدرعة من فرقهم الخمس من رومانيا الى جنوب بولنده ، وعندما فاجأتهم ثورة الصرب ، عادت الفرق على أعقابها ، ولاشك فى ان فخامتكم ستقدرون هذه الحقائق الهامة » .

ولم يصلنى رد من السفير الا فى ١٢ ابريل عندما أخبرنى انه قبيل تسلمه رسالتى كان قد وجه خطابا خاصا الى فيشينسكى ، وأوضح فيه تخاذل الحكومة السوفييتية عن مواجهة احتياج المانيا لدول البلقان ، وحث الاتحاد السوفييتى بعبارات شديدة ، من أجل مصالحه الخاصة أن يحول سياسته الى سياسة متآزرة مع الدول التى لاتزال تحارب المحور فى تلك الجبهة ، واضاف السفير قائلا :

ـ « واذا كنت الان سأبلغ ستالين عن طريق مولوتوف برقية رئيس الوزراء ، التى يفهم منها نفس الفكرة ولكنها تعرضها بصورة اكثر اختصارا وحزما ، فانى أخشى أن يكون تأثيرها الوحيد اضعافا للاثر الذى ابقته رسالتى فى نفس فيشنسكى ... »

وقد احنقنى هذا التصرف ، والتاخير الذى حدث ، وكانت هذه هى الرسالة الوحيدة التى ارسلتها الى ستالين شخصيا قبل أن يشن الهجوم ، وكان الهدف من ايجازها ، والظروف الخاصة بها ، وصدورها عن رئيس حكومة لتبلغ مباشرة وبصفة شخصية عن طريق السفير الى رئيس الحكومة الروسية ، كان الهدف من كل ذلك أن تقع

موقعا خاصا من نفس ستالين وتثير انتباهه لما حوله ، وقد عرفت أخيرا ان السير ستافورد كريبس قد سلمها الى فيشنسكى فى ١٩ أبريل ، وأن هذا بدوره قد ابلغ السفير فى يوم ٢٣ ، أن مضمون الرسالة قد بلغ الى ستالين .

وليس فى استطاعتى ان اقرر جازما مدى ماكانت تفعله رسالتى لو سارت فى الطريق الذى رسمته لها ، ومافيه من اختصار وشكليات ، فى مجرى الحوادث ، ولكنه ما زال يحز فى نفسى ألا تنفـذ تطيمـاتى كما رسمتها ، فلو أتيح لى اتصال شخصى بستالين لاستطعت فى الاعم الاغلب ان أحول دن تدمير جزء كبير من سلاحه الجوى على الارض

الان نحن نعرف أن تعليمات هتلر فى ١٨ ديسمبر قد عينت يوم ١٥ مايو موعدا لشن الهجوم على روسيا ، وأن الغضب الذى اجتاحه بسبب ثورة يوغوسلافيا قد أجلت هذا الموعد شهرا ، ثم عاد الموعـد فتأجل ثانية الى يوم ٢٢ يونيو ، ولم تتطلب طبيعة التحركات الالمانية فى شمال الجبهة الشرقية حتى منتصف شهر مارس اية وسائل لاخفائها وعلى كل فقد اقتضت الاوامر الصادرة من برلين فى ١٣ مارس اغلاق البعثات الروسية العاملة فى المانيا وارجاعها الى وطنها ، فلم يصبح من المحتمل ان يستمر الروس فى ألمانيا بعد يوم ٢٥ مارس وفى خلال ذلك الوقت كانت مائة وعشرون فرقة المانية من افضل الجند تنتشر على مدى الجبهة الروسية ، وتتوزع فى ثلاثة تشكيلات ، وكانت المجموعة الجنوبية تحت قيادة رونشتادت ــ منهوكة القوى للعوامل التى سبق ان اوردتها ، ولم تكن فرقها المدرعة (البانزر) قد قدمت من اليونان ويوغوسلافيا الا منذ فترة قليلة ، وكانت على الرغم من أن الغزو قـد تأجل الى ٢٢ يونيو فى أمس الحاجة الى الراحة والاستصلاحات ، بعد مابذلته من جهد آلى فى البلقان

وفى ١٣ ابريل وصل الى برلين شولنبرج من موسكو ، ولم يستدعه هتلر للقائه الا فى يوم ١٨ من الشهر نفسه ، واشبعه شتائم فى روسيا ولكن شولنبرج تمادى فى تأكيد الراى الذى ابداه فى كافة رسائله ، وذكر ان روسيا قد أكدت لمندوبينا الاقتصاديين استعدادها اذا طلبت وعبر عن ثقته الشديدة فى استعداد ستالين للتنازل عن اشياء جديدة فى ظروف ملائمة تقدم الينا خمسة ملايين طن قمحا فى العام » ورجع شولنبرج من اصرار هتلر على القتال ، ويبدو ان تحذير سفير روسيا فى برلين الى موسكو فى ٣٠ ابريل مصابا بخيبة الامل من هذا اللقاء ، فقد ايقن ديكانزوف من الموقف واستمر شولنبرج فى موقف الذود عن سياسة التفاهم الروسى ــ الالمانى حتى النهاية .

وكان ديراكر ، الرئيس الرسمى لوزارة الخارجية الالمانية ، من نوع الموظفين المهرة الذين تجدهم فى دوائر الحكومة فى كل الدول ، ولم يكن دايزاكر سياسيا صاحب سلطات تنفيذية ، وهو فى اعتبار التقاليد البريطانية لا يعد من بين المسئولين عن سياسة الدول ، ومع ذلك اصدرت عليه محاكم الحرب التى انشاها المنتصرون حكما بالسجن لمدة سبع سنوات ، وعلى الرغم من معاملته كمجرم حرب الا انه قد قام بالنصح الحسن لرؤسائه ومن بمن طالعنا انهم لم يستمعوا اليه ، فقد لخص رأيه فى هذه المقابلة بقوله « بودى ان أوجز رأيى عن العلاقة بين المانيا وروسيا ، فلو كانت كل مدينة روسية تسعى الى تدميرها تساوى عندنا اغراق بارجة بريطانية ، فاننى كنت حينئذ أؤيد فكرة الهجوم هذا الصيف على روسيا ، ولكننى متأكد اننا سننتصر على روسيا عسكريا فحسب ، أما اقتصاديا فسنبوء بالخسران .

وقد يكون من المثير حقا تسديد ضربة قاضية الى النظام الشيوعى وقد يقال ايضا أن المنطق يقتضى نشر سيطرتنا على هذه القارة الاوربية الاسيوية ، لنستطيع بعد ذلك حشد قوانا فى الصراع ضد العالم الانجلو — سكسونى وتابعيه ، لكن السؤال الذى سيظل يتردد ، هل هجومنا على روسيا سيعد خطوة فى سبيل القضاء على انجلترا . وسيمنح غزونا لروسيا طاقة معنوية جديدة لبريطانيا ، فسيفهمونه على أن الباعث اليه عدم ثقتنا فى الانتصار عليهم ، ويعتبر قيامنا بهذا الغزو ليس اعترافا بأن الحرب ستمتد فحسب بل عملا فعالا على امتداد زمنها بدلا من تقريب نهايته »

وفى ٧ مايو اخبر شولنبرج حكومته بان ستالين قد تولى بنفسه رئاسة الحكومة السوفييتية (مجلس مفوضى الشعب) بدلا من مولوتوف وكان هذا بالنسبة اليه يبعث الامل من جديد ، فاضاف الى ذلك قائلا « اننى متأكد من أن ستالين بحكم منصبه الجديد سيكون عاملا فعالا فى استمرار الصلات الطيبة بين روسيا والمانيا والحرص عليها »

وردد نفس الفكرة ملحق المانيا البحرى فى موسكو ، كما جاء فى البرقية التى ارسلها « ان ستالين هو مرتكز التعاون الالمانى — السوفييتى » وتضاعفت البراهين على رغبة روسيا فى خدمة المانيا ، فاعترفت الحكومة الروسية فى ٣ مايو اعترافا رسميا بحكومة رشيد عالى فى العراق الموالى لالمانيا ، وطرد المفوضان الديبلوماسيان لحكومتى بلجيكا والنرويج من موسكو فى ٧ مايو ، ولقى الوزير اليوغوسلافى نفس المصير التماسا لرضاء المانيا ، وفى بداية شهر يونيو انهت روسيا عمل المفوضية اليونانية فى بلادها وقد سجل الجنرال توماس ، رئيس قسم

الاقتصاد فى وزارة الحرب الالمانية فى تقرير كتبه فيما بعد عن اقتصاد الرايخ الحربى مايلى :

ـ استمر الروس فى ارسال عونهم حتى مساء اليوم الذى بدأ منه الغزو ، وقد نقلنا بسرعة المطاط من الشرق الاقصى فى الايام الاخيرة باستخدام القطارات السريعة »

ولم تصلنا معلومات كافية عن حقيقة الاوضاع فى روسيا ، ولكن الغايات الالمانية كانت فى غاية الوضوح ، وقد أرسلت برقية الى الجنرال سمطس فى ١٦ مايو قلت فيها : « يبدو أن هتلر يعبىء قواته ضد روسيا ، فهناك تحركات مستمرة للحشود والفرق المدرعة وسلاح الطيران من البلقان شمالا ، ومن فرنسا والمانيا شرقا »

ولاشك فى ان ستالين قد بذل الكثير فى سبيل الابقاء على انطباعه النفسى الخاص نحو هتلر ، للدرجة التى استطاع شولنبرج ان يرسل الى وزارة الخارجية فى ١٣ يونيو اى بعد مرور شهر باكمله على تحركات القوات الالمانية الضخمة وحشدها ، يرسل مايلى : « ابلغنى مفوض الشعب مولوتوف منذ قليل محتوى البيان الذى ستذيعه وكالة تاس الليلة ، والذى ستنشره صحف موسكو فى الغداة ، وهذا نصه :

« قبل ان يذهب سفير بريطانيا كريبس الى لندن ، وبعد عودته خاصة ، روجت كثير من الشائعات ، عن قتال يوشك أن ينشب بين روسيا والمانيا ، وقد روجت هذه الشائعات الصحف الانجليزية والاجنبية . . .

وبالرغم مما فى هذا من كذب سخيف ، فان المسئولين فى موسكو راوا ان يؤكدوا ان هذه الترهات ليست سوى مناورات سيكلوجية طائشة ، يشنها أعداء الاتحاد السوفييتى والمانيا هادفين الى نشر الحرب واندلاعها » .

وبات فى مقدور هتلر ان يحس بالرضا لنجاحه فى اضفاء السرية التامة على تحركاته ، وفى خداع الفريسة التى مازالت تحيا تحت سيطرة الاوهام .

وخليق بنا أن لا ننسى هنا غفلة مولوتوف الى آخر لحظة ، فقد ارسل شولنبرج برقية فى الساعة الواحدة والدقيقة السابعة عشرة من صباح ٢٢ يونيو ، الى وزارة الخارجية الالمانية جاء فيها : « فى التاسعة والنصف من هذا المساء استدعانى مولوتوف ، وبعد أن حدثنى عن

حوادث اختراق طائراتنا مرارا للحدود الروسية قال : « هناك براهين عديدة على عدم رضاء الحكومة الالمانية عن الحكومة الروسية ، وقد تضافرت الانباء على أن القتال أصبح لامحالة منه بيننا وبين المانيا ، وليس فى استطاعتنا أن نجد مبررا لهذا التغير من جانب المانيا ... ولذا سيكون شاكرا اذا ابلغته العوامل التى طورت الموقف الى هذا الحد فى الصلات بين المانيا وروسيا »

وقد أجبته بأنى لا أملك التفسيرات للموقف ، لاننى محتاج الى معلومات كافية ، كما وعدته بأن أبلغ رسالته الى برلين »

ولكن الموقف كان قد وصل الى غايته ، وفى الساعة الرابعة من صباح اليوم نفسه أى فى يوم ٢٢ يونيو سنة ١٩٤١ ، كان ريبنتروب يقدم اعلان الحرب الرسمى الى سفير روسيا فى برلين ولدى الفجر كان هناك لقاء بين شولنبرج ومولوتوف فى الكرملين كذلك ، وانصت جيدا الاخير الى الرسالة التى تلاها السفير الالمانى ثم قال :

« اذن هو القتال ، لقد اغارت طائراتكم منذ هنيهة على عشر قرى مكشوفة ، فهل أنت على يقين بأننا نستأهل منكم ذلك ؟ »

وكان من الصعب علينا بعد البيان الذى أذاعته وكالة تاس ، وقد اوردته منذ قليل ، أن نقول شيئا بعد التحذيرات الكثيرة التى وجهها ايدن لسفير روسيا فى لندن ، أو الى ماقمت به بنفسى لأثير انتباه ستالين للخطر الذى يدهمه ، وكانت حكومة أمريكا قد اطلعت روسيا على تفاصيل دقيقة لتطور الاوضاع ، ولكن مافعلناه ذهب هباء ازاء المصطلحات النهائية التى حال بها ستالين بينه وبين رؤية الموقف الرهيب ، وعلى الرغم من أن التقديرات الالمانية ذكرت أن مائة وستا وثمانين فرقة روسية قد وقفت على الحدود ومن بينها مائة وتسع عشرة فرقة فى مواجهة القوات الالمانية ، فان الواضح أن الحشود الروسية قد فوجئت تماما بالزحف الالمانى ، ولم يجد الالمان اثرا لاية استعدادات دفاعية فى المناطق المتقدمة ، وقد اسرعت الى الانهيار كل الوحدات الروسية التى حشدت على الحدود ، وكان من المحتم أن كارثة كتلك التى حاقت بالسلاح الجوى البولونى فى أول سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، ولكن على مدى أوسع ، بالمطارات الروسية ، وفوجئت مئات الطائرات هناك عند الفجر وهى رابضة فى ارض مطاراتها ، فتحطمت قبل أن تستطيع التحليق فى الجو ، وهكذا كان دوى القذائف الالمانية عند الفجر أقوى من صوت الدعاية الروسية التى قامت فى أثناء تلك الليلة بشن حملة واسعة ضد بريطانيا وأمريكا ، وهكذا نرى أن الشريرين

ليسوا دائما اذكياء ، وان الطغاة ليسوا دائما على صواب .

وليس لى ان استمر فى البحث دون الاشارة الى الاجراء الفظيع الذى قرر هتلر أن تتبعه السياسة الالمانية ضد أعدائه المحدثين ، والذى اتخذ تحت هول القتال المرير فى المناطق المجدبة وبين غضب الشتاء.ففى يوم ١٤ يونيو سنة ١٩٤١ عقد اجتماعا أصدر فيه توجيهات شفوية بشأن معاملة القوات الالمانية لجنود الجيش الروسى وأفراد الشعب السوفييتى ، تلك المعاملة التى بلغت غاية القسوة والوحشية ، وقد ادلى الجنرال هولدر فى محاكمات نورمبرج بالشهادة التالية :

« قبل بدء الهجوم على روسيا دعا الفوهور الى اجتماع خاص حضره جميع القادة والافراد الذين على علاقة بالقيادة العليا ، ليتناقش معهم بشأن الهجوم المنتظر على روسيا وقد نسيت موعد الاجتماع بالضبط ولكنى لم أنس ماقاله هتلر من أن القتال الذى سينشب مع روسيا يجب أن يكون مغايرا تماما للقتال الذى شن على الغرب ... واضاف الفوهرر ان النزاع بين روسيا والمانيا هو نزاع روسى ، ولما كانت روسيا لم تشترك فى معاهدة جنيف فان أسرى الحرب يجب أن يعاملوا معاملة خاصة غير التى تنص عليها المعاهدة .. وذكر أيضا أن من يسموا بالمفوضين يجب الا يعتبروا من أسرى الحرب »

وكتب كايتل مايلى :

ــ « كان هتلر يرى ان القتال سيكون حاسما بين مبدئين وأنه نظرا لذلك فلا يجب أن نستخدم مع روسيا فى هذا القتال الاساليب التى نقرها نحن الجنود ، والتى يقر العرف القانونى الدولى بأنها الاساليب الوحيدة الصائبة »

وفى مساء يوم الجمعة ٢٠ يونيو ذهبت وحيدا بسيارتى الى تشيكرز ، وكنت اعرف أن الاجتياح الالمانى لروسيا قد يبدأ بعد أيام او بعد ساعات ، وكنت قد انتويت توجيه رسالة من الاذاعة فى مساء السبت ، خاصة بهذا الشأن ، فكان على طبعا ، أن أصوغ أفكارى فى كلمات دقيقة ، اختارها بكل عناية ، خصوصا وقد اعتبرت الحكومة الروسية فيما سبق كل مايصدر عنا من نصائح أو تحذيرات ــ جهلا منها او تكبرا ــ ليس سوى محاولة يائسة من قوم حاقت بهم الهزيمة لدفع الاخرين الى نفس المصير ، وعلى هدى من هذه الخواطر التى دارت بنفسى فى السيارة ، رأيت تأجيل الاذاعة الى مساء الاحد ، اذ يزداد الموقف وضوحا ، وهكذا مضى يوم السبت بأعبائه العادية .

وعندما صحوت صباح الاحد ٢٢ يونيو ، استمعت الى اخبار مشروع هتلر فى هجومه على روسيا فانتقل اليقين الى واقع ، ولم يعد لدى أى تردد فى اختيار الموقف الذى يجب علينا أن نلتزمه ، كما كنت على يقين مما سأذيعه ، ولا ينقصنى فى هذا السبيل الا اعداده ، وطلبت من الاذاعة أن تعلن عن اذاعة لى فى تمام التاسعة مساء ولحق بى الجنرال ديل من لندن ، حاملا لى كل تفاصيل الموقف ، لقد كان الهجوم الالمانى على منطقة عريضة ، وفاجأوا قسما كبيرا من طائرات السلاح الجوى الروسى وهى رابضة فى أماكنها ، ويبدو ان الالمان يواصلون توغلهم فى سرعة كبيرة وبمنتهى الغلظة والعنف ، واضاف رئيس اركان حرب الامبراطورية قوله وأنا واثق من أن الجيوش الروسية سيتم حصارها فى مجموعات كبيرة »

وأمضيت النهار فى اعداد كلمتى ، ولم تكن لدى الفرصة لاستطلع اراء وزارة الحرب كما لم أجد مايحتم هذا فقد كنت على ثقة من مشاركة الجميع لى بمشاعرهم ازاء هذه المسألة وزادنى المستر ايدن واللورد بيفر بروك والسير ستافورد كريبس ، الذى كان قد ترك موسكو فى ١٠ يونيو ، وقد قلت فى غضون الخطاب الذى وجهته للاذاعة « لا تكاد النازية تختلف عن أسوأ ملامح الشيوعية ، فالنازية مجدبة من كل اعتقاد ومن اية مبدأ ، اذا استثنينا نزعة السيطرة العنصرية الغاشمة ، أن النظام النازى فى عنفه ووحشيته يفوق كل ما يتصور من نظم همجية قاسية وأنا أشد الناس كرها للشيوعية ، واكثرهم عداء لها ومقاومة فى مدى الخمسة والعشرين عاما الماضية ، وبكل تأكيد لن اتنازل عن اية كلمة ضدها قلتها سابقا ، ولكن هذا كله يتوارى أمام مانشهده اليوم ، ان الماضى يتوارى فى لمحة بصر بكل ماينطوى عليه من جرائم وحماقات ومآسى وكل الذى اشهده اليوم هو الجنود الروس ، وقد وقفوا على عتبات بلادهم ، يحرسون الحقول التى قلب آباؤهم تربتها منذ فجر التاريخ ، ويذودون عن البيوت التى تصلى فيها أمهاتهم وزوجاتهم ، حيث يضرع الجميع فى مثل هذه الاوقات الى الله ، أن يحفظ لهن احباءهن ، ومن يتولى امورهن ، ويدافع عنهن ، ويحميهن ، وانى لاشهد عشرة آلاف قرية روسية ، ينتزع فيها القوت انتزاعا من الارض ومع ذلك ، مع هذه الحياة الجافة فما تزال هذه القرى تموج بامواج انسانية أصيلة ، حيث تنطلق ضحكات العذارى ، ويتمادى الاطفال فى لهوهم ، وأشهد معدات القتال النازى تغير على هذه القرى فى هجومها المجتاح وفى مقدمة المغيرين الضباط البروسيون يصلصلون ويجلجلون ، ويتأنقون فى لباسهم العسكرى ، والعملاء الماكرون الذين

اجادوا وسائل اخضاع الشعوب وتعذيبها » (واشهد كذلك الجموع المنهمرة من جنود الهون بكل ماعرف عنهم من بلادة وخشونة ووحشية وانقياد أعمى وهم ينطلقون فى كتل زاحفة كالجراد المنتشر ، وارى القاذفات والطائرات المحاربة الالمانية وهى تذرع الفضاء جيئة وذهابا ، وعلى ظهورها آثار جراح احدثتها السياط البريطانية ، وقد هـزها الفرح لوقوعها على ماترى أنه فريسة سهلة الاصطياد .

« وخلف كل هذا الرجاء ، وكل هذه الرياح الهوجاء ، يوجـد فريق من الرجال الاوغاد يضعون الخطط ، وينظمون ، ويثيرون هذه الجبال المتراكمة من الشر والحقد على الانسانية جمعاء .

« وانى لاعلن قرار حكومة جلالته ، وانى على يقين كبير بأن دول الدومنيونات المستقلة ستجد فى هذا القرار مانوافق عليـه وتؤيده فى الوقت الملائم ، وذلك لان الظروف تحتم علينا أن نتكلم مباشرة وبدون ارجاء ذلك الى يوم واحد ساعلن هذا القرار ، ولكن هل يخالجكم شك فيما سننهجه من سبل ؟..

ان لنا هدفا واحدا واضحا ، واملا لن نتوانى عن تحقيقه ، فنحن نصر ونصمم على ضرورة القضاء على هتلر وتدمير نظامه النازى ، ولن يحول بيننا وبين هذه الغاية شىء على الاطلاق ، فلن نتحدث او نتباحث مع هتلر أو مع اى واحد من أفراد عصابته ، بل سـنقاتله فى البر ، وسنقاتله فى البحر ، وسنقاتله فى السماء ، حتى نستطيع باذن الله انقاذ البسيطة منه ومن شبحه ، ونحرر الشعوب من قبضة استذلاله ، وكل رجل يقاتل هتلر وكل دولة تقاتل النازية ، سنمد اليهـا يد العون ، وكل من ينحاز الى جانب هتلر فهو عدونا اللدود .

هذا هو نهجنا ، وهذا هو قرارنا . وعلى هدى من ذلك سنبذل لروسيا ولشعبها كل مانستطيع من مساعدة ، وسنناشد كافة أصدقائنا وحلفائنا فى شتى أنحاء العالم ان يسيروا فى نفس هذا السبيل ، كما سنسير فيه سياستنا بكل اخلاص واصرار .

« وليست هذه الحرب صراعا طبقيا ، وانما هى نضال مشترك بين الامبراطورية البريطانية وجامعة شعوبها ، دون تمييز بالعنصر أو الدين او الحزب ؛ وليس من حقى ان أعبر عن أمريكا ، ولكن الذى استطيع قوله انه اذا كان هتلر يظن أن زحفه على روسيا سيؤدى الى خلاف فى الرأى أو اضعاف فى البذل ، فى جانب الديمقراطيات العظيمة التى تصر اليوم على محقه والقضاء عليه فانه ليبالغ الخطأ اذ ان العكس تماما هو الذى سيحدث ، فهذا الهجوم الجديد لن يؤدى الا الى مضاعفة الجهود

المبذولة لانقاذ البشرية من وحشية ، وسنضاعف مواردنا وجهودنا وعزيمتنا .

ولا أرى الوقت مناسبا لتدعيم القيم الاخلاقية ورفاء حماقات الدول التى اعطت العدو كل فرصة لضربها واحدة بعد اخرى بينما كانت تستطيع بالتكتل والعمل الجماعى أن تنجو بنفسها وبالعالم كله من هذه الكارثة ، ولكن عندما اشرف منذ قليل الى ظمأ هتلر للدماء ، وشهواته البغيضة التى دفعت به الى مغامرة الهجوم على روسيا ، قلت ان هناك هدفا بعيدا من كل ذلك العنف ، فهو يتطلع بعد ان يحطم القوة الروسية الى أن يعود بقواته الرئيسية وجيشه الجرار وسلاحه الجوى من الشرق الى هذه الجزيرة التى يعلم أن عليه ان يسيطر عليها والا فسيعاقب على كل ما اقترف من آثام ، فهذا الغزو لروسيا ليس الا تمهيدا لهجوم كبير على بريطانيا ، وهو يتطلع بلا ريب الى الخلاص من مغامرته قبل هجوم الشتاء ، لينطلق الى بريطانية فيفرض سيطرته قبل أن يستطيع أسطول أمريكا وقواتها التدخل ، انه يستطلع الى استخدام تلك الخطة التى انتهجها كثيرا فى تدمير أعدائه واحدا واحدا وقد أصاب نجاحا الى اليوم فى تنفيذها ، حتى تتهيأ له كل الظروف للقيام بعمليته الأخيرة التى بدونها تظل كافة انتصاراته لا معنى لها ، وهذه العملية هى محاولة السيطرة على نصف العالم الغربى .

ولذلك فان ما يواجه روسيا من اخطار يواجهنا نحن ايضا ويواجه امريكا كذلك ، كما أن قضية كل روسى يهب للدفاع عن أرضه وبيته هو قضية كل انسان حر فى سائر أرجاء العالم ، وهى قضية الشعوب الحرة جميعا وعلينا ألا ننسى عبر هذه المحن التى نقاسيها جميعا ، وأن نبذل ــ جهودا مضاعفة ، وأن نسدد متحدين ضربة قاصمة مادامت لنا ارادة ، واحساس بالحياة .

هيئة قناة السويس

هكذا تعبر السفن القناة

١ ـ الاخطار باقتراب السفن من مدخلى القناة .

تقوم السفن المتجهة صوب أحد مدخلى القناة ، عند بلوغها مدى الاتصال ، باخطار وكلائها لاسلكيا بمعلومات عن اسم السفينة وجنسيتها وعن اعتزامها عبور القنـاة او مجرد التوقف فى الميناء والموعد المحتمل لوصولها ومـدة توقفها ، وما اذا كانت تحمل مواد خطرة ، وباية معلومات اخرى تفيد فى تحديد مركز الربط المناسب للسفينة داخل الميـنـاء . ويبلغ الوكلاء بـدورهم هـذه المعلومـات الى الهيئـة واذا كانت السفينة تحمـل مواد خطرة وجب تقديم الاخطار قبل وصـولها باربع وعشرين سـاعة على الاقل .

هيئة قناة السويس

هكذا تعبر السفن القناة

٢ ـ استقبال السفن القادمة الى بور سعيد .

يراقب برجا المراقبة الكائنان فوق مبانى الهيئة فى بورسعيد وبور توفيق وصول السفن القادمة من البحر ، وعندما تظهر احداهما يخطر قسم الحركة بوصولها .

وفى بورسعيد ، عندما تقترب السفينة من شمندورات الارشاد الخارجية للبوغاز تطلب المرشد اما برفع الاشارة الخاصة على أحد صواريها او بالتليفون اللاسلكى فتتصل سفينة الارشاد التابعة للهيئة والموجودة فى عرض البحر بمكتب الميناء بواسطة التليفون اللاسلكى وتوافيه بكافة البيانات التى تفيد فى تعيين المرشد اللازم لتولى عملية أرشاد السفينة فى الميناء اذا تم اختياره تبعا لحمولة السفينة ونوع شحنتها .

مطابع
الدار القومية للطباعة والنشر
١٥٧ شارع عبيد ـ روض الفرج
تليفون : ٤٥٣٤٦ ـ ٤٥٤٠٥ ـ ٣١٦٢٥



مجموعة اخترنا لك

تصدر

نصف شهرية باللغات العالمية

يشترك فى تحريرها وإعدادها

لجنة "اخترنا لك"

المراسلات : الدار القومية للطباعة والنشر
١٥٧ شارع عبيد – روض الفرج
تليفون : ٤٥٣٤٦ – ٤٥٤٠٥ – ٣١٦٢٥



الثمن ١٠ قروش